معالم الحج في تقريرات ابن تيمية | المصالحة الفلسطينية ... كعب أخيل المقاومة | الأسيرات لدى العدو الصهيوني

مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة الرابعة والعشرون . العدد ٢٦٨ . ذو الحجة ١٤٣٠ هـ . ديسمبر ٢٠٠٩ م

د. خليل الحية:
المخرج للواقع الفلسطيني ... استئناف المقاومة

الخطاب الليبرالي
في مواجهة التطرف

بل عادة وعبادة

لأول مرة في المنطقة الجنوبية

يعلن مستشفى أبها الخاص
عن افتتاح

الوحدة التخصصية لأمراض وجراحة القولون والشرج و المستقيم

لتشخيص وعلاج :

- ☆ البواسير بواسطة الأشعة تحت الحمراء .
- ☆ الشرخ الشرجي باستخدام حقن (بوتكس) بدون جراحة .
- ☆ الناسور العصعصي والشرجي بأحدث تقنية طبية .

(الكشف المبكر لأورام القولون والمستقيم)

تحت إشراف الدكتور / الحسن النعمي

استشاري الجراحة العامة - جراحة المناظير - وجراحة القولون والمستقيم

كما يتشرف المستشفى بافتتاح ..

الوحدة التخصصية لأمراض وجراحة الثدي

وتقوم هذه الوحدة بمعالجة :

- ✱ استئصال الورم دون الحاجة للاستئصال الكامل للثدي .
- ✱ استئصال أنسجة الثدي مع الحفاظ على الجلد .
- ✱ إجراء عمليات الغدد الحارسة لأورام الثدي .
- ✱ الفحص المبكر لأورام الثدي بأحدث الطرق .

تحت إشراف الدكتور / محمد سعد القحطاني

استشاري جراحة الأورام ورائد جراحة أورام الثدي

استشاري الجراحة العامة - المناظير - جراحة الكبد والبنكرياس وزراعة الأعضاء

مع تمنياتنا لكم بدوام الصحة والعافية

ABHA PRIVATE HOSPITAL

الفاروق الحديثة للطباعة والنشر

صدور الجزء الخامس من مجموع
رسائل ابن رجب وبه يتم المجموع

قمنا بتحقيقه على عدة نسخ خطية وقد تفردت طبعتنا بالمقابلة على ثلاث قطع من نسخة دار الكتب المصرية وهي نسخة متقنة بها زيادات هامه كما قمنا بالحكم على جميع الاثار المرفوعه والموقوفه

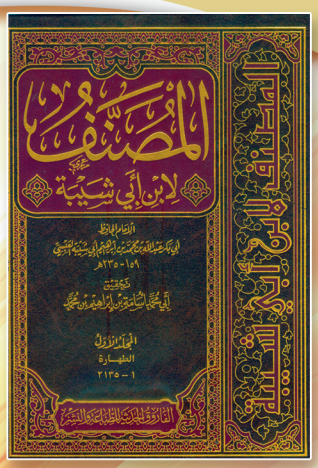

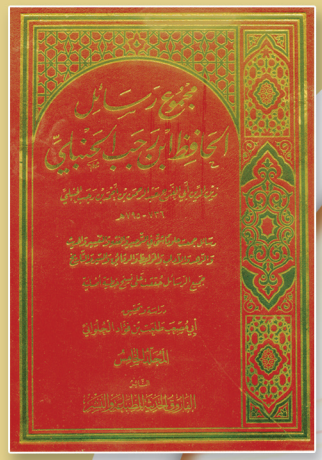

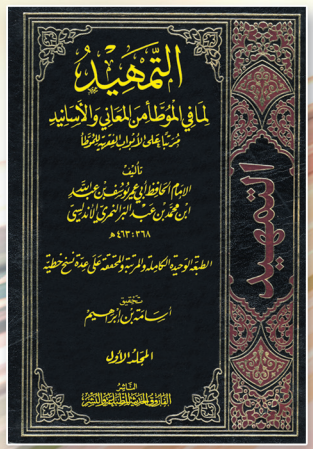

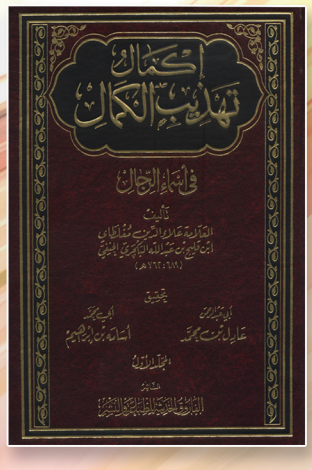

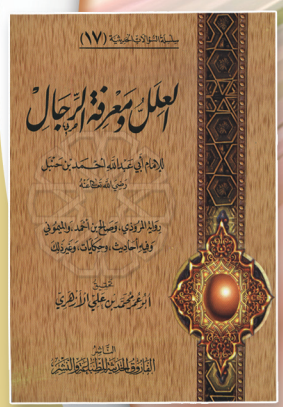

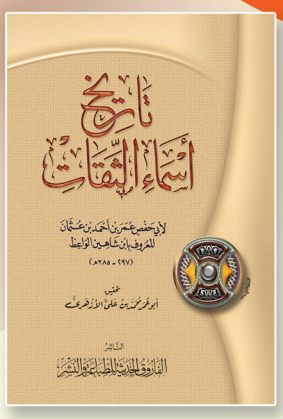

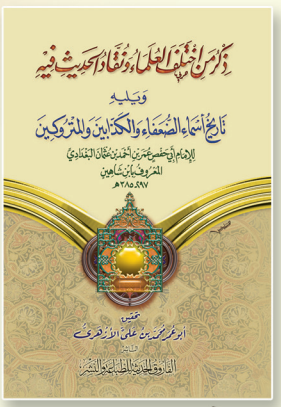

أحدث الإصدارات

تواصلوا معنا عبر موقعنا
www.dar-alfarouk.com

مطلوب وكلاء فى جميع دول العالم

العنوان: خلف ٦٠ شارع راتب ـ حدائق شبرا ـ القاهرة هاتف ٢٤٣٠٧٥٢٦ فاكس ٢٢٠٥٥٦٨٨ جوال ٠١٠١٦١٨١١٦ (+٢٠٢)

0122425479
Des. Hesham Hosain

مكتبة أولاد الشيخ للتراث

متخصصون فى كتب التجويد والقراءات وعلوم القرآن

يسر

من إصداراتنا

أن تقدم أحدث إصداراتها طبعة جديدة بتحقيق جديد لأشهر كتب التفسير

تفسير القرآن العظيم

للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي

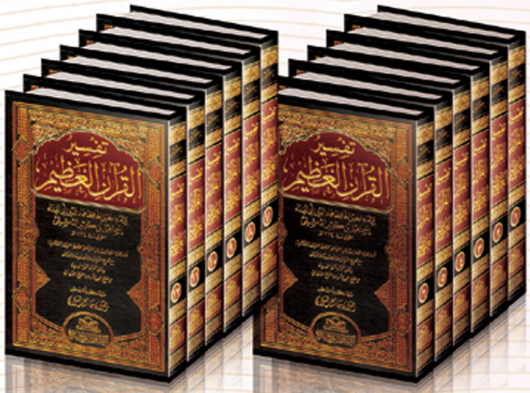

١٢ مجلد

تم بذل الجهد فى ضبط نص هذا الكتاب على النسخ الأصلية والمخطوطة الأزهرية،
وتم تخريج كل الآيات المستشهد بها فى ثنايا التفسير مع تخريج الأحاديث والآثار
والحكم عليها من كتب أهل العلم وأقوال الشيخين أحمد شاكر والألبانى رحمهم الله
مع التعليقات العقائدية والتاريخية والفقهيه على فقرات الكتاب، وقد قام بهذا العمل
نخبة من المحققين تحت إشراف رضوان جامع رضوان

إحرص على إقتناء هذه النسخة

مكتبة أولاد الشيخ للتراث

الهرم: ٣٥٦٢٨٣١٨ - فيصل: ٣٧٤١٠٧٠٤ - الأزهر: ٢٥١٤٨١٤٩

٠١٠٥١١٢٤٤٦ - ٠١٠٥٨٢٨٨١٩ email: awlad_elshakh@yahoo.com

التوزيع داخل المملكة العربية السعودية دار الحديث - الرياض تليفاكس: ٤٥٨٩١٠٦ - ٠٥٠٦٤٠٣٤٢٨

زوروا جناحنا بمعرض الدوحة الدولي للكتاب ومعرض القاهرة الدولي للكتاب

مجلة البيان
إسلامية شهرية جامعة

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر

نائب مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
خالد حسن

المراسلات والإعلانات:
الدول العربية:
السعودية:
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف الاشتراكات مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني:
التحرير:
editors@albayan.co.uk
الاشتراكات:
sub@albayan.co.uk
التسويق:
sales@albayan-magazine.com

عنوان المجلة على الشبكة العالمية: www.albayan-magazine.com

الموزعون:
الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف: ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦.
سلطنة عمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠.
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية: الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ ـ ٤٥٥٧٨١١ ـ ٤٥٥٧٨١٢ ـ فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع: ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء: ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

الحسابات:
السعودية: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة ـ شارع الأربعين ـ حساب مجلة البيان رقم ٧/٢١٠٠
ـ مصرف فيصل الإسلامي ـ حساب رقم: ٠٠٢ ـ ٤٥١٤ ـ ٤٢ـ ١٠٩
ـ الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي ـ حساب رقم ٦٣٤٩٢٤
الإمارات: بنك دبي الإسلامي ـ (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤
قطر: بنك قطر الدولي الإسلامي رقم: ١١١١٠٠٥٤٢٣٠٠١

■ افتتاحية العدد
ركائز التدين — التحرير — ٦

■ دراسات في العقيدة والشريعة
- بل عادة وعبادة — محمد بن شاكر الشريف — ٨
- معالم الحج في تقريرات ابن تيمية — د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف — ١٨

■ قضايا دعوية
- وقفات مع قاعدة: (بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين) — انجوغو مباكي صمب السنغالي — ٢٢
- التفكُّر عبادة ربانية وضرورة دعوية — محمد عادل — ٣٢

■ دراسات تربوية
- إعجاب المرء بنفسه — صالح بن فريح البَهلال — ٣٦

■ النجاح إدارة
جَمْع الأصدقاء بدلاً من جَمْع التبرعات — إبراهيم بن سليمان الحيدري — ٤٠

■ أفق أخضر
أمتنا: في تقدُّم أم تأخُّر؟ (٥) — د. عبد الكريم بكار — ٤٢

■ حوار
حوار مع الدكتور خليل الحية — أجرى الحوار: محمد الصواف — ٤٤

■ نص شعري
انْظُر لِقَلْبِكَ — مشبب القحطاني — ٥٣

■ المسلمون والعالم

- المصالحة الفلسطينية... كعب أخيل المقاومة — أمير سعيد — ٥٦
- الأسيرات لدى العدو الصهيوني (تقرير) — نائل نخله — ٦٢
- قصة قصيرة... عفواً طويلة جداً — أحمد فهمي — ٦٧
- التفوق الشيعي! — أنور قاسم الخضري — ٦٨

■ قراءة في كتاب

الصحافة والهيئة... حقائق ومراجعات تأليف: محمد بن عواد الأحمدي — عَرْض: إسلام السيد علي — ٧٠

■ البيان الأدبي

سلام (الدمار) — مياسة النخلاني — ٧٣

■ دراسات اقتصادية

تفسير إسلامي للتخلُّف الاقتصادي في العالم الإسلامي — د. مصطفى عبد السلام — ٧٤

■ في دائرة الضوء

مفهوم النظر في القرآن الكريم — عبد الحكيم درقاوي — ٨٢

■ تيارات فكرية

الخطاب الليبرالي في مواجهة التطرُّف (قراءة نقديّة) — فهد بن صالح العجلان — ٨٦

■ متابعات

نقد الليبرالية: كتاب جديد للكاتب المغربي د. الطيب بوعزة — عرض: مجلة البيان — ٩٠

■ الورقة الأخيرة

حرب العطش ضد العرب — شعبان عبد الرحمن — ٩٢

بعضهم أولياء بعض

رغم ما يعلمه الجميع من المساندة التي تقدِّمها أمريكا لليهود بلا حدود أو قيود، فقد رضي كثير من العرب في خضم المحاولات السلمية للقضية الفلسطينية أن تكون أمريكا الحَكَم الذي تُرضى حكومتُه بين الطرفين، ورغم الخداع المكشوف الذي تقوم به أمريكا في الوساطة بين الطرفين، فقد قَبِل كثيرون التغافل عنه والمضيَّ في اتفاقات السلام بكل همة ونشاط.

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ حاولت الإدارة الأمريكية الجمهورية خداع المسلمين والعرب بالتلويح بقضية فلسطين في مقابل المشاركة في الحرب على ما يسمُّونه (الإرهاب)؛ فوعدوا بإقامة الدولة الفلسطينية عام ٢٠٠٥م، وقد انتهت فترة الإدارة الجمهورية ولم يتحقق من ذلك سوى التنازلات المتتالية التي تُقدَّم من جانب العرب، في مقابل الحصول على كلمات جوفاء، ثم جاءت الإدارة الأمريكية الديمقراطية واستبشر كثير من الذين لا يتبينون حقيقة الصراع ودوافعَه وخلفياته بحصول حلٍّ مُرْضٍ ومشرِّف، خاصة بعد خطاب رئيس أمريكا الذي وجَّهه للمسلمين في جامعة القاهرة. وإعلان الإدارة - فيما بعد - في مسلسل الخداع عدم موافقتها على الاستيطان اليهودي، وأنه لا بد من إيقافه، ثم لم تلبث أن تراجعت وزيرة الخارجية الأمريكية عن هذا التعهد الأمريكي، وزعمت أن رئيس وزراء اليهود قد قَدَّم في هذا الباب تنازلًا غير مسبوق، وتراجعت عن شرط إيقاف الاستيطان قبل بداية المفاوضات. والشيء الذي لا يمكن تصوُّره أنها استطاعت الحصول على موافقة بعض الزعماء على ذلك!

وها نحن أولاء مقبلون على عام ٢٠١٠م وحُلُم إقامة الدولة يخبو شيئاً فشيئاً. إن أمريكا ومعها أوروبا لن يقنَعوا إلا أن يحققوا لليهود كل مطالبهم؛ ولو كان في ذلك ابتلاع فلسطين كلها، وإغضاب المسلمين كافة.

إن من أكبر الخطأ أن نعوِّل على غيرنا في استرداد حقوقنا لا سيما أننا نعلم ونوقن أن اليهود والنصارى يوالي بعضهم بعضاً، كما قال - تعالى-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١] .

إن ما أُخذ بسيف الباطل لا يردُّه إلا سيف الحق وإن طال الزمن واختلفت موازين القوى؛ فهل نجد من يمسك بسيف الحق ويرفعه؟

سعر العدد: السعودية ١٠ ريالات | قطر ١٠ ريالات | الأردن ٧٥ فلسا | الكويت ٨٠٠ فلس | اليمن ١٥٠ ريالاً | الإمارات العربية ١٠ دراهم | مصر ٥ جنيهات | السودان ٢٠٠ دينار | البحرين دينار واحد | المغرب ١٣ درهما | سلطنة عُمان ٨٠٠ بيزة | فلسطين نصف دولار أمريكي
أوروبا وأمريكا ٢,٧٥ يورو أو ما يعادلها

الاشتراكات: السعودية ودول الخليج ١٢٠ ريالاً سعودياً | بريطانيا وإيرلندا ٤٧ يورو | أوروبا ٥٥ يورو | البلاد العربية وإفريقيا ٤٥ يورو | أمريكا وبقية دول العالم ٥٥ يورو | المؤسسات الرسمية ٦٠ يورو

ركائز التدين

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المجتبى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعد:

فإن من تأمَّل في واقع أهل الإسلام اليوم رأى بفضل الله - تعالى - شيوع الخير، وعموم البر، واتساع دائرة المعروف في كثير من مناحي الحياة؛ إلا أن في تلك المسيرة المباركة ظاهرةً مكدِّرة، تتمثل في اختلاف درجات الاستقامة وتعظيم الحرمة في بعض جوانب الحياة لدى فئات من المتدينين؛ بحيث تجد المرء الواحد - مثلاً - حريصاً على دعوة الآخرين لكنه خَلِيٌّ من بر الوالدين وصِلَة الرحم، أو عَرِيٌّ مما لا يسعه جهله من أحكام الشريعة، أو معنياً بالاحتساب لكنه سيئ الخُلُق عَسِر التعامل، أو يبدو حريصاً على نوافل العبادات لكنه ذو هشاشة بيِّنة في أداء الحقوق والتعاملات المالية، أو يُعرَف منه محافظته على الواجبات العينية: من صلاة وصيام وصدقة لكنه لا يشتغل بالواجبات الكفائية، كتبليغ الدين وبَذْل النصيحة.

وليس الحديث هنا عن وقوع العبد في زلة في هذا الجانب أو ذاك نتيجة غفلة أو فتور يعتريه؛ إذ ذاك موضع للمجاهدة وميدان للابتلاء، كما قال - تعالى -: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٩ - ٢٠٢] وقال ﷺ: «كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوابون»[1].

بل الحديث عن ظاهرة تجزئة التدين، والبَوْن الشاسع المستمر في الأخذ القوي لبعض الكتاب مع الإهمال شبه الكلي لبعضه الآخر، مع أنه - تعالى - يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨ - ٢٠٩].

ولعل مردَّ تلك الظاهرة الخطيرة إلى أمور عدة، من أبْرَزِها:

- عناية بعض الدعاة وطلبة العلم بمسألة العلم بأمر الله - تعالى - ونهيه، مع الضعف البيِّن في العناية بمسألة العلم به - تعالى - من خلال مطالعة أسمائه - تعالى - وصفاته، ومشاهدة آياته في الأنفُس والآفاق، مما ولَّد هشاشة في بواعث التدين: من محبةٍ لله - تعالى - وتعظيمٍ لأمره، وورعٍ في مقاربة حِماه، ومن إجلال الله - تعالى - ومهابته، ومخافة التعرض لسخطه وعقابه، ومن الطمع في ثوابه - تعالى - ورجاء الظفر بدقيق لُطْفه وعظيم إنعامه في الدنيا والآخرة.

وهذا جانب محوري في التدين؛ إذ من لم يتعرف على جلال الله - تعالى - وكماله، ويرى آثار ذلك في كل شيء حوله، ويتغلغل في سويداء قلبه استحقاقُه - سبحانه - لجميع المحامد وصروف التذلل كلها، وأن الأمر أَمْره، ولا حول ولا قوة إلا له، والخير كله في يديه، والشر ليس إليه؛ كيف يستطيع - من كانت تلك صفاته - الانعتاقَ من أسوار الهوى وزُخْرُف الشيطان ومفارقة حصون الشهوة، ولذا؛ فإن ظاهرة الفصام النكد بين العلم بالله والعلم بأمره، والتي تُرى في وقتنا الحاضر بجلاء - واقعاً لا تنظيراً - في أوساط فئات عريضة من جيل الصحوة وأهل الدعوة، متى أردنا قوة في أَخْذِ الكتاب وشمولاً في التدين... إن هذه الظاهرة لا بد أن تضعف إن لم تتلاشَ؛ لأنه لن يخشى الله ويتقيه إلا من كان متضلعاً من العلم بالله، عارفاً بأمره ونهيه، أما من أغفل الأمرين أو أحدهما على حساب الأمر الآخر؛ فإنه واقع في هذه

(١) الترمذي: ٢٤٩٩، وحسَّنه الألباني.

الظاهـــرة ولا بد؛ إما لأنه لن يقْدُر الله – تعالى – حق قَدْره، وإما لجهله المريع بأمره – تعالى – ونهيه.

– ارتباط مفهوم التدين لدى كثير من شـــباب الإسلام بالأعمال الظاهرة على حساب استصلاح القلوب والعناية بأعمالها، مع أن القلب إمام الجوارح وشـــريف الأعضاء؛ بصلاحه تصلح، وبفساده تفسد؛ فمتـى كـان القلب سـليماً ليـــس فيـه إلا محبـة اللـه – تعالـــى – ومحبة ما يحبه – سبحانه – وخشية الله – عز وجل – وخشية الوقوع في ما يكرهه – تقدست أسماؤه – فمتى كان القلب كذلك صلحت حركات الجوارح كلها، ونشـــأ عـــن ذلك اجتناب المحرمات وتَوَقِّي الشـــبهات؛ أما متى كان القلب فاســـداً قد استولى عليه اتِّباع هواه، فسدت حركات جوارحه، وانبعث صاحبه إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب قوة اتِّباعه لهواه.يقول ابن القيم: (من تأمَّل الشـــريعة فـــي مصادرها ومواردها عَلِـــمَ ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفْـــرَض على العبد من أعمال الجـــوارح؛ وهل يميَّز المؤمن عن المنافق إلا بما في قَلْب كل واحد منهما من الأعمال التـــي ميزت بينهما؟ وهل بتمكن أحدٌ من الدخول في الإســـلام إلا بعمل قَلْبه قبل جوارحه؟ وعبوديـــة القلب أعظم من عبودية الجـــوارح وأكثر وأدوم؛ فهي واجبة في كل وقـــت، ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام، والإســـلام واجب الجوارح في بعض الأحيان؛ فمركب الإيمان القلب، ومركب الإسلام الجوارح)[1].

فالعناية بالقلوب والحرص على ســـلامتها مدخل الفلاح ومفتاح الســـعادة في الدنيا والآخرة، ومن تأمَّل في أحوال الناس اليوم شاهد بجلاء أن العناية بأعمال القلـــوب لا تتوازى مع جلالتهـــا، وعلو منزلتها، وكونها شَـــرْط النجاة وركيزة التدين، والمحور الأعظم للإقبال على الله – تعالى – بل إن عامة جوانب الاختلال اليوم في وسط أهل الإسلام بعامة ومعاشر المتدينين بخاصة مردُّها إلى قلة الفقه في هذا الباب.

– التعلق بالدنيا وطَلَبُ راحتها والاشـــتغال بأعمالها عن الآخرة، وهو ما أدى إلى تشـــتُّت هموم القلب، وإلى عدم عكوفه علـــى الله، وتفريغه لمحبتـــه، تعـالى. وهـو ما يجعل المرء يخلط عملاً صالحاً وآخر ســـيئاً بحســـب اختـــلاف عمق غفلته ومدى قوى الهـــوى لديه نحو هذا العمل أو ذاك. والداعي للوقوع في هذا الداء العضال، هو: ضَعْف الوعي بطبيعة النفس البشـــرية ووظيفتها، ومحدوديةُ الإدراك العميق لحقيقة الدنيا والآخرة، وقلَّةُ البصيرة بعواقب الأشـــياء ونتائجها، وعدمُ التحرز ممـــا يمكن أن يكون؛ وإلا فمن يدرك ذلك: كيف لا يجمع همته على الله ولا ينصرف بكليته إليه، سبحانه. وهو يعلم حقارة الدنيا وهوانها، وعلوَّ منزلة الآخرة وعظيم نعيمها وشديد عقابها وهول الخسارة فيها؟

إن الانغماس فـــي الدنيا والوقوع في أَسْـــر ملذاتها من أعظم ما يسوِّغ للمرء الاســـتقامة على أجزاء من الدين والتفلت من بعضه الآخر، ويزيد من خطورة هذا الجانب غفلة عامة الخلق عن وقوعهم في إسار الغفلة وأوحالها؛ فاللهم! الهدايةَ والنجاةَ.

– ضَعْف العزيمة ومحدوديـــة الجدية في أَخْذ الكتاب بقوة؛ تعلُّماً وتدبـــراً وعملاً ودعوة، وكم فوَّتت دناءة الهمة على صاحبها من فرصة، وأورثته من تقاصُر ومعصية؟

إن التعبد بحسب الهوى، والعُجْب بالعمل، ورؤيةَ الطاعة اليسيرة، والوقوعَ في أَسْر الترف أو المعاناة من الفقر، والتسويفَ في الطاعة، وضَعْفَ التربية عن البِدار إلى تلقي أوامر الشرع كله للتنفيذ بحسب الاســـتطاعة، وضَعْف التواصي بالحق والتواصي بالصبر، هو ما أدى إلى الإخلاد إلى الأرض، والاشـــتغال بالسفاسف، واستمراء المعاصي والســـيئات، والاجتراء على الوقوع في المهلكات، والتواني عن تَحَمُّل المســـؤولية الشـــرعية نحو النفس والمجتمع، والرغبـــة في الدَّعَ ة والراحة وإن كان في ذلك مفارقة للشرع.

إن الجدية مقوِّم أصيل من مقومات شخصية المسلم الرزين، ولن يظفر بالاستقامة الشرعية – كما يجب – شخص غير متحلٍّ بها مهما تظاهر أو زعم. وإن التواني عن ركوب مطيتها مُورِث للهلكة، موقِع في الرَّدَى على الصعيدين (الشخصي والجمعي).

وفـــي الجملة: فظاهـــرة تجزئة التدين والتفلت المســـتمر من بعض جوانب الاستقامة ومظاهرها داء عضال لا بد للخلاص منه من التشبث بركائز التدين، والمداومة على متابعة الشـــرع واســـتهدائه، والاســـتعانة بالله – تعالى – على تلافيه، والعناية بمحاســـبة النفس، والقيام بمفارقة البطالين وأرباب الغفلة، وملازمة علمـــاء الأمة الربانيين والأخذ عنهم، وتقوية قنوات التناصح وجسور الاحتساب في أوساط الدعاة والمصلحين متى أردنا التعبد لله بحق ومتانة، والظفر بســـعادة الدنيا والنجاة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

فاللهم! اهدنا ســـبيلك، وبصِّرنا بدينك، وارزقنا الفقه عنك، والظَفَر بمرضاتـــك، وأعنا على تعاهد قلوبنا وصيانتها من الأدواء والأهواء، إنك جـــواد كريم، بَرٌّ رحيم، وصلى الله وســـلم على النبـــي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم: ٤/ ٢٨٧.

بل عادة وعبادة

تغطية المرأة وجهها بحضرة الرجل الأجنبي عادة وعبادة

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk

تتعرض كثير من شعائر الإسلام للهجران أو محاولة تقليل الأخذ بها عند كثير من الناس، ومن تلك الشعائر ما يتعلق بالمرأة، وذلك انطلاقاً من أن إفساد المرأة إفساد للمجتمع.

وممـا تعرض للهجوم والانتقاص في العقود الأخيرة سَتْر المرأة وجهها بحضرة الرجل الأجنبي، وأول ما بدأ ذلك ما واجهته المسلمات في بلدان الكفر؛ حيث مُنِعن من ارتداء الحجاب في كثير من الأماكن، لكن الأمر لم يقتصر على تلك البلاد التي تكفر برب العباد وشريعته، بل تعدَّتها إلى كثير من الدول الإسلامية، حتى تورط في ذلك بعض من يُنسب إلى العلم، وأول ما بدأ الأمر في الدول الإسلامية كان يختفي ويستتر خلف قول مجموعة من أهل العلم فحواه: أن تغطية وجه المرأة بحضرة الرجل الأجنبي ليس بواجب، مع أنهم قالوا: إن التغطية مستحبة وفضيلة. لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تعدَّاه لما هو أطغى وأدهى؛ إذ وجدنا من يكتب كتاباً نشازاً بعنوان: «تذكير الأصحاب بتحريم النقاب» ثم فوجئنا أخيراً ببعض (المرجعيات الدينية) تزعم أن تغطية المرأة وجهها بحضرة الرجل الأجنبي عادة وليس عبادة، وكذبوا في ذلك وما صدقوا، وكأنهم لما رأوا أن القول بتغطية وجه المرأة أمام الرجل الأجنبي (سنَّة وفضيلة ليس

بواجب) لا يحقق ما يريدونه من إبعاد المرأة المسلمة عن التمسك بأحكام دينها؛ لأن المسلمة تحرص على الإتيان بالسنَّة ولو لم تكن فرضاً وواجباً - لَمَّا رأو ذلك أرادوا نفي الأمر بالكلية وقد أنفقوا الملايين في الدعاية لذلك القول وتعميمه، ثم أصدروا بعض القرارات المبنية على ذلك القول الكاذب؛ ليجبروا الناس على الالتزام به، مع أنهم لم ينفقوا درهماً واحداً في سبيل الحديث عمَّا هو متفق عليه بين المسلمين كافة؛ وهو حرمة التبرج التي تقع فيه نساء كثيرات. حتى نتج عن ذلك من الفتنة والبلايا ما تعجز الصحائف عن حَمْله، ومن هنا كان لا بد من بيان ما في ذلك القول من الباطل والخطأ الصُّراح.

فالعبادة: اسم جامع لما يحبه الله - تعالى - ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة الصادرة عن المكلَّف ابتغاء وجه الله ومرضاته. وما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال قد دل عليه وبيَّنه الوحي المعصوم من الكتاب والسنَّة، ومن ثَمَّ؛ فإن العبادة لا تثبت إلا بالدليل الدال عليها والمثبِت لها، ولا وجه لإثبات عبادة لم تدل عليها نصوص الشارع بوجه من وجوه الدلالة المعتبرة، وبناءً على ذلك؛ فكل ما أمر الشارع المكلفين بفعله أو قوله يكون الإتيان به من العبادة؛ سواء أكان الأمر أمر إيجاب أم أمر استحباب

والعادة: تكرير الشيء دائماً أو غالباً على نهج واحد بلا علاقة عقلية، وقيل: ما يستقر في النفوس من الأمور المتكررة المعقولة عند الطباع السليمة»[1]، وقال السعدي: «العادة: هي الديدن، وهو الدأب والاستمرار على الشيء وسُميت بذلك؛ لأن صاحبها يعاودها ويرجع إليها مرة بعد أخرى»، ومن ثَمَّ؛ فهي: اسم جامع لما يعتاد الناسُ قوله أو فعله: كالأكل والشرب والزواج ودفن الموتى ونحو ذلك من الأمور العادية المشترَكة بين الناس.

وما يعتاده الناس أنواع: فمنه ما يكون مَرجِعه للجِبلَّة التي خلق الله الخلق عليها: كاعتيادهم للنوم والاستيقاظ والقيام والقعود والأكل والشرب واللباس ونحو ذلك، ومنه ما يكون مَرجِعه إلى العُرف الشائع بين الناس في زمان أو مكان، ومنه ما يكون مَرجِعه القياس والتجربة، ومنه ما يكون مَرجِعه إلى أوامر الدين ونواهيه، كما يعتاد المسلم الأكل والشرب باليمين، وكما يعتاد إلقاء السلام إذا قَدِم على جماعة من الناس وكما يعتاد دخول المسجد بالرجل اليمنى والخروج بالرجل اليسرى ونحو ذلك، وهذا النوع الأخير يجتمع فيه الوصفان؛ فيكون عبادة من قِبَل طَلَبِ الشارع له، ويكون عادة من قِبَل المداومة على الإتيان به، ولا يناقض أحدهما الآخر؛ فاعتباره عادة لا ينفي كونه عبادة، واعتباره عبادة لا يناقض كونه عادة.

والعادة في مجتمع المسلمين تكون بأحد أمرين: إما أن تكون عادة موروثة أو عادة محدثَة:

١ - العادة الموروثة: إما أن تكون مأخوذة مما دلت عليه النصوص الشرعية، وإما أن تكون من أمر الناس القديم منذ القرون المفضَّلة مما تعاقبت عليه الأمة جيلًا بعد جيل من غير نكير من أحد من علماء المسلمين؛ فيكون من عُرْف المسلمين، وفي كلا الحالين تكون العادة معتبرَة شرعاً يؤخذ بها وتؤسَّس عليها الأحكام الشرعية.

٢ - والعادة المحدَثة: إما أن تكون عادة أحدثها الناس من تِلقاء أنفسهم من بعد القرون المفضَّلة، أو تكون عادة قادمة من غير بلاد المسلمين وقد دلت النصوص الشرعية إما إجمالًا وإما تفصيلًا على فسادها ومخالفتها لنصوص الشريعة أو مقاصدها، وفي كلا الحالين؛ فإن العادة مرفوضة غير مأخوذ بها ولا معوَّل عليها.

فالعادة على ذلك نوعان:

١ - عادة صحيحة: وهي التي لا تخالف نصاً من نصوص الكتاب أو السنَّة، ولا تفوِّت مصلحة معتبَرة، ولا تجلب مفسدة راجحة، وهي التي تُذكَر في مثلها القاعدة الفقهية المشهورة: «العادة محكّمة».

٢ - وعادة فاسدة: وهي التي تكون مخالفة للنص الشرعي من الكتاب أو السنَّة، أو مخالفة للمقاصد الشرعية، أو فيها تفويت مصلحة معتبَرة أو جَلْب مفسدة راجحة.

ومن هنا نسأل الذين يزعمون أن تغطية المرأة وجهها بحضرة الرجل الأجنبي عادة وليس عبادة؛ أي: يثبتون لها العادة، وفي الوقت نفسه ينفون عنها العبادة؛ فتكون نسبتها للدين حينئذٍ بدعة على حسب دعواهم السابقة، وهي: هل هي عادة فاسدة أم عادة صحيحة؟ والجواب واضح لكل ذي عقل ولبٍّ يفهم ويعي ويقيس الأمور بمقياسها الصحيح.

وإذا نظرنا لمسألة تغطية المرأة وجهها بحضرة الرجل الأجنبي من جهة العادة فقط تبيَّن بما لا مجال فيه للمناقشة أن هذه العادة موروثة لا حادثة بعد القرون المفضلة ولا مستجلَبة من بلاد الكفار، وحينئذٍ يقال: هذه العادة

(١) تاج العروس للزبيدي.

الموروثة، من أين ورثها المسلمون؟ فإما أن يقال: إنهم ورثوها من أيام الجاهلية واستمرت فيهم بعد مجيء الإسلام، وإما أن يقال: إنهم ورثوها من نصوص الشريعة التي تدل على ذلك؛ فإن قيل: إنهم ورثوها من النصوص الشرعية، دل ذلك على أن تغطية وجه المرأة مما دلت عليه الشريعة وطلبته من نساء المؤمنين وبذلك تكون أيضاً عبادة إلى جانب كونها عادة. وإن قيل: إنهم ورثوها من أيام الجاهلية[1]، قلنا لهم: عندما جاء الإسلام ووجد الأمر على ذلك النحو: هل نهى عنه أم أقره؟

فإن قالوا: نهى عنه قلنا لهم: كذبتم أين النهي؟ أين نهى الله – تعالى – أو رسوله ﷺ نساء المؤمنين عن تغطية وجوههن بحضرة الرجل الأجنبي؟ ولا يوجد نهي عن ذلك؛ فمن قاله، فهو كاذب مفترٍ على الله ورسوله.

وإن قالوا: أقرَّه، قلنا: قد ثبت المطلوب، وهو حجة عليكم؛ فإذا أقره الشرع دل على حُسْنه وصوابه؛ فالشرع لا يُقِر الناس على عمل باطل ويسكت عن بيان وجه الصواب فيه. والقائلُ في هذه الحالة: إن الشرع سكت عن بيان موقفه من هذه القضية ولم يبين الحق فيها، طاعنٌ في القرآن وطاعن في السنَّة: أما القرآن فقد قال الله – تعالى – عنه أنه هدىً ونور، وأنه مُبين، وأنه بيان، وما كان هذا شأنه فلا يسكت عن بيان الحق، وأما السنَّة فقد قال الله – تعالى – عن رسوله ﷺ: ﴿ ... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] فالرسول ﷺ يبيِّن للناس ما أنزله الله إليهم فيدلُّهم على الحق حتى يتمسكوا به، كما ينهاهم عن الباطل حتى يجتنبوه، وإذا سكت عن شيء بعد علمه به دلَّ على أن ذلك الشيء مما تقبله الشريعة وتُقِره، ولذلك عد علماء الأصول من السنَّة التي يؤخذ بها وتُستقى منها الأحكام: التقرير، ويقال لها: سنة تقريرية، وهي أن يحدث شيء ما في عهد الرسول ﷺ من قول أو فعل فيبلغه ويسكت عن النهي عنه؛ فيكون هذا إقراراً له وبياناً أنه حق ومشروع؛ إذ الرسول ﷺ، معصوم عن إقرار الباطل.

وقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم يستدلون – على إقرار الشارع لأمر ما بوجود هذا الأمر بينهم معمولاً به ولا ينهاهم القرآن عنه، كما قال جابر بن عبد الله – رضي الله تعالى عنهما –: «كنا نعزل على عهد النبي ﷺ والقرآن ينزل»[2]، زاد سفيان في رواية مسلم: «لو كان شيئاً يُنهى عنه لنهانا عنه القرآن»، وفي رواية أخرى لمسلم: «كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فلم ينهنا».

فلو قُدِّر أن القرآن لم يأمر نساء المسلمين نصاً بتغطية وجوههن؛ إلا أنه أقر ذلك ولم ينه عنه، ولما كانت المسلمات تفعل ذلك تديناً؛ لأنه لم يكن من عادتهن قبل ذلك، كان هذا الإقرار إقراراً أنه حق ودين وعبادة.

وهذا الكلام كله يقال على فَرَض أن تغطية المرأة وجهها بحضرة الرجل الأجنبي عنها لم يرد فيها غير عادة المسلمين، لكن: هل هذا الافتراض صحيح؟ بالطبع لا؛ فقد جاءت أدلة متعددة من الكتاب ومن السنَّة تدل على أن المرأة تغطي وجهها بحضرة الرجل الأجنبي عنها، فمن ذلك:

١ – قوله – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩] وهذا أمر من الله – تعالى – لرسوله الكريم المبلِّغ عنه وَحْيَه وشَرْعَه أن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، وهذا معناه: تغطية وجوههن ورؤوسهن وسائر أجسادهن بحضرة الرجل الأجنبي، وقد اتفقت كلمة كثير من المفسرين على أن تغطية وجه المرأة بحضرة الرجل الأجنبي داخلٌ في المراد بإدناء الجلابيب، وهناك العديد ممن تكلم بذلك من العلماء العالمين بتفسير كلام رب العالمين[3]، وكفى بذلك دليلاً وحجة واضحة على أن التغطية من الدين، ومن العبادة التي أُمر النساء بها.

والجلابيب جَمْع جلباب، والجلباب: هو الثوب الذي

(١) مع أن هذه العادة ليست موروثة من أيام الجاهلية؛ فالثابت في النصوص أن العادة في العصر الجاهلي كانت كشف وجه المرأة وليس تغطيته.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) من ذلك حَبْر الأمة وتَرجمان القرآن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس – رضي الله تعالى عنهما – والتابعي الجليل عبيدة السلماني، وشيخ المفسرين الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت٣١٠هـ، وأبو بكر أحمد بن علي الجصاص ت٣٧٠هـ، وأبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني ت ٤٨٩هـ، وعماد الدين بن محمد الطبري الشهير بالكيا الهراسي ت٥٠٤، ومحيي السنَّة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ت٥١٠هـ، وأبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري ت٥٣٨هـ، وأبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، وفخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي ت ٦٠٦هـ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ٦٧١هـ، وناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ت ٦٨٥ هـ، وعبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ت ٧٠١هـ، ومحمد بن أحمد بن جزي ت٧٤١هـ، وأبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ت٧٤٥هـ، وأبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي ت٧٧٥هـ، وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ت٨٧٥ هـ، وأبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ت٩٨٢هـ، وأحمد بن محمد ابن عجيبة الحسني ت ١٢٢٧هـ، ومحمد بن علي بن محمد الشوكاني ت ١٢٥٠هـ و أبو الفضل محمود الألوسي ومحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي ت ١٣٩٣هـ.

تشتمل به المرأة فيغطي جميع الجسد، قال ابن حجر - رحمه الله تعالى - في بيان تفسير الجلباب: «الجِلْباب وهو بكسر الجيم وسكون اللام وبموحدتين بينهما ألف، قيل: هو المِقْنَعة، أو الخمار، أو أعرض منه، وقيل: الثوب الواسع يكون دون الرداء، وقيل: الإزار، وقيل: الملحفة، وقيل: المُلاءة، وقيل: القميص»[1] فكل هذه ألفاظ متقاربة في المعنى، يراد بها الثوب الذي يستر البدن كله.

وقوله: «يدنين» أي: يقرِّبن «من جلابيبهن» أي شيئاً من جلابيبهن، والمعنى: يقرِّبن إلى وجوههن شيئاً من جلابيبهن فيغطين بها وجوههن.

أقوال بعض أهل العلم في بيان ذلك:

وقد فسر جَمْع من أهل العلم قديماً وحديثاً آية الجلابيب بتغطية المرأة لوجهها في مواجهة الرجال الأجانب، فمن هؤلاء:

١ - ابن جرير الطبري - رحمه الله تعالى - يقول: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبي! قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين: لا تشتبهن بالإماء في لباسهن إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن، فكشفن شعورهن ووجوههن، ولكن ليدنين عليهن من جلابيبهن، لئلا يَعْرِض لهن فاسق إذا علم أنهن حرائر، بأذىً من قول»، فبين - رحمه الله تعالى - أن الإدناء المأمور به يعني: تغطية الشعور والوجوه يخالفن الإماء بذلك؛ ليدل على أنهن حرائر، ثم بيَّن الطبري أن أهل التفسير منهم من قال بهذا القول الذي اختاره، ومنهم من لم يقل به، فقال: «ثم اختلف أهل التأويل في صفة الإدناء الذي أمرهن الله به، فقال بعضهم: هو أن يغطين وجوههن ورؤوسهن فلا يبدين منهن إلا عيناً واحدة... وقال آخرون: بل أُمرن أن يشددن جلابيبهن على جباههن»[2] وقد ذكر ابن جرير من قال بكل قول من هذين القولين من أهل التفسير.

٢ - أبو بكر الجصاص الحنفي يقول: «في هذه الآية «يدنين عليهن من جلابيبهن» دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجنبيين وإظهار الستر والعفاف عند الخروج، لئلا يطمع أهل الريب فيهن، وفيها دلالة على أن الأَمَة ليس عليها ستر وجهها وشعرها؛ لأن قوله - تعالى -: «ونساء المؤمنين» ظاهره أنه أراد الحرائر»[3].

٣ - القرطبي المالكي: «لما كانت عادة العربيات التبذل وكن يكشفن وجوههن كما تفعل الإماء، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن وتشَعُّب الفكرة فيهن، أمر الله رسوله ﷺ أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج إلى حوائجهن. وكن يتبرزن في الصحراء قبل أن تُتَّخذ الكُنُف، فيقع الفرق بينهم وبين الإماء فتُعرف الحرائر بسترهن؛ فيكف عن معارضتهن من كان عَزَباً أو شاباً»[4]، وقال في معنى الجلباب: «والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن»[5]، وكلام القرطبي هنا واضح في أنه يفسر الإدناء بتغطية الوجه وعدم كَشْفه، ثم حكى القرطبي القولين، كما فعل الطبري.

وظهور وجه المرأة خاصة إذا كان الوجه حَسَناً وضيئاً - وهو كذلك في نظر كثير من الرجال وتقديرهم وإن لم يكن كذلك في الحقيقة والواقع - قد يحمل بعض أهل الفضل والديانة، من أصحاب الصدور السليمة التي لا غش فيها ولا خيانة، على النظر إليه وإن لم يُرد من وراء ذلك سوءاً؛ فكيف بمن لم يكن كذلك، بل كان أكبر همِّه أن يجيل ناظريه في وجوه النساء؟

٤ - ابن كثير الشافعي يقول: «يقول - تعالى - آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن؛ ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية، وسمات الإماء، والجلباب هو الرداء فوق الخمار. قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عيناً واحدة، وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله - عز وجل -: يدنين عليهن من جلابيبهن، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى»[6].

٥ - القاضي البيضاوي الشافعي: «يا أيها النبي! قل

(١) فتح الباري: ١/ ٥٠٥.
(٢) تفسير ابن جرير الطبري: ١٠/ ٣٣١.
(٣) أحكام القرآن للجصاص: ٥/ ٢٤٥.
(٤) تفسير القرطبي.
(٥) تفسير القرطبي: ١٤/ ٢١٥.
(٦) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥١٩، وقد روى ابن جرير الطبري أثر عبيدة السلماني بإسناده إليه، وهو إسناد صحيح، فقد قال الشيخ محمد بن أحمد إسماعيل المقدم: «رجال هذا الإسناد جبال في الثقة والضبط» (عودة الحجاب: ٣/ ١٨٢).

لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن»: يغطين وجوههن وأبدانهن بملاحفهن إذا برزن لحاجة»[1].

٦ - جلال الدين المحلي: «يدنين عليهن من جلابيبهن: جَمْع جلباب، وهي المُلاءة التي تشتمل بها المرأة: أي يرخين بعضها على الوجوه إذا خرجن لحاجتهن إلا عيناً واحدة»[2].

٧ - وقال أبو السعود: «أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعي»[3].

٨ - وقال النسفي الحنفي: «ومعنى يدنين عليهن من جلابيبهن يرخينها عليهن، ويغطين بها وجوههن وأعطافهن، يقال: إذا زال الثوب عن وجه المرأة: أدني ثوبك على وجهك، و (مِن) للتبعيض، أي: ترخي بعض جلبابها وفضله على وجهها، تتقنع حتى تتميز من الأَمَة، أو المراد أن يتجلببن ببعض ما لهن من الجلابيب، وأن لا تكون المرأة متبذِّلة في درع وخمار كالأمة، ولها جلبابان فصاعداً في بيتها، وذلك أن النساء في أول الإسلام على هِجِّيراهن[4] في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في درع وخمار، لا فضل بين الحرة والأَمَة، وكان الفتيان يتعرضون - إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخل والغيطان - للإماء، وربما تعرَّضوا للحُرَّة لحسبان الأَمَة، فأُمرن أن يخالفن بزيِّهن عن زِيِّ الإماء، بلبس الملاحف وسَتْر الرؤوس والوجوه؛ فلا يطمع فيهن طامع»[5].

٩ - وقال الزمخشري: «يدنين عليهن من جلابيبهن: يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن، يقال: إذا زل الثوب عن وجه المرأة: أدني ثوبك»[6].

١٠ - وقال أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري: «أي يرخين أرديتهن وملاحفهن فيتقنَّعن بها، ويغطِّين وجوههن ورؤوسهن ليُعلم أنَّهنَّ حرائر؛ فلا يُتعرَّض لهنَّ ولا يؤذَين»[7]، وغيرهم من أهل العلم كثير.

ومما يدل على أن المراد بإدناء الجلابيب يدخل فيه تغطية الوجه:

أن تلك الآية قد توجَّه الأمر فيها بالإدناء لأزواج النبي ﷺ؛ فكان المعنى شاملاً لتغطية الوجه لوجوب ذلك عليهن بالإجماع، وهو ما يعني: أن نساء المؤمنين عليهن تغطية وجوههن عند الرجال الأجانب، لتوجُّه الأمر إليهن بإدناء الجلابيب مع نساء النبي ﷺ فقد خرج الأمر بذلك مخرجاً واحداً:

١ - قول الله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ...﴾ إلى قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ...﴾ [الأحزاب: ٥٣] قال ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قولَ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كما ثبت في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث؛ قلت: يا رسول الله! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلىً، فأنزل الله - تعالى -: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»، وقلت: يا رسول الله! إن نساءك يدخل عليهن البَر والفاجر؛ فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت كذلك»[8].

ومعلوم أن الحجاب الذي كان يطلبه عمر ليس هو مجرد تغطية الرأس والنحر أو العنق مع كشف الوجه، وإنما كان يريد غطاء البدن كله بما فيه الوجه، بل كان يريد أكثر من ذلك، كان يريد عدم الخروج من المنزل إطلاقاً، وقد دل على رغبته تلك حديثه في قصة خروج سودة - رضي الله تعالى عنها - عندما قال لها عند خروجها: قد عرفناك يا سودة - وكان يعرفها قبل الحجاب وكانت جسيمة لا تخفى على من عرفها - فانظري كيف تخرجين.

والاستخدام القرآني للفظ الحجاب إنما جاء في الستر، ويدل على ذلك آيات كثيرة، منها قوله - تعالى - في حق مريم - رضي الله تعالى عنها -: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا...﴾ [مريم: ١٧] والحجاب الذي اتخذته مريم فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: الستر والحاجز.

والثاني: أن الشمس أظلتها؛ فلم يرها أحد من أهلها وذلك مما سترها الله به.

والثالث: أنها اتخذت حجاباً من الجدران[9]، وكلها تدور حول سَترها كلية عن نظر الناس، وليس سَتر شعرها ونحرها.

والعلماء لم يختلفوا في المعنى المراد من الحجاب في آية الحجاب، لكن: هل الأمر بالحجاب قاصر على أزواج النبي

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٣٨٦.
(٢) تفسير الجلالين: ١/ ٥٥٩.
(٣) تفسير أبي السعود: ٧/ ١١٥.
(٤) هيجراهن: عادتهن.
(٥) تفسير النسفي: ٣/ ٣١٥.
(٦) الكشاف: ١/ ١٠٠٨.
(٧) الكشف والبيان: ٨/ ٦٤.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٠٤ والحديث المذكور أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، رقم ٣٨٧.
(٩) انظر في ذلك تفسير ابن جرير الطبري: ١٦/ ٥٩، زاد المسير: ٥/ ٢١٥ وفتح القدير: ٣/ ٣٢٧.

ﷺ أم هو عام يشمل نساء المؤمنين جميعهن؟

أسباب ورود الآيات تبيِّن أن الحديث كان عن أزواج النبي ﷺ لكن بالنظر إلى أدلة كثيرة يتبين أن نساء المؤمنين يشتركن في ذلك الحكم مع أمهات المؤمنين، منها:

أولاً: لما تقرر في الأصول أن العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب.

وثانياً: لاشتراك الجميع في علة الحكم، وهي قوله - تعالى -: «ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن»، قال ابن جرير - رحمه الله تعالى -: «وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب» يقول: وإذا سألتم أزواج رسول الله، ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج، متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب، يقول: من وراء سِتر بينكم وبينهن، ولا تدخلوا عليهن بيوتهن، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن، يقول - تعالى ذكره -: سؤالكم إياهن المتاع إذا سألتموهن ذلك من وراء حجاب، أطهر لقلوبكم وقلوبهن من عوارض العين فيها التي تَعرض في صدور الرجال من أَمْر النساء، وفي صدور النساء من أَمْر الرجال، وأحرى من أن لا يكون للشيطان عليكم وعليهن سبيل»[1].

وقال القرطبي: «في هذه الآية دليل على أن الله - تعالى - أذن في مسألتهن من وراء حجاب، في حاجة تَعرِض أو مسألة يُستفتَين فيها، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى، وبما تضمنَّته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة (بدنها وصوتها) كما تقدَّم، فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة: كالشهادة عليها، أو داء يكون ببدنها، أو سؤالها عما يَعرِض وتَعيَّن عندها»[2]، وقال أبو بكر الجصاص: «قوله - تعالى -: وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب: قد تضمن حظر رؤية أزواج النبي ﷺ وبيَّن به أن ذلك أطهر لقلوبهم وقلوبهن؛ لأن نظر بعضهم إلى بعض ربما حدث عنه الميل والشهوة، فقطع الله بالحجاب الذي أوجبه هذا السبب، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] يعني: بما بيَّن في هذه الآية: من إيجاب الاستئذان، وتَرْك الإطالة للحديث عنده، والحجاب بينهم وبين نسائه، وهذا الحكم وإن نزل خاصاً في النبي ﷺ وأزواجه، فالمعنى عام فيه وفي غيره؛ إذ كنا مأمورين باتباعه والاقتداء به، إلا ما خصه الله به دون أمته»[3].

٢ - ومن أدلة الأمر بالحجاب قول الله - عز وجل -: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

فقد نهى الله - تعالى - النساء عن إبداء زينتهن، واستثنى من ذلك ما ظهر من الزينة، وفي ذلك قولان مشهوران لأهل العلم:

القول الأول: أن ما ظهر منها، هو ما ظهر بدون قصد منها؛ أي: بغير اختيارها، فهو الذي ظهر، كأن يقع السِّتر أو يسقط، أو تكشفه الريح ونحو ذلك، ولم تكن هي التي أظهرته باختيارها، أو ما لا يمكن إخفاؤه، كالثياب الظاهرة، فهو ظاهر بوضعه.

والقول الثاني: أن ما ظهر منها، هو الوجه والكفان، وما تعلق بهما كالكحل والخضاب والأَسورة والخاتم.

واللغة تبيِّن أن (ظهر) غير (أظهر) فما ظهر من الزينة هو الذي ظهر، ولم يُظهره أحد، والوجه والكفان لا يظهران إلا إذا أظهرتهما المرأة؛ فالقول الأول أقوى وأصوب لدلالة الاستعمال اللغوي عليه؛ فمعنى الآية على ذلك نهي النساء عن إبداء الزينة، لكن ما ظهر من هذه الزينة بغير اختيارها - على التفصيل المتقدم - لا تُنهى عنها؛ لأنه خارج عن إرادتها.

وعندما جاء الحديث عن إبداء الزينة باختيار المرأة وإرادتها قال الله - تعالى -: «ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن...» الآية؛ فهنا إبداء الزينة يحدث باختيار المرأة وإرادتها؛ لأنها هي الفاعلة له، لذلك قيَّد هذا الإبداء بزوجها ومحارمها؛ فتظهر المرأة زينتها باختيارها لمن ورد ذِكْرهم في قوله - تعالى -: «ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ...» الآية، وهم الأزواج والآباء والأبناء وسائر من جاء في الآية؛ لأن الآية حصرت إبداء الزينة فيهم، أي: لا يجوز أن تبدي شيئاً من بدنها لأجنبي عنها؛ لا وجهها ولا كفيها ولا غير ذلك، وقد دل على ذلك أيضاً ووضَّحه أن من الذين استثنتهم الآية ممن يجوز إبداء الزينة لهم صنفين:

الأول: غير أولي الإربة من الرجال، وهم الذين لا شهوة لهم، وليس لهم رغبة في النساء.

والثاني: الأطفال الصغار الذين لم يظهروا على عورات النساء، فيعلموا ما هنالك؛ فهذان الصنفان لا يتأثران بزينة المرأة ولا تثير زينتها فيهم شيئاً، ولذلك جاز الإبداء لهم، مما يُعلم معه أن تلك التدابير إنما هي لمنع فتنة الرجال بالنساء، وبهذا يتبيَّن أن سَتر وجه النساء مطلوب؛ لأنه موضع الجمال ومكمن الافتتان.

(١) تفسير الطبري: ٢٢ / ٣٩.
(٢) تفسير القرطبي: ١٤/٢٢٧.
(٣) أحكام القرآن للجصاص: ٥/٢٤٢.

٣ – ومما يدل على أن سَتر الوجه مطلوب بدرجة كبيرة أن الآيات نهت النساء عن الضرب بالأرجل؛ لأن ذلك يُظهر زينة الحلي المخفية، فقال – تعالى –: ﴿ ... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١] ولا شك أن فتنة النظر إلى وجه المرأة أشد وأقوى من سماع صوت خلخال مستور لا يُرى على أرجل بعض النساء، والذي لا يُشك فيه أن وجه المرأة يجمع محاسنها، وهو محل نظر الرجال، وأن الفتنة الحاصلة بالنظر إليه أكثر بكثير من النظر إلى غيره، أو سماع صوت حلي مستور، ثم إن سياق الآية يبيِّن أن النساء كن منهيات عن إبداء موضع الخلخال؛ وإلا لو كان يصلُح لهن إبداء الموضع وإظهاره لما احتجن إلى الضرب بالأرجل حتى يعلم السامع بتلك الزينة المخفية.

وحينئذٍ يقال: أيهما أشد فتنة وتأثيراً في القلب: رؤية وجه المرأة، أم رؤية موضع الخلخال عليه الخلخال أم رؤية قدم المرأة؟ وإذا كانت الشريعة قد منعت من إظهار الخلخال أو موضعه، أفتجيز بعد ذلك إظهار الوجه؟

٤ – وقد جاء في السنَّة عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَنْتَقِبِ الْمَرْأَةُ الْمُحْرِمَةُ وَلَا تَلْبَسِ الْقُفَّازَيْنِ»(١).

القفازان: مثنَّى، مفرده القُفَّاز بضم القاف وتشديد الفاء؛ وهو شيء يُلبس على قدر اليد، فيغطي الكف والأصابع.

النقاب: الخمار الذي تستر به المرأة وجهها، ولا يبدو منه إلا العينان وهو مصنوع على قدر الوجه.

المُحرِمة: المرأة التي أهلَّت بالحج أو العمرة أو كليهما.

تنتقب: تستر وجهها بالنقاب.

هذا طرف من حديث طويل بيَّن فيه الرسول ﷺ ما لا يلبس المحرم من الثياب، كما بين فيه ما لا تلبس المحرمة، وأنها لا تستر وجهها بالنقاب؛ فكان في ذلك دليل من باب مفهوم المخالفة أن المرأة غير المحرمة يُشرع لها أن تستر وجهها بالنقاب، وكان أيضاً دليلاً على أن النقاب كان معروفاً زمن رسول الله ﷺ وكانت النساء تستعمله وتلبَسنه، حتى احتاج رسول الله ﷺ أن يبين للنساء المحرمات أنها لا تنتقب المرأة، وكان في منع المرأة المحرمة من الانتقاب دليل على أن وجه المرأة ليس بعورة، كعورة الصدر والنهدين مثلاً، وإنما يُطلب تغطيته من أجل نظر الرجال، فإذا كانت المرأة بحيث لا يراها الرجل الأجنبي عنها: كأن تكون في بيتها، أو في سيارة مظلَّلة بما يحجب رؤية ما بداخلها، أو عليها ستور، أو في مكان خال لا يوجد فيه رجال، لم يجب عليها تغطية وجهها، بل يجوز لها إبداؤه.

وذلك أن أمر المرأة في الإسلام مبنيٌّ على السَّتر والصيانة وعدم التبذل، مع عدم تضييق الواسع، لذلك جاءت النصوص تأمر المرأة بالقرار في بيتها، وترك الخروج منه إلا لحاجة، وألزمتها النصوص عند الخروج بأحكام وآداب كلها محقِّقة للستر والصيانة؛ فمنعت النساء من الاختلاط بالرجال في المجامع العامة، وفي الطرقات، وأمرت النساء بالاحتجاب من الرجال، والحجاب: هو كل ما منع شيئين أو حال بينهما وسترهما عن بعضهما.

وحجاب المرأة قد يكون بقرارها في البيت الذي تحجز جدرانه النساء عن أعين الرجال، ويكون بمنع الرجال الأجانب من الدخول على النساء في البيوت والخلوة بهن، كما يكون بثيابها التي تغطي بدنها كله فتكون حاجزاً بين المرأة وبين نظر الرجال عند الخروج.

والنقاب نوع من أنواع الحجاب الذي أُمرت به المرأة، كما أن جدار البيوت أو المنازل حجاب، وكذلك الخيمة حجاب، والثياب حجاب، وكل ما حجب شيئاً عن شيء أو منعه فهو حجاب؛ فالحجاب معنىً عام يمكن تحقيقه في عالم الواقع بعدة طُرُق كالتي مرَّ ذِكرها، والنقاب هو أحد تطبيقات الحجاب في عالم الواقع.

والحجاب نوعان: حجاب الأشخاص وذلك عن طريق الاحتجاب بالجدر أو الخيمة أو الستور، وحجاب الرؤية وذلك عن طريق الثياب، ولا ينحصر الحجاب في صورة واحدة من الصور، بل يتحقق احتجاب النساء عن الرجال بأمور كثيرة منها:

١ – قرار المرأة في بيتها وعدم خروجها منه بغير حاجة، وعدم اختلاطها بالرجال كما جاء في قوله – تعالى –: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٢ – منع دخول الرجال الأجانب على النساء في بيوتهن والخلوة بهن من غير وجود مَحرَم، كما دل على ذلك قوله – تعالى –: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، رقم ١٧٠٧، والترمذي: كتاب الحج رقم ٧٦٣، والنسائي: كتاب الحج رقم ٢٦٢٥، وأبو داود: كتاب المناسك رقم ١٥٥٤، وأحمد: رقم ٥٧٣١.

٣ - سَتْر المرأة جسدها كله من الرأس حتى القدمين عند الخروج، كما في قوله - تعالى -: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] قال ابن تيمية: «فآية الجلابيب في الأَرْدِية عند البروز من المساكن، وآية الحجاب عند المخاطبة في المساكن».

فالذي ينبغي التعويل عليه وخاصة في ذلك العصر الذي كثرت فيه الفتن، وفشت فيه الخيانة وضاعت فيه الأمانة، أن تغطي المرأة رأسها ووجهها ونحرها وجسدها كله، بثياب واسعة لا تشف ولا تصف، ولا تُظهر شيئاً منها صوناً لدينها وحفظاً لحيائها وعفافها، والمرأة لا تخسر شيئاً بتغطيتها وجهها، بينما تشهد الوقائع الكثيرة المتكررة أن في كَشْفه خسارتها وخسارة غيرها.

وظهور وجه المرأة خاصة إذا كان الوجه حَسَناً وضيئاً - وهو كذلك في نظر كثير من الرجال وتقديرهم وإن لم يكن كذلك في الحقيقة والواقع - قد يحمل بعض أهل الفضل والديانة، من أصحاب الصدور السليمة التي لا غش فيها ولا خيانة، على النظر إليه وإن لم يُرد من وراء ذلك سوءاً؛ فكيف بمن لم يكن كذلك، بل كان أكبر همِّه أن يجيل ناظريه في وجوه النساء؟

كَشْف النساء وجههن أمام الرجل الأجنبي أمر حادث طارئ، والمتتبع لمسألة كشف المرأة وجهها بحضرة الرجل الأجنبي من الناحية الواقعية يجد أنه أمر حادث ليس من شأن الناس القديم، ويدل على ذلك أمور، منها:

الأول: أن سفور المرأة وكشفها وجهها له دعاة معروفون، وله بداية يؤرَّخ لها في عصرنا الحاضر، فيقولون: أول من دعا إلى سفور النساء فلان، وأول من خلعت الحجاب وكشفت وجهها للرجال الأجانب فلانة، وهذا يعني: أنه لم يكن من أمر الناس القديم، بل هو شيء حدث بعد أن لم يكن حادثاً، وهو أمر لم يمض عليه أكثر من سبعين عاماً، وقد يختلف هذا التوقيت نوعاً ما باختلاف البلدان وقُرْبها من العمل بأحكام الشرع أو بُعدها عنه، وما زالت هناك حتى الآن بلاد تحافظ على هذا الحجاب نسأل الله لها الثبات.

الثاني: ما نقله أهل العلم في كتبهم من تتابع نساء المؤمنين على ستر وجوههن عن الرجال الأجانب. قال ابن حجر - رحمه الله تعالى -: «لم تزل عادة النساء قديماً وحديثاً يسترن وجوههن عن الأجانب»[١] ونقل عن الغزالي قوله: «لم يزل الرجال على ممر الزمان مكشوفي الوجوه، والنساء يخرجن متنقبات»[٢].

تنبيه:

نهي المرأة المحْرِمة عن لبس النقاب والقفاز لا يعني أنه يجب عليها أن تكشف وجهها وكفيها، ولا تسترهما عن أعين الرجال؛ إذ ليس هناك ما يمنع النساء من ستر وجوههن وهن مُحْرِمات عن الرجال الأجانب، كل ما هنالك أنها لا تستعمل النقاب في ذلك، وقد بين أهل العلم العلة في النهي عن النقاب والقفاز، وهو أنه مصنوع على قدر العضو؛ فالمنع من تغطية عضو أو جزء من الجسد بغطاء مصنوع على قدره يحيط به لا يقتضي المنع من ستره بالكلية بغير ذلك النوع من الغطاء؛ فإن الرجل المحرِم يَحرُم عليه لبس السراويل، ومع ذلك لا يحرم عليه تغطية المكان نفسه بإزار، بل يجب عليه تغطيته.

وقد دل على أن النساء المحرِمات يغطين وجوههن عند حاجتهن إلى ذلك إذا اقترب منهن الرجال أو اقتربن هن من الرجال، ما روته السيدة عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: «كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرِمات، فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزونا كشفناه»[٣]، وقول الصحابي: كنا نفعل كذا ونحن مع رسول الله ﷺ أو كنا نفعل على عهد رسول الله ﷺ صيغة لها حكم الرفع كما قرر ذلك علماء الأصول، و ما روته فاطمة بنت المنذر عن أسماء قالت: «كنا نغطي وجوهنا من الرجال، وكنا نتمشط قبل ذلك في الإحرام»[٤]، وعن عائشة - رضي الله عنه - قالت: «المحرِمة تلبس من الثياب ما شاءت إلا ثوباً مسه وَرْس أو زعفران، ولا تتبرقع ولا تلثَّم، وتسدل الثوب على وجهها، إن شاءت»[٥]، وروى سعيد بن منصور بسنده

---

(١) فتح الباري: ٩/ ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢) فتح الباري: ٩/ ٢٤٨.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، رقم ١٥٦٢، وابن ماجه: كتاب المناسك، رقم ٢٩٢٦، وأحمد: رقم ٢٢٨٩٤ وابن خزيمة: ٤/ ٢٠٣ وقال: وفي القلب منه، ورواه غيرهم، كلهم من طريق يزيد بن أبي زياد وهو متكلَّم فيه، قال ابن حجر: وفي إسناده ضعف، وقال الألباني: وسنده حسن في الشواهد ومن شاهِده الحديث الذي بعده (حديث أسماء) جلباب المرأة المسلمة: ١٠٧.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٢٤ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، قال الألباني: ووافقه الذهبي، وإنما هو على شرط مسلم وحده (جلباب المرأة المسلمة: ١٠٨) وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه: ٤/ ٢٠٣، بدون قوله «في الإحرام»، وأخرجه مالك في الموطأ، رقم٦٣٤ بلفظ: «كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات ونحن مع أسماء بنت أبي بكر الصديق».

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٥/ ٤٧، وقال الألباني: رواه البيهقي بسند صحيح (جلباب المرأة المسلمة: ١٤).

عن عائشة قالت: «تسدل المرأة جلبابها من فوق رأسها على وجهها»[1] وقال ابن حجر: «وقال ابن المنذر: أجمعوا على أن المرأة تلبس المخيط كله والخِفاف، وأن لها أن تغطي رأسها وتستر شعرها، إلا وجهها فتسدل عليه الثوب سدلاً خفيفاً، تستتر به عن نظر الرجال، ولا تخمره، إلا ما روي عن فاطمة بنت المنذر قالت: كنا نخمِّر وجوهنا ونحن محرِمات مع أسماء بنت أبي بكر، تعني: جدتها، قال: ويحتمل أن يكون ذلك التخمير سدلاً، كما جاء عن عائشة قالت: كنا مع رسول الله ﷺ إذا مر بنا ركب سدلنا الثوب على وجوهنا ونحن محرِمات، فإذا جاوزنا رفعناه، انتهى. وهذا الحديث أخرجه هو من طريق مجاهد عنها وفي إسناده ضعف»[2].

وقال ابن عبد البر: «وعلى كراهية النقاب للمرأة جمهور علماء المسلمين: من الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم من فقهاء الأمصار أجمعين، لم يختلفوا في كراهية الانتقاب والتبرقع للمرأة المحرِمة، إلا شيء روي عن أسماء بنت أبي بكر: أنها كانت تغطي وجهها وهي محرِمة، وروي عن عائشة أنها قالت: تغطي المحرمة وجهها، إن شاءت، وقد روي عنها أنها لا تفعل، وعليه الناس»، إلى أن يقول: «ولا خلاف بين العلماء بعد ما ذكرنا، في أنه جائز للمرأة المحرِمة لباس القمص والخفاف والسراويلات، وسائر الثياب التي لا طيب فيها، وأنها ليست في ذلك كله كالرجل، وأجمعوا أن إحرامها في وجهها دون رأسها، وأنها تخمر رأسها وتستر شعرها وهي محرِمة، وأجمعوا أن لها أن تسدل الثوب على وجهها من فوق رأسها سدلاً خفيفاً، تستتر به عن نظر الرجال إليها، ولم يجيزوا لها تغطية وجهها وهي محرِمة إلا ما ذكرنا عن أسماء. روى مالك عن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر أنها قالت: كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات مع أسماء بنت أبي بكر الصديق. وقد يحتمل أن يكون ما روي عن أسماء في ذلك كنحو ما روي عن عائشة أنها قالت: كنا مع رسول الله ﷺ فإذا مر بنا راكب سدلنا الثوب من قِبَل رؤوسنا وإذا جاوزنا الراكب رفعناه»[3] وذكر ابن القاسم: «أن مالكاً كان يوسِّع للمرأة أن تسدل رداءها من فوق رأسها على وجهها إذا أرادت ستراً، وإن كانت لا تريد ستراً فلا تسدل»[4] وهذا الذي ذكره ابن عبد البر احتمالاً وكذلك ابن المنذر، قد جاء ما يؤيده في رواية فاطمة المتقدمة التي أخرجها سعيد بن منصور؛ فإن فيها «كنا نغطي وجوهنا من الرجال» فبينت أنهن كن يغطين وجوههن، ولم تقل: نخمر، وبينت أيضاً أن ذلك لم يكن على الدوام، إنما ذلك بسبب الرجال أي عند مرور الرجال.

فائدة:

ما جاء عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله تعالى عنهما – من أنها كانت تغطي وجهها أو تخمره وهي محرمة، دليل على بطلان الرواية المنسوبة إليها أنها دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال: يا أسماء! إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه؛ فلو كان هذا ثابتاً عندها لما كانت تحتاج لتغطية وجهها في الإحرام الذي جاء فيه قول الرسول ﷺ: «لا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين».

وأخيراً:

قد تبين بما أوردتُ من النصوص وأقوال أهل العلم أن تغطية وجه المرأة بحضرة الرجل الأجنبي قربة وطاعة وعبادة لله – تعالى – إلى جانب كونها من عادات المسلمين، وأن أقوال أهل العلم من مختلف مذاهب المسلمين لم تخرج عن ذلك؛ فهي دائرة بين إيجاب التغطية وبين استحبابها، فأعلاها الوجوب وأدناها الاستحباب؛ فيكون قول القائل إن تغطية المرأة لوجهها بحضرة الرجل الأجنبي عادة وليس عبادة (أي: ليست التغطية من الدين) مخالفاً لإجماع المسلمين بيقين، وهو متوعَّد على ذلك بالعذاب الشديد. قال – تعالى – ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] فمتبع غير سبيل المؤمنين – أي طريقهم – متوعَّد بعذاب جهنم وساءت مصيراً

نسأل الله – تعالى – بمنِّه وفضله أن يبصرنا بأمور ديننا وأن ينجينا من عذاب جهنم، وأن يجعلنا من الذين يصدقون في حديثهم ولا يقولون إلا الحق ولا يبيعون دينهم بعَرَض من الدنيا، ومن الذين يبلغون شريعة الله ويخشونه وحده ولا يخشون أحداً سواه.

---

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري: ٣/ ٤٧٤.

(٢) فتح الباري: ٣/ ٤٧٥، وأثر عائشة – رضي الله تعالى عنها – تقدم تخريجه في الهامش، رقم: ٢٧.

(٣) التمهيد: ١٥/ ١٠٧ – ١٠٩، وواضح من كلام ابن عبد البر فيما نقله التفرقة بين السدل والتغطية؛ حيث أجازوا الأول ومنعوا الثاني، والسدل في اللغة الإرخاء والإرسال، والتغطية: الستر، وكلا السدل والتغطية تستخدمه المرأة كي تستتر عن أعين الرجال، فلعل المراد في كلامهم تغطية معينة فيكون المنوع الصفة وليس مجرد الستر، كأن يكون المراد بالتغطية النقاب – مثلاً – أو الإلصاق الشديد على الوجه.

(٤) التمهيد: ١٥/ ١١١

مع أول موسوعة للتربية...

هديّة الآباءِ والأُمهاتِ والمُربينَ للتربيةِ

مِن خِلالِ قَصصِ وحِكاياتِ الأَطفالِ

فهي تُعد نموذجًا تربويًا وتطبيقًا عمليًا من سحر القصص والحكايات... فهل تريد أبناءً:

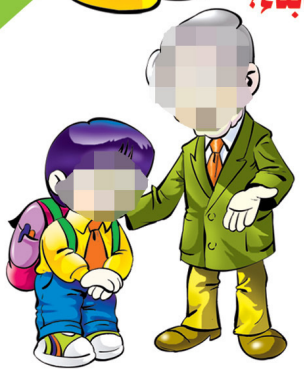

(١) أصحاب شخصية قوية، ومتميزة، وعقول ناضجة؟

(٢) يحبون العلم والعلماء والمعرفة؟

(٣) عندهم ذوق ولديهم مشاعر فياضة جميلة؟

(٤) معتزين بأنفسهم ويحسنون التصرف؟

(٥) لهم هدف عظيم في حياتهم وأصحاب خلق كريم؟

(٦) متعاونين وفعالين في مجتمعهم ومحبين للغير وللخير؟

(٧) أصحاء يحبون النظافة والجمال والنظام؟

(٨) عندهم عقيدة راسخة ويراقبون الله في كل تصرفاتهم؟

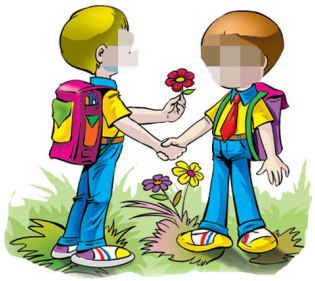

(٩) مبدعين وأصحاب مهارات وهوايات نافعة ومتعددة؟

(١٠) يعرفون حقوق الوالدين ويصلون أرحامهم؟

(١١) ليسوا جبناء ويثقون في أنفسهم، ويرفضون السلوكيات السيئة؟

(١٢) يحسنون التصرف وحسن الكلام ومنظمين في تفكيرهم؟

(١٣) يحترمون أصحاب الإعاقات ويساعدونهم ولا يسخرون منهم؟

(١٤) يحسنون التصرف في المال والوقت ولديهم القدرة على التفكير السليم؟

(١٥) يعرفون الفرق بين الولد والبنت ومهام وخصائص كل منهما؟

(١٦) يكونون لك ذخرًا في حياتك وامتداداً حسناً بعد وفاتك؟

إذا كنت جادًا وتريد أبناءً بهذه المواصفات وتلك السلوكيات فاحرص على اقتناء هذه الموسوعة وشارك في التعريف بها ونشرها، فهي تنمي هذه المواصفات وتلك السلوكيات من خلال سحر القصص والحكايات، وتجمع بين المتعة والتطبيق العملي الراقي من خلال القصص الهادف، وقد أشرف عليها مجموعة من الخبراء في مجال التربية وعلى رأسهم:

للأستاذ الدكتور/ حسن عبد العال
وكيل كلية التربية

للأستاذ الدكتور/ نبي محمد علي جاد
أستاذ تربية الطفل ورئيس قسم العلوم والتربية

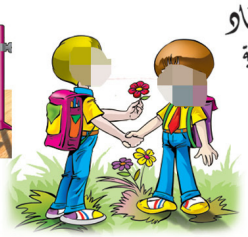

وقام بتأليفها أربعة من المتخصصين في مجال الكتابة للطفل وصممها أمهر المصممين، وطبعت على ورق فاخر ٤ لون، وهي تحتوي عشرين مجلدًا كالآتي: (١٤٠ قصة للأطفال مصورة وملونة وملحق معهم ٢٠ كتابًا للآباء والأمهات والمربين).

الناشر

الصحابة للتربية الطفل ووسائل الإيضاح بطنطا

040/3331587 - 0123780573

www.desahaba.net

معالم الحج في تقريرات ابن تيمية

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net

لـم يحج ابن تيمية - رحمه الله - إلا حجة واحدة سـنة ٦٩٢ هـ، وناله وأصحابَه في الطريق ريح شـديدة جداً، مات بسـببها أقوام، وحملت الريح جِمالاً عن أماكنها، واشتغل كل أحد بنفسـه[١]. وبعد عودته من الحـج آلت إليه الإمامة في العلم والدين[٢].

ومع هذا فقد حفلت مؤلفاته بتحريرات رصينة لمسـائل الحج، واختيارات نفيسـة وتقعيدات متينة، وفتاوى جليلة... ولن نَعْرِض في هذه السـطور لشـيء من ذلك؛ إذ قد أوعبها الباحثـون واسـتوفاها المحققون، وإنما نسـوق معالم كبيرة وملامح كليَّة من خلال تقريرات ابن تيمية بشأن هذه الشعيرة العظيمة:

- من المعلوم أن الكعبة - حرسها الله - هي مهوى القلوب، ومحـط الأفئدة «ولهذا أخبر - سـبحانه - أنـه [أي البيت الحـرام] مثابة للناس؛ أي: يثوبون إليـه على تعاقب الأعوام مـن جميع الأقطار، ولا يقضون منه وَطَراً، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقاً.

لا يرجعُ الطَّرْفُ عنها حين ينظرها
حتى يعودَ إليها الطَّرْفُ مشتاقا

فللَّه كم لها من قتيل وسـليب وجريح، وكم أُنفق في حبها مـن الأمـوال والأرواح، ورضي المحب بمفارقـة فِلَذ الأكباد والأحباب والأوطان...»[٣].

وقد تحدَّث ابن تيمية عن عَظَمَة الكعبة، وانجذاب القلوب إليهـا، وحِفْظ الله - تعالى - لهذا البيت العتيق مما هو أكبر آيات الرسـل، وأعظم المعجزات الخارجة عن قدرة البشـر، والتي أوجبت حيرة الفلاسفة وأشباههم.

قال ما ملخصه: «وكذلك ما خـصَّ الله به الكعبة البيت الحرام من حين بناه إبراهيم وإلـى هذا الوقت: من تعظيمه وتوقيره وانجذاب القلوب إليه، ومن المعلوم أن الملوك وغيرهم يبنون الحصون والقصور، ثم لا يلبث أن ينهدم ويُهان، والكعبة بيت مبني من حجارة سـود بوادٍ غيـر ذي زرع، ليـس عنـده ما تشتهيه الأنفس من البساتين والمياه، ولا عنده عسكر يحميه مـن الأعداء، بل كثيراً ما يكون في طريقه من الخوف والتعب والعطـش والجوع ما لا يعلمه إلا الله، ومع هذا فقد جعل الله مـن أفئدة الناس التي تهوي إليه مـا لا يعلمه إلا الله، وهذا مما يُعلَم بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر وقوى النفوس وأبدانهـم، والذي بناه قد مات من ألوف السـنين. ولهذا كان أمر البيت مما حيَّر هؤلاء الفلاسفة والمنجمين؛ لكونه خارجاً عن قوانين علومهم، حتى اختلقوا لذلك من الأكاذيب ما يعلمه كل عاقـل لبيب، مثل قول بعضهم: إن تحـت الكعبة بيتاً فيه صنم يُبَخَّر ويصرف وجهه إلى الجهـات الأربع ليُقْبِل الناس

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير: ١٣/٣٥٢.

(٢) انظر الجامع لسيرة ابن تيمية، صفحة (ص). ونظيـر ذلك ما سطَّـره العـلامة عبد الرحمن بن حسن عن جدِّه الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - لما حجَّ بيت الله الحرام، وقف الإمام في الملتزَم وسأل الله - تعالى - أن يُظهِر هذا الدين بدعوته، وأن يرزقه القبول من الناس. ينظر: المقامات لعبد الرحمن بن حسن: ص ٧.

(٣) زاد المعاد لابن القيم: ١/٥١.

إلى الحج، وهذا مما يعلم كل مَنْ عرف أمر مكة أنه من أبين الكذب...»[1].

ومن العجب أن يعمد الرافضة الحمقى إلى احتقار الكعبة، والغلو في كربلاء؛ لأن فيها قبر الحسين بن علي - رضي الله عنهما - وتقول روايات الرافضة: إن الكعبة ليست إلا ذَنَباً مهيناً لأرض كربلاء[2].

بينما عند أهل الكتاب الإخبار بعظمة الكعبة وكثرة قاصديها، وهلاك مَنْ قَصَدَها بخراب ونحوه، كما بيَّنه ابن تيمية[3].

- احتفى ابن تيمية بتقرير شعيرة الحج، وعظيم شأنه، فجعله من الدين المِلِّيِّ الذي جاءت به الرسل - عليهم السلام - وقرر أن الحج من الحنيفية ملَّة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فالحنيف هو الحاج إلى بيت الله الحرام.

فقال - رحمه الله -: «معلوم باتفاق الأمم، ونَقْل المتواتر أن إبراهيم وإسماعيل بنيا البيت الحرام الذي ما زال محجوجاً من عهد إبراهيم، تحجُّه العرب، وغير العرب من الأنبياء وغيرهم، كما حجَّ إليه موسى بن عمران، ويونس بن متَّى...

ولما بعث الله محمداً ﷺ أوجب حجَّه على كل أحد، فحجَّت إليه الأمم من مشارق الأرض ومغاربها»[4].

وقال في موطن آخر: «والحج داخل في الحنيفية من حين أوجبه الله على لسان محمد ﷺ فلا تتم الحنيفية إلا به، وهو من ملة إبراهيم، وما زال مشروعاً من عهد إبراهيم.

قال أبو العالية: الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى حجَّه عليه واجباً، إن استطاع إليه سبيلاً.

فالحج كان من الحنيفية، لكن كان من مستحباتها لا من واجباتها»[5].

بل جزم - رحمه الله - أن الكعبة هي قِبْلة الأنبياء - عليهم السلام - وليس بيت المقدس، فقال: «إن الكعبة ومسجدها وحرمها أفضل بكثير من بيت المقدس وهي البيت العتيق، وقِبْلة إبراهيم وغيره من الأنبياء، ولم يأمر الله قط أحداً أن يصلي إلى بيت المقدس؛ لا موسى ولا عيسى...»[6].

- ألمح ابن تيمية إلى ما يمكن أن يسمى بألاعيب السياسة ودجلها، وإحداث دين باطل وتطويعه لأهواء السلاطين؛ فإنه لما وقعت الفتنة بين عبد الله بن الزبير - رضي الله عنه - وبين عبد الملك بن مروان، وكان ابن الزبير يخطب في أيام منى وعرفة، وينال من بني مروان؛ فمال معظم أهل الشام إليه، وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فمنع الناس من الحج فضجوا.

قال ابن تيمية: «وقد قيل: إن الناس كانوا يقصدون الحج فيجتمعون بابن الزبير، أو يقصدونه بحُجَّة الحج، فعظَّم عبد الملك شأن الصخرة بما بناه عليها من القبة، وجعل عليها من الكسوة في الشتاء والصيف؛ ليكثر قَصْد الناس لبيت المقدس؛ فيشتغلوا بذلك عن قَصْد ابن الزبير، والناس على دين الملك، وظهر في ذلك الوقت من تعظيم الصخرة وبيت المقدس ما لم يكن المسلمون يعرفونه بمثل هذا»[7].

بل جاء في تاريخ ابن كثير: «ولم يكن يومئذٍ على وجه الأرض بناء أحسن ولا أبهى من قبة صخرة بيت المقدس؛ بحيث إن الناس التهوا به عن الكعبة والحج، وأتوه من كل مكان»[8].

ولما قال عبد الملك بن مروان عن صخرة بيت المقدس: هذه صخرة الرحمن التي وضع عليها رجله، قال عروة بن الزبير: سبحان الله! يقول الله - تعالى -: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. إنما هذا جبل قد أخبرنا الله أنه يُنْسَف نسفاً[9].

والمقصود أن هذه «المضارة» والمباهاة سرعان ما لحقها الزوال والاندراس فأمست أثراً بعد عين؛ «فما لم يكن لله لا ينفع ولا يدوم»[10].

وهذه الواقعة تُذَكِّرنا بما فعله أبرهه الأقلف عندما بنى الكنيسة الخسيسة (كما عبَّر ابن كثير)، والمسماة بـ «القُلَّيس» من أجل أن يصرف الناس عن حج بيت الله الحرام، فجاء رجل من أهل مكة، فأحدث فيها، فغضب أبرهه، وسار بجيشه ليهدم الكعبة، فأهلكه الله عاجلاً غير آجل، فالحمد لله[11].

وأما «القُلَّيس» فصارت قَفْراً، ثم نُقِضَت حجراً حجراً وعفت آثارها في عهد الخليفة العباسي «السفاح»[12].

(١) الصفدية: ١/ ٢٢٠، ٢٢١ = باختصار.
(٢) انظر أصول مذهب الشيعة لناصر القفاري: ٢/ ٤٦٢، ٤٦٦.
(٣) . انظر الجواب الصحيح لابن تيمية: ٣/ ٣٢٨، ٣٢٩.
(٤) الجواب الصحيح: ٣/ ٣٠٦، ٣٠٧ = باختصار.
(٥) جامع المسائل: ٥/ ١٨٢-١٨٤ = باختصار، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٣٨٠.
(٦) مجموع الفتاوى: ٧/ ٢٧٩. (الإيمان الكبير).
(٧) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٨١٠.
(٨) البداية والنهاية: ٨/ ٢٨٠.
(٩) أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد: ١/ ٢٥٠.
(١٠) التدمرية لابن تيمية: ص ٢٣٢.
(١١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير: ٢/ ١٧٠، وقاعدة عظيمة لابن تيمية: ص ١٠١.
(١٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير: ٢/ ١٧٠.

– مـــن الأصول العظام التي يؤكدها ابن تيمية أن لا يُعبَد اللـــه إلا بما شـــرع، والتحذير من البـــدع وكل ما يفضي إلى مضاهاة الشريعة، ومجانبة الأعياد البدعية.

فكان من تقريراته ما يلي: «المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة جعلها الله عيداً، مثابة للناس، يجتمعون فيها، وينتابونها للدعاء والذِّكر والنســـك، وكان للمشـــركين أمكنـــة ينتابونها للاجتماع عندها، فلما جاء الإسلام محا الله ذلك كله»[1].

وغلَّظ على من تحرَّى زيارة بيت المقدس أيام الحج؛ لما فيه من الابتداع، ومضاهاة الحج إلى بيت الله الحرام، فقال: «إن زيارة بيت المقدس مستحبة مشروعة للصلاة فيه والاعتكاف، وهو أحد المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال، لكن قَصْد إتيانه فـــي أيام الحج هو المكروه؛ فـــإن ذلك تخصيص وقت معيَّن بزيارة بيت المقدس، ولا خصوص لزيارته في هذا الوقت على غيره. ثم فيه أيضاً مضاهاة للحج إلى المســـجد الحرام، وتشـــبيهاً له بالكعبة، ولهذا قد أفضى إلى ما لا يشك مسلم في أنه شريعة أخرى غير شريعة الإسلام»[2].

وما ألمح إليه شـــيخ الإسلام من تبديل شريعة الإسلام قد أضحى ظاهراً جليّاً عند الروافض؛ ففي زندقة جوفاء وكذبة صلعاء جاء في كافي الكليني: «من زار قبر الحسين يوم عرفه كتب الله له ألف حجة وألف عمرة وألف غزوة»[3].

فهذا المكر المكشـــوف والإفك الرخيص ما هو إلا ســـعي متعثـــر لأجل نبش ملة عمرو بن لُحَـــي، وطَمْس الحنيفية ملة إبراهيم – عليه الســـلام – وصَرْف الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام.

وأشار ابن تيمية في غير موطن إلى المباعدة عن تخصيص بقـــاع بالزيارة والعبادة، وما في ذلك من إحداث في دين الله، ومجانبة سبيل المؤمنين، فقال: «وحجَّ النبي ﷺ ومعه جماهير المســـلمين، لم يتخلف عن الحج معه إلا من شاء الله، وهو في ذلك كلـــه: لا هو ولا أحد من أصحابه يأتـــي غار حراء، ولا يزوره، ولا شـــيئاً من البقاع التي حـــول مكة، ثم بعده خلفاؤه الراشـــدون وغيرهم من السابقين الأولين؛ لم يكونوا يسيرون إلى غار حراء ونحوه للصلاة فيه ولا للدعاء»[4].

والمقصود: أن الخروج عن الشرع المنزل، والتفلُّت من لزوم السنَّة قد سوَّغ لديهم الحج إلى المشاهد والقبور[5]، ولذا قال ابن تيمية: «من زار مكاناً من هذه الأمكنة (يعني: القُمامة)[6]، أو بيت لحم، أو كنائس النصارى) معتقداً أن زيارته مســـتحبة والعبـــادة فيه أفضل من العبادة في بيته، فهو ضال خارج عن شريعة الإسلام»[7].

كما حرر أن (الحـــرم) لا يطلَق إلا على حرم مكة اتفاقاً، وحرم المدينة النبويـــة عند الجمهور؛ فلا يصح إطلاق الحرم على بيت المقدس، ولا الخليل[8]. فضلاً عن إطلاقه على حرم جامعة ونحوها.

وذكر ابن تيمية أن الشـــياطين قد تحمل أقواماً من بلاد بعيدة إلـــى عرفة، دون أن يتَّبِعوا الشـــريعة ويلزموا الطريقة النبويـــة، وحكى أن أحد العلماء أنكـــر على هؤلاء، فقال: «إن هذا الذي تفعلونه لا يُسقط الفرض عنكم، ولا يتقبَّله الله حتى تحجُّوا كما أمر الله ورسوله ﷺ، فقالوا: نحن نقبل منك ونحج معك على السنَّة؛ فلما حجُّوا قالوا: جزاك الله خيراً؛ فإنَّا في هذه الحَجَّة ذقنا طعم العبادة لله وحلاة الحج»[9].

والمقصود أن أئمة السلف كابن تيمية – مثلاً – قد برعوا فـــي إظهار هذه المعاني الكبيـــرة، والمقاصد الكلية، والأصول الجليلة لفريضة الحج، كمـــا أنهم حرروا وحققوا فروع الحج ومســـائله التفصيلية؛ فإظهار عَظَمَة الكعبة المشـــرَّفة باعثُه تعظيـــم الله – عـــز وجـــل – وتعظيـــم شـــعـــائره وحرماته. ودين الله – تعالى – قائمٌ على تعظيم الله وإجلاله. والحج من ملَّة التوحيد؛ إذ الحج نوع من القصد؛ فهو من توحيد الإرادة والقصد (توحيد العبادة)، وفيـــه الدعـــاء والتفـــرغ إلـــى الله – تعالى – في جميع مناسك الحج، والدعاء هو العبادة، إضافةً إلـــى ما يحويه الحج من تَقَصُّد مخالفة المشـــركين ومجانبة أصحـــاب الجحيـــم، وأيضاً فدين الله – تعالـــى – قائم على أصلين: أحدهما: ألا نعبد إلا الله كمـــا سبـــق، والآخـــر: أن لا يُعبد إلا بما شرع؛ فلزوم الشرع المنزَّل هو آكد وأجلُّ أصول الدين. والاعتصام بالسنَّة ســـبيل النجاة، وكفيل بمحو البدع وطَمْسِـــها؛ إذ إن من لم يفعل المشروع والسنَّة وقع في الممنوع والبدعة كما هو مشاهَد.

فيا له من دين لو أنَّ له رجالاً!

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦٦٠.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦٣٧، وينظر: مجموع الفتاوى: ٢٧/ ١٥.
(٣) انظر: أصول الشيعة للقفاري: ٢/ ٤٦٠.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٧٩٧ = بتصرف يسير، وانظر: منهاج السنَّة النبوية: ٢/ ٤٤٨، ومجموع الفتاوى: ٢٦/ ١١٩، ١٤٤.
(٥) انظر: الرد على البكري (ت السهلي): ص ٣٠٦.
(٦) قمامة: بالضم أعظم كنيسة للنصارى في بيت المقدس.
(٧) مجموع الفتاوى: ٢٧/ ١٤.
(٨) انظر: مجموع الفتاوى: ٢٦/ ١١٦، ١١٧ – ٢٧/ ١١، ١٥، واقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٨٠٩.
(٩) جامع المسائل: ١/ ٢١١.

البرنامج
مجاني

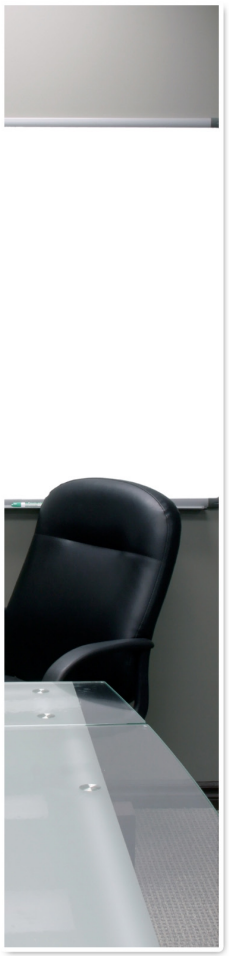

إدارة
إلكترونية

أداء
أفضل

مرونة
عالية

تواصل
فاعل

تاج المطور TAJ plus

برنامج تاج المطور

لادارة حلقات تحفيظ القرآن الكريم

بنين – بنات

يطلب البرنامج من موقع قاف

www.qaaaf.org

وقفات مع قاعدة: (بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين)

انجوغو مباكي صمب السنغالي
masyer@maktoob.com

تُعدُّ قاعدة (بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين) من القواعد الشرعية المهمة، التي يندرج تحتها الكثير من الأحكام المتعلقة بأئمة الدين؛ من حكّام وأمراء وعلماء ودعاة وغيرهم، وفيما يلي وقفات سريعة مع هذه القاعدة أرجو من خلالها تقريب المعاني المستكنة في ثناياها؛ نصيحةً لأئمة المسلمين وعامتهم، والله وليُّ التوفيق.

الوقفة الأولى: نسبة القاعدة:

إن القواعد الشرعية عبارة عن معانٍ مستنبطة مما تقرر في شرع الله؛ بدلالة الكتاب أو السنة أو الإجماع، غير أن أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمتكلمين وغيرهم يقومون بصياغتها ووضعها في قالب يجعلها جامعة مانعة مختصرة ووافية، ثم يستدلون عليها بما يشهد لها بالصحة والاطِّراد، وهو الأمر الذي يسوِّغ نسبة تلك القواعد إليهم ولو على سبيل التجوز.

ومن هذا الباب نقول: إن هذه القاعدة منسوبة إلى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فالمطَّلع على كتبه وكتب تلاميذه يجد تلك القاعدة واردة فيها بكثرة تصل إلى حدِّ التواتر، حيث يذكرها شيخ الإسلام في تعليقاته على بعض الآيات القرآنية الدالة على معنى القاعدة، أو يصف بها بعض أئمة الدين ممن سبق من الأنبياء والمرسلين أو أتباعهم عليهم الصلاة والسلام، أو حين يصف مَنْ بعدهم من الصحابة والتابعين وغيرهم رضي الله عنهم.

ومن ذلك: قوله - رحمه الله تعالى -: «فمن أعطي الصبر واليقين جعله الله إماماً في الدين»[1]. وقوله في موضع آخر: «ولهذا كان الصبر واليقين اللذان هما أصل التوكل يوجبان الإمامة في الدين»[2]. وكذلك وَصْفُه أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - بأن الله قد جمع له بين الصبر

(١) مجموع الفتاوى: ١٢ / ٨٠.
(٢) المصدر السابق: ٢٨ / ٤٤٢.

واليقين، وبهما استحقَّ وصف الإمامة في الدين[1].

وقد نَسَبَ إلى شيخ الإسلام ابن تيمية قاعدة الصبر واليقين غيرُ واحد من تلاميذه، ومنهم على سبيل المثال: ابن قيِّم الجوزية - رحمه الله - حيث يقول في كتابه (مدارج السالكين): «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين»[2]. وكذلك ابن كثير - رحمه الله - في كتابه (تفسير القرآن العظيم)، عند تفسير الآية (٢٥) من سورة السجدة، حيث نسب القاعدة إلى بعض أهل العلم على سبيل الإبهام، والذي يعرف العلاقة التي تربط بين الإمامين ليكاد يجزم بأن ابن كثير لا يقصد بقوله: بعض العلماء؛ إلا شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله، والله أعلم.

الوقفة الثانية: معنى الإمامة:

الإمامة لغة: من «أمَّ القوم، وأمَّ بهم: تقدَّمهم...، والإمام كل من ائتمَّ به قوم؛ كانوا على صراط مستقيم أو كانوا ضالين...، وإمام كل شيء قيِّمُه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين، وسيدنا محمد رسول الله ﷺ إمام الأئمة، والخليفة إمام الرعية، وإمام الجند قائدهم..»[3].

وأما الإمامة في الاصطلاح: فقد شاع في عُرْف الفقهاء أن الإمامة في الأصل مرادفة لكلمة الخلافة، وقد عرَّف العلماء الخلافة بتعريفات من أشهرها: تعريف الإمام الماوردي - رحمه الله تعالى - بأنها: «نيابة عن صاحب الشرع في إقامة الدين وسياسة الدنيا بها»[4].

ويرادف لفظَ الإمامة في المعنى مصطلحُ الزعامة الكبرى، والولاية العامة، كما قال الإمام القلقشندي - رحمه الله تعالى - في كتابه (مآثر الأنافة)[5]، وكذلك الملك أو الولاية العظمى أو الرئاسة ونحوها؛ كما حقق ذلك الأستاذ عبد القادر عودة؛ رحمه الله تعالى[6].

غير أن المراد بالإمامة في هذه القاعدة أعمُّ وأشمل من الخلافة والسلطان والولاية؛ كما قد يتبادر إلى الأذهان، فهي هنا تعني: الرياسة الشرعية للأمة الإسلامية في حفظ الدين وسياسة الدنيا، ولا شك في أن هاتين الوظيفتين موكولتان في الدين الإسلامي إلى أولي الأمر من المسلمين، الذين تجب طاعتهم في المعروف؛ لقوله - تعالى - في محكم تنزيله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]، وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى - عند تفسير هذه الآية: «والتحقيق في معنى الآية الكريمة: إن المراد بأولي الأمر ما يشمل العلماء والأمراء؛ لأن العلماء مبلِّغون عن الله وعن رسوله، والأمراء منفذون، ولا تجوز طاعة أحد منهم إلا فيما أذن الله فيه...»[7].

وقد درج على ألسنة عوام المسلمين وخواصِّهم تلقيب المقدَّمين من أهل العلم والدعوة بـ (الأئمة) قديماً وحديثاً وبدون نكير، وهو ما يدل على الإجماع على دخول العلماء والدعاة تحت اسم أئمة المسلمين وولاة أمورهم، ولذلك عقد الإمام اللالكائي - رحمه الله تعالى - فصلاً في كتابه (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) سمَّاه: (سياق ذكر من رسم بالإمامة في السنة والدعوة والهداية إلى طريق الاستقامة، بعد رسول الله ﷺ إمام الأئمة)، ذكر فيه من الصحابة والتابعين وغيرهم ممن تولَّى الخلافة ومَنْ لم يتولَّها، ممن ناب عن رسول الله ﷺ في إقامة الدين وإعلاء كلمة الله؛ من السلاطين والأمراء والدعاة والعلماء[8].

الوقفة الثالثة: معنى اليقين:

قال الجوهري في تعريفه: «اليقين: العلم وزوال الشك، يقال منه: يقنت الأمر، واستيقنت، وتيقنت؛ كله بمعنى وأنا على يقين منه»[9].

وقد أورد ابن القيم في (مدارج السالكين) عدة تعريفات اصطلاحية لليقين، ومن أجمعها وأمنعها ما يلي:

١- قول الجنيد - رحمه الله -: «اليقين هو استقرار

(١) المصدر السابق: ٨ / ٨٣.
(٢) انظر: مدارج السالكين: ٢ / ١٥٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣ هـ.
(٣) انظر: لسان العرب: ١٢ / ٢٥، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور، ط. دار صادر، بيروت.
(٤) الأحكام السلطانية، ص ٥، ط. شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر - القاهرة، ١٣٩٣ هـ.
(٥) ١/٨، ط. مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٥م.
(٦) الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص ٩٣ - ٩٤، تأليف: عبد القادر عودة، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١ هـ.
(٧) أضواء البيان: ٧/ ٣٢٩، تأليف: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ط. دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٤هـ.
(٨) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ١ / ٣٠، تأليف: الإمام هبة الله بن حسن بن منصور اللالكائي، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١١ هـ.
(٩) الصحاح، للجوهري، ٦ / ٢١٩، ط. دار العلم للملايين، بيروت.

العلم الذي لا ينقلب ولا يتحول ولا يتغير في القلب»[1].

٢- قول أبي بكر الورَّاق - رحمه الله -: «اليقين على ثلاثة أوجه: يقين خبر، ويقين دلالة، ويقين مشاهدة»[2]. ويشرح ابن القيم هذه الأنواع الثلاثة من اليقين قائلاً: «ويريد بيقين الخبر: سكون القلب إلى خبر المخبر ووثوقه به. وبيقين الدلالة: ما فوقه، وهو أن يقيم له مع وثوقه بصدقه الأدلةَ الدالة على ما أخبر به، وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد. وبيقين المشاهدة: أن يكون المخبر به في قلوبهم كالمرئي لعيونهم»[3].

والملاحظ هو أن كلا التعريفين وافٍ بالمقصود، وهو أن اليقين هو العلم الذي لا يتطرَّق إليه شك، أو الإدراك التام، غير أنهما أقرب ما يكونان إلى اصطلاح المتكلِّمين وعلماء السلوك والتربية. وهناك تعريف آخر لليقين عند المناطقة والأصوليين ذكره ابن قدامة - رحمه الله تعالى - في مقدمة كتابه (روضة الناظر وجنة المناظر) حيث يقول: «اليقين ما أذعنت النفس إلى التصديق به وقطعت به، وقطعت بأن قطعها به صحيح بحيث لو حُكي لها عن صادق خلافه لم تتوقف في تكذيب الناقل؛ كقولنا الواحد أقل من الاثنين، وشخص واحد لا يكون في مكانين، وتصور اجتماع ضدين»[4].

فالمراد باليقين في الدين هنا: العلم التام والتصديق الجازم بحقائق الدين؛ سواء كان ذلك ما تعلق بأصوله أو فروعه. أو بتعبير آخر هو: التصور الصحيح لمبادئ الإسلام.

الوقفة الرابعة: معنى الصبر:

المعنى اللغوي للصبر يتردَّد بين «الحبس، والكف، أو المنع، ومنه: قُتِلَ فلان صبراً إذا أُمسك وحُبس، ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: احبس نفسك معهم»[5].

وأما في الاصطلاح فهو: «حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش»[6].

(١) مدارج السالكين: ٢ /٣٩٨.
(٢) المصدر السابق: ٢ / ٤٠٠.
(٣) مدارج السالكين: ٢ / ٤٠٠.
(٤) روضة الناظر وجنة المناظر، ص ٢٦، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠١ هـ.
(٥) مدارج السالكين: ٢/ ١٥٥.
(٦) المصدر السابق: ٢/١٥٦.

درجات الصبر ومراتبه:

والصبر على درجات، هي:

١ - «الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد؛ إبقاءً على الإيمان، وحذراً من الحرام، وأحسن منها الصبر عن المعصية حياءً...»؛ فلا يقرب كبائر الذنوب والمعاصي؛ مِنْ زنىً، أو شرب خمر، أو تعاطي ميسر، أو سماع غناء، أو نَظَرٍ إلى حرام، ويترفع عن الشبهات؛ كحلق اللحية مثلاً، أو مصافحة الأجنبيات، أو التدخين، وكلها من المحرمات في الشريعة الإسلامية على الراجح من أقوال العلماء لا يقترفها أهل الاستقامة في الدين من عوام المسلمين؛ فضلاً عن أئمتهم؛ لأن أكثرهم ما بين سابق بالخيرات ومقتصد في الطاعات، ويقلُّ فيهم الظَّلَمة لأنفسهم الفاسقون بارتكاب الكبائر والإصرار على الصغائر، قال - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

٢ - «الصبر على الطاعة؛ بالمحافظة عليها دواماً، وبرعايتها إخلاصاً، وبتحسينها علماً...»، وأحب هذه الطاعات إلى الله بعد الإيمان فرائض الإسلام وأركانه من صلاة وزكاة وصيام وحج، وعلى أئمة الدين أن يوطِّنوا أنفسهم على التقرب إلى الله - تعالى - بعد هذه الواجبات بالنوافل، ويقوُّوا صلتهم به - سبحانه - بسائر التطوعات؛ حتى يكونوا من أولياء الله وأحبائه الذين يكونون مع الله في الخلوة والجلوة؛ لما في الحديث القدسي من قول الله - تعالى - فيما يرويه عنه رسوله ﷺ: «وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبُّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعلُه ترددي عن نَفْس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءَتَهُ»[7].

٣- «الصبر في البلاء بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البليَّة بعد أيادي المنن، وبذكر سوالف النِّعم»[8]. وهذا النوع من الصبر هو الإكسير الذي يقلب ما يصيب المؤمن من شرٍّ إلى خير له في الدين والدنيا،

(٧) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب: الرقاق، باب: التواضع.
(٨) انظر: مدارج السالكين: ١ /١٦٢ - ١٦٤.

فيُؤْجَر على مصابه، ويهون عليه بلاؤه. قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له»[1].

ويعبِّر بعض أهل العلم عن هذه الدرجات بالأقسام أو الأنواع، ولا مشاحَّة في الاصطلاح، فكلهم يهدفون إلى الربط بين الصبر ومتعلقاته، وهي في جملتها لا تخرج عن ثباتٍ على واجب، ومجانبة عن حرام، وتسليم لقضاء وقدر، وقد يحصل المرء من هذه الدرجات أو الأقسام أو الأنواع ما يرشحه لمقام الإمامة في الدين، ولا يكون بالضرورة معصوماً من الخطأ أو الذنب؛ فقد يخطئ الإمام أو يذنب، فيتذكر ويتوب، ولا يعود خطؤه أو ذنبه على إمامته بالإبطال أو على أهليَّته لها بالزوال، قال – تعالى –: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

وعليه؛ فإن من الغلوِّ في الفهم والتصور أن يعتقد الإنسان أنه لا يصلح للقيادة أو لا يتأهل للإمامة إلا الكاملون من الناس الذين لا يخطئون في قول من أقوالهم في الدين أو الدنيا، ولا يصدر منهم ذنب مهما صغر وتاب منه صاحبه. وإذا نظرنا في سير من اشتهرت إمامتهم من المتقدمين أو من المتأخرين نرى أنهم لم يسلموا من الأخطاء في فتاويهم ومذاهبهم إن كانوا من العلماء، ولم ينجوا من الزلات في سياساتهم وحكوماتهم بين الناس إن كانوا من الأمراء، ولم يُؤْثَر عن أحد منهم أنه ادَّعى العصمة من الذنوب مطلقاً، بل إن بعضهم ممن كان له سوابق تاب منها وأقلع، حتى صار إماماً في الدين يُتَّبَع، وكلهم كان يلهج بدعاء عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

الوقفة الخامسة: العلاقة بين مفردات القاعدة:

هناك علاقة وطيدة وصلة وثيقة بين كلٍّ من الصبر واليقين من جهة، وبينهما وبين الإمامة الشرعية والقيادة الدينية من جهة أخرى.

العلاقة بين الصبر واليقين:

يبيِّن ابن القيم – رحمه الله تعالى – هذه العلاقة في معرض تفسيره للآية الكريمة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، قال – رحمه الله –: «فأمرَه بأن يصبر، ولا يتشبَّه بالذين لا يقينَ عندهم، فإنهم لعدم صبرهم خفوا واستخفّوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين الحق لصبروا وما خفوا ولا استخفّوا، فمن قلَّ يقينه قلَّ صبره، ومن قلَّ صبره خفَّ واستُخِفَّ، فالمؤمن الصابر رزين؛ لأنه ذو لبٍّ وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش، يلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف؛ والله المستعان»[2].

ولا مزيد في الحقيقة على هذا الكلام الوجيز والمفيد في بابه، والذي نستفيد منه أن العلاقة بين الصبر واليقين علاقة استلزام؛ لأن العلم التام بالشيء وما يجلبه للمرء من خير أو يدفعه عنه من شر؛ يستلزم قوة وصبراً في أداء ذلك الفعل، وقلَّ مثله فيما يقتضيه ذلك العلم من الترك وما يترتب عنه من نتائج، فالمترشح لإمامة المتقين إذا كان من أهل اليقين بحقائق دين الإسلام من عقائد صحيحة وشعائر فاضلة وشرائع عادلة، وعلم بأن لا فلاح في الدنيا والآخرة إلا بالتمسك بأهدابها؛ لا بد أن يكون ذا رزانة وشخصية عالية لا تنقاد إلى شبهات البدع والضلالات، ولا تنساق وراء مختلف الشهوات. وانظر إلى حال الأنبياء – عليهم السلام – وكذلك ورثتهم العلماء من بعدهم لما كانوا أهل يقين بما أمر به الله من الإيمان والعمل الصالح، كيف عرفوا بطلان غيره وقبحه، ولم يلتفتوا إلى شبهات الكفار والمشركين وأهل البدع في معارضة الحق، كما لم يمنعهم من العمل بما علموا رغبة ولا رهبة، وما مظاهر الحَوْر بعد الكَوْر التي نرصدها في حياة الدارجين في سلك الإمامة من غير أهلها ممن يقصر في علم أو في عمل فيخلط علماً بجهل، أو يشوب سُنَّةً ببدعة، أو طاعة بمعصية؛ ليس ذلك إلا دليلاً قاطعاً على أهمية تحصيل الصبر واليقين وضرورتهما في بناء الشخصية القيادية المنشودة لنيابة صاحب الشرع في القيام بوظائفه المتنوعة.

العلاقة بين الصبر واليقين وبين الإمامة في الدين:

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، ح ٢٩٩٩.

(٢) التبيان في أقسام القرآن: ١ / ٥٥، ط. دار الفكر، بيروت.

أما هذه العلاقة فهي علاقة شرط بمشروطه، والشرط في اصطلاح الأصوليين هو: ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته. وجُلُّ شروط الخلافة، وكذلك أكثر آداب العلماء وصفات الدعاة إلى الله – تعالى – عند التأمل؛ نجدها مندرجة تحت هذين الأصلين العظيمين: الصبر واليقين، وفوات بعضها منافٍ لكمال الإمامة في الدين، كما أن انعدام بعضها الآخر منافٍ لصحتها، ولا يوجب توفرها في كل شخص من المسلمين تبوُّؤه منزلة الإمامة في الدين لسبب أو لآخر.

الوقفة السادسة: أدلة القاعدة:

إن مجرد نسبة قاعدة أو رواية مذهب إلى زيد أو عمرو من العلماء، مهما بذل الإنسان في ذلك من جهد في البحث والتحقيق؛ لا يكفي لإكساب تلك القاعدة أو ذلك المذهب الأصالةَ الشرعية أو الصوابية المطلقة؛ إذ لا حجة في الشرع لغير كلام الله وكلام رسوله ﷺ وما شهدا له بالحجية كالإجماع والقياس وغيرهما من الأدلة، ولهذا نسعى في هذه الوقفة جاهدين لذكر ما نراه صالحاً للاستدلال على صحة قاعدة الصبر واليقين، والله المستعان وعليه التكلان، فنقول وبالله التوفيق:

دلت على قاعدة (بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين) آياتٌ كثيرة من القرآن الكريم، وأحاديث صحيحة من السنة النبوية، كما أن معناها متَّفق مع مقصود الشارع الحكيم في أحكام الإمامة، وهديه في الدعوة والتربية، وأصول المدنية والعمران البشري.

أولاً: من الآيات القرآنية الدالة على القاعدة:

١- قوله – عز وجل –: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [**السجدة**: ٢٤]، والآية تخبر بوضوح بأن الإمامة لم تحصل لهؤلاء الموصوفين بها إلا بعد صبرهم على طاعة الله وعزوفهم عن لذَّات الدنيا وشهواتها، و «كونهم أهل يقين بما دلَّتهم عليه الحجج الشرعية، وأهل تصديق لما تبين لهم من الحق من التوحيد وجميع مسائل الإيمان»[(١)]؛ كما يقول الإمام الطبري؛ رحمه الله. ويمكن القول: إن هذه الآية نصٌّ على القاعدة؛ لما أخبر الله فيها من جعل أولئك النفر من بني إسرائيل أئمة، مع ذكر الأسباب الموجبة لبلوغهم تلك المنزلة وهي اجتماع اليقين في دين الله والصبر الذي لم يذكر في الآية متعلقاته؛ إمعاناً في التعميم ليشمل كل أنواع الصبر؛ من صبر على طاعة الله بامتثال أوامره، وصبر عن معصية الله باجتناب نواهيه، وصبر على قضاء الله وقدره؛ يمنع النفس عن التسخط ويمسك اللسان عن الشكوى، وينهى الجوارح عن التشويش، ويهدي القلب إلى الرضا، ويرشد العقل إلى البصيرة في التعامل مع الأقدار بصفة إيجابية.

٢- وقوله – تعالى –: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ** ﴾. [**الأنبياء**: ٧٣]

وهذه الآية نزلت في الفئة المسلمة من آل إبراهيم – عليه السلام – التي تولَّت قيادتُها نشر الدعوة وتربية المؤمنين من بعده على أساس التوحيد الخالص والعمل الصالح. قال الإمام الطبري – رحمه الله –: «وقوله: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** ﴾ يقول – تعالى ذكره –: وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أئمة يُؤتَمُّ بهم في الخير في طاعة الله في اتِّباع أمره ونهيه ويقتدى بهم ويُتَّبَعون عليه»[(٢)].

والهداية بأمر الله تقتضي كون الهادي عالماً بشرع الله موقناً بآياته، عاملاً بما علم وداعياً إليه وصابراً على الأذى فيه، وإلا سلك بنفسه وبمن تبعه سبيل الضالين العابدين الله على جهل، أو المغضوب عليهم المخالفين لأوامر الله[(٣)].

٣- قوله – تعالى –: ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ** ﴾ [**ص**: ٤٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: «فالأيدي: القوة في أمر الله، والأبصار: البصائر في دين الله؛ فبالبصائر يُدرَك الحق ويُعرَف، وبالقوة يُتَمَكَّن من تبليغه وتنفيذه»[(٤)].

وأهل الصبر واليقين هم حَمَلَة الدعوات المهتدية في كل زمان ومكان، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى –: «ومن المستقر في أذهان المسلمين أن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء هم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله ورسوله؛ فهؤلاء أتباع الرسول ﷺ حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت، فقبلت

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢١ / ١٣١.

(٢) تفسير الطبري: ١٧/ ٤٩، ط. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

(٣) تفسير القرطبي: ١١/ ٣٠٥، ط. دار الشهب، القاهرة، ١٣٧٢هـ.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ٩٢.

الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير؛ فزكت في نفسها، وزكى الناس بها، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله - تعالى - فيهم: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾» [1].

ثانياً: الأدلة من الأحاديث النبوية:

ويدخل تحتها كل حديث اشتمل على الأمر بتصحيح الإيمان أو تكميله بالنسبة لأئمة المسلمين، أو تضمَّن الحثَّ على الصبر والقوة في إقامة الدين ونصرته، وخاصة ما كان الخطاب فيه موجهاً بصراحة أو ضمناً إلى طائفة العلماء والأمراء، ومن جملة تلك الأحاديث:

١- قوله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها» [2]، والمعنى الإجمالي للحديث هو: عصمة الله - تعالى - لمعالم الإسلام من الاندراس الكلي والذهاب الأبدي، بما يقيِّضه - سبحانه - من أئمة الدين الذين يقومون بتجديده وإحياء معالمه بين فترة وأخرى، وقد أورد صاحب (عون المعبود) بعض أقوال العلماء في بيان معنى تجديد الدين فقال: «(من يجدد) مفعول (يبعث لها) أي: لهذه الأمة، (دينها) أي: يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويذلهم، قالوا: ولا يكون إلا عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، قاله المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير، وقال العلقمي في شرحه معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما» [3].

وكلها معانٍ متقاربة لا تخرج عن وظائف أئمة الدين من المجددين وغيرهم، وإن كان دور المجددين في القيام بها آكد وأبلغ، وذلك لظهور أعمالهم التجديدية بين الناس وتأثيرهم في أحداث زمانهم كما قال الإمام السيوطي في قصيدته المسمَّاة (التنبئة بمن يبعث الله على رأس كل مائة):

والشرط في ذلك أن تمضي المائة

وهو على حياته بين الفئة

يشار بالعلم إلى مقامه

وينشر السنَّة في كلامه [4]

وما يقوم به المجدِّد من إقامة دين الله لا يتأتَّى لغير عالم بالدين؛ أصوله وفروعه، صابر محتسب على ما يلقى في سبيل الله. وقد يتفاوت المجدِّدون في التحلِّي بصفتَيْ الصبر واليقين، فتبرز في بعضهم صفة اليقين وفروعه؛ كالمشتغلين بعلوم الشريعة من فطاحل المفسرين والفقهاء والمحدثين وغيرهم فيكون مجال تجديدهم في جانب العقائد والتصورات غالباً على غيره من الجوانب، كما تكون صفة الصبر وما يتفرع عنه أظهر عند آخرين منهم فيكرِّس كلٌّ جهودَه التجديدية في إصلاح ما اندرس من الشعائر وإحياء ما انطمس من السنن. والمجدد قد يكون من العلماء أو من الأمراء، واشتراط الصبر واليقين في هؤلاء من المتقرر في الشريعة الإسلامية.

٢- قوله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسُئلوا فأفْتوا بغير علم، فضَلُّوا وأضَلُّوا» [5]، ومفهوم الحديث يدل على خطورة اتخاذ الأئمة من غير أهل اليقين والصبر؛ لأنهم لا يهدون الناس إلى الصراط المستقيم؛ سواء كانوا مفتين كحال من ذكر وصفهم في الحديث، أو كانوا قضاة، أو دعاة إلى الله، فإنهم ما لم يصدروا عن علم وفقه في الدين فإنهم من أهل الضلال والإضلال والجهل والمخالفة لأوامر الله؛ لأن الإقدام على الفتوى أو القضاء ونحوهما بغير علم ناتج عن عدم الصبر على تحصيل الشروط الواجبة في المفتين والقضاة. وأما ضلالهم وإضلالهم فهو بسبب إفتائهم وقضائهم بأهوائهم وعقولهم المجردة.

٣- قوله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدولُه، ينفون عنه تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين» [6]، حيث بيَّن رسول الله ﷺ أن حماة الدين وحرَّاس العقيدة في كل جيل من أجيال الأمة الإسلامية المتعاقبة هم

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/ ٩٣.
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم. وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب: الفتن والملاحم. والطبراني في المعجم الأوسط.
(٣) انظر: عون المعبود: ١١/ ٢٦٠، لمحمد شمس الحق العظيم أبادي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ.
(٤) أورد البيتين العظيم أبادي في (العون) عند ذكر أقوال العلماء في شرح الحديث.
(٥) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم، ح ١٠٠. ومسلم: كتاب العلم، باب: رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان. وأخرجه غيرهما من الأئمة.
(٦) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، برقم ٥٩٩.

عدوله. والعدالة المستجمعة لشروطها وصف جامع لمعاني اليقين والصبر؛ إذ عرَّفها أهل الاصطلاح بتعريفات كلها يفيد الاستقامة على دين الله في الاعتقاد والقول والعمل، ومما قالوه في تعريف العدل: «العدل هو من عُرف بأداء فرائضه – الإسلام – ولزوم ما أمر به، وتوقّى ما نهى عنه، وتجنَّب الفواحش المسقطة، وتحرَّى الحق والواجب في أفعاله ومعاملته، وتوقّى في لفظه مما يثلم الدين والمروءة، فمن كانت هذه حاله فهو الموصوف بأنه عدل في دينه ومعروف بالصدق في حديثه...»[1]. وهذه كلها من صفات أئمة الدين وقادة المؤمنين.

٤- قوله ﷺ: «لست أخاف على أمتي جوعاً يقتلهم ولا عدواً يجتاحهم، ولكني أخاف على أمتي أئمة مضلين؛ إن أطاعوهم فتنوهم وإن عصوهم قتلوهم»[2]، وفي الحديث بيان لخطورة تسلُّط الأئمة المضلِّين الآمرين بالبدع والفسق والفجور على رقاب الأمة، الذين يحكمونها بغير ما أنزل الله، ويسوسونها على غير منهاج رسول الله ﷺ. ولا شك أن سبب ظهور مثل هذا الصنف من الأئمة هو غياب خصلتَيْ الصبر المانع من الظلم، واليقين العاصم من الجهل.

ومن تأمَّل في وصف الله – سبحانه وتعالى – الحكام بغير ما أنزل بالكفر في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وبالفسق في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وبالظلم في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ أدرك حقيقة ذلك؛ لأن الفسق والظلم الذي دون الشرك مما يتنافى مع الصبر، كما أن الكفر لا يصدر من عالم بالله وأسمائه وصفاته عامل بمقتضى ذلك العلم، قال – تعالى –: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال السعدي – رحمه الله –: «أي: لا ينال الإمامة في الدين مَنْ ظلم نفسه وضرَّها وحطَّ قدرها؛ لمنافاة الظلم لهذا المقام فإنه مقامٌ آلتُه الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة والشمائل السديدة والمحبة التامة والخشية والإنابة؛ فأين الظلم وهذا المقام؟ ودلَّ مفهوم الآية أن غير الظالم سينال مقام الإمامة ولكن مع إتيانه بأسبابها»[3].

واعلم – أخي القارئ الكريم! – أن منزلة أئمة الدين في الأمة بمنزلة أرباب البيوت في أهليهم، وقد أوجب الله عليهم وقاية أهليهم من النار بما يأمرونهم به من الإيمان بالله وطاعته وترك معصيته ومخالفة أمره، قال – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وهذا في حق عامة المسلمين حيث يجب على جميعهم وقاية أهليهم النار. وأما رؤوس الأمة وقادتها المهديُّون فهم يتصدَّرون لأداء فروض الكفايات، ووقاية جماعة المسلمين من النار بما يقومون به من حراسة عقائدهم من التحريف، وصيانة أعمالهم من البدع، وحماية ديارهم من الظلم والاحتلال. وإذا كان يشترط في تعليم الأهل علماً وصبراً بقدر تلك المسؤولية المحدودة؛ فكيف بمن عهد إليه نيابة الرسول ﷺ في أمته، وفي الحديث: «كلُّكم راعٍ، وكلكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه: الإمامُ راعٍ وَمَسؤولٌ عن رَعيَّتِه، والرَّجُلُ راعٍ في أهلِه وَهوَ مَسؤولٌ عن رعيَّته، وَالمرأَةُ راعيةٌ في بيتِ زَوجِها وَمَسؤولةٌ عن رَعيَّتِها، والخادمُ راعٍ في مالِ سيِّدِه وَمَسؤولٌ عن رَعيَّته»[4].

وكما أسلفنا؛ فإن كل حديث اشتمل على التنويه بدور أهل العلم والفقه في الدين، أو فيه ذكر لصفات الأئمة والحكام العدول، أو تعرَّض لأهمية الصبر والثبات على الحق بالنسبة لأئمة الدين من العلماء والأمراء؛ فهو دليل على قاعدة الصبر واليقين وشاهدٌ على صحتها.

ثالثاً: كون القاعدة متفقة مع مقاصد الشريعة:

وأما المسلك الثالث من مسالك الاستدلال على القاعدة فهو كونها متفقة مع الغايات والعِلَل التي من أجلها شُرِّع كثير من الأحكام السلطانية، والآداب المرعيَّة في حق الأئمة والعلماء والدعاة. يقول العلامة ابن خلدون – رحمه الله –: «مقصود الشارع في الناس هو تحصيل مصالح الدين والدنيا،

(١) انظر: الكفاية في علم الرواية: ١/ ٧٠، تأليف: الخطيب البغدادي، ط. المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ٨/ ١٤٩، ط. مكتبة الزهراء، الموصل ١٤٠٤هـ، وللحديث شاهد في سنن أبي داود رقم ٤٢٥٢، وسنن الترمذي رقم ٣٢٢٩، وصححه الألباني بلفظ: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلّين».

(٣) تفسير السعدي: ١/ ٦٥.

(٤) أخرجه البخاري.

في الحياة الأولى والآخرة، ولا يتم ذلك إلا بحمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء»[1].

ولهذا نجد جُلَّ ما يذكر في حق الخلفاء والعلماء بوظائفهم المتعددة؛ من شروط وآداب؛ من فروع اليقين والصبر، وإن شئت راجع أقوال الفقهاء في شروط الخليفة، والمفتي، والقاضي، والداعية إلى الله، أو المربِّي؛ ستجد جملة منها كبيرة لا تخرج عن هذين الأصلين العظيمين، وذلك مثل: (الإسلام، والعدالة، وبلوغ درجة الاجتهاد، والشجاعة)[2] وغيرها مما يؤدي نقصانه أو فواته إلى قدح في كمال الإمامة أو في صحتها.

ومناسبة اشتراط الصبر واليقين للخليفة والسلطان راجعة إلى كونه المسؤول عن إقامة الدين الذي هو عصمة أمر الأمة، وسياسة الدنيا التي فيها معاشهم، وحماية حوزتهم التي فيها مقامهم، وأما اشتراطهما في المفتي فلكونه المقصود للكشف عن حكم الله في النوازل واستنباط الأحكام في شرع الله، وكذلك القاضي الذي يفصل في الخصومات ويحكم في النزاعات، والداعية الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ فجميعهم في منصب لا يقوم بواجبه فيه بغير الصبر واليقين.

رابعاً: استقراء سِيَر الأنبياء والعلماء والملوك والأمراء:

إن استقراء تاريخ الدعوة الإسلامية وسِيَر الملوك والخلفاء منذ ابتداء فترة النبوة والرسالة إلى يومنا هذا؛ يفيد بأن كل من عهد الله إليه بمهمة الرسالة، أو فوَّضت إليه الأمة أمر القيادة؛ كان ممن توفر فيه اليقين والصبر، فلم يجعل الله قط الرسالة والنبوة في من ليس من أهل العلم واليقين، أو من يستغل الناس في تحقيق مآربه الذاتية وتحصيل منافعه الشخصية، قال - تعالى -: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

والأنبياء والمرسلون أكمل الناس علماً ويقيناً لكونهم يتلقون الوحي من الله تعالى، كما أنهم أقوى الناس صبراً وثباتاً على دين الله، ولهذا اختارهم لرسالته، فبلَّغوا الرسالات وأدّوا الأمانات ونصحوا الأمم، قال - تعالى -: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقد ثبت في الحديث النبوي: «أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي»[3]، قال ابن حجر - رحمه الله - في الفتح: «قوله: تسوسهم الأنبياء أي: أنهم كانوا إذا ظهر فيهم فساد بعث الله لهم نبياً يقيم لهم أمرهم ويزيل ما غيَّروا من أحكام التوراة»[4]. وقال النووي - رحمه الله -: «أي: يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية، والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه»[5].

وفي الحديث: «إشارة إلى أنه لا بد للرعية من قائم بأمورها يحملها على الطريقة الحسنة وينصف المظلوم من الظالم..»[6].

ومهمة سياسة الأمة، وكذلك تعليم الكتاب والحكمة للناس وتزكية نفوسهم بعد ختم النبوة برسولنا محمد ﷺ؛ تُعدُّ من وظائف أئمة المسلمين؛ العلماء والأمراء، يؤدُّونها امتثالاً لأمر الله ونيابة لرسول الله ﷺ في إقامة الدين.

خامساً: موافقة القاعدة لأصول المدنية والعمران البشري:

إن من أصول المدنية والعمران البشري أن أمر الأمم والشعوب مؤمنة كانت أو كافرة؛ لا يستقيم ولا ينضبط إلا بالإمامة والقيادة، وذلك مغروس في طبائع البشر وفِطَرهم، سواء منهم من سكن في الحواضر أو من قطن البوادي، أو من عاش في مجتمع كبير أو في مجتمع صغير.

قال الأفوه الأودي وهو شاعر جاهلي:

لا يُصلِحُ الناسَ فوضى لا سَرَاة لهم
ولا سَرَاةَ إذا جهّالهم سادوا

وقد جرى في عُرف البشرية أنه لا يُرشَّح ولا يترشَّح

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٥، ط. دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م.
(٢) راجع في شروط الخليفة: مغني المحتاج: ٤ / ١٣٠، للشربيني، ط. دار إحياء التراث ١٩٥٨م. وفي شروط الفتوى: المجموع شرح المهذب، للنووي، ط. دار الفكر، بيروت. وفي شروط القاضي: المغني: ١١ / ٣٨١، لابن قدامة، ط. دار الكتاب العربي.
(٣) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، ح ٣٢٦٧. ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الإمام جُنة، ح ١٨٤٢.
(٤) فتح الباري: ٦ / ٤٩٧، ط. دار المعرفة، بيروت، ١٤١٧هـ.
(٥) انظر: المنهاج: ١٢ / ٢٣١، مصدر سابق.
(٦) فتح الباري: ٦ / ٤٩٧.

لمنصب القيادة والمُلك إلا أهل البسطة في العلم والجسم، المهتدون بعلمهم إلى نصح الرعية وسياستهم على مقتضى المصلحة، والمتوصلون بالقوة والصبر إلى رعاية مصالحهم ودفع المضارِّ عنهم، فلم يُؤثَر قط في تاريخ الإنسانية أن أمة من الناس سوَّدوا المخاريق والضعفاء عليهم، ثم أفلحوا ودام لهم ملك وسُؤدد.

وإن قيل: فكيف يتوصل أهل الكفر والإلحاد إلى العلم واليقين، وقد عرفتهما بما سبق؟ قلت: إن العلم واليقين في كل إمامة بحسبها؛ فمن أمَّ قوماً مؤمنين قصدُهم طاعة الله ونشر دينه وإعلاء كلمته؛ كان اليقين والعلم الواجب في حقه ما كان متعلقاً بأصول الدين وفروعه، وطرق إقامة الدين ووسائل نشره. وأما من قاد أمة كافرة لا تؤمن بالله واليوم الآخر، فاليقين والعلم الواجب في حقه ما يتوصل به إلى جلب المصالح الدنيوية ودفع المفاسد الدنيوية فقط، وما قيل في اليقين يُقاس على ما يُقال في الصبر.

الوقفة السابعة: تصنيف القاعدة:

إن القواعد الشرعية تختلف بحسب الفنون والعلوم التي تصنف ضمنها؛ فهناك القواعد الفقهية، والقواعد الأصولية، والقواعد التربوية والدعوية، وغيرها من القواعد.

تُرى؛ فإلى أيِّ نوع تُصنَّف قاعدة الصبر واليقين؟

الذي أرى هو أن هذه القاعدة تُعدُّ من القواعد الجامعة التي يمكن تصنيفها ضمن القواعد الفقهية، أو تُعزَى إلى علم السلوك والتربية، وإن شئت قُلْ: إنها من قواعد فقه الدعوة والتغيير.

أما علاقتها بالفقه الإسلامي فهي من جهة دخولها في باب الأحكام السلطانية وخاصة فصل شروط الخليفة أو الإمام وواجباته؛ لأن كل ما يذكر هناك من الشروط والواجبات مندرج تحت الأصلين العظيمين؛ الصبر واليقين، وكذلك باب القضاء والفتوى؛ لا سيما ما يتعلق منه بشروط القاضي والمفتي، وغير ذلك من الولايات الشرعية؛ كالوزارة، وقيادة الجند.. ونحوها.

وأما صلة القاعدة بعلم السلوك والتربية؛ فواضحة وبيِّنة؛ لما عرف من اشتغال المربِّين بأصول الأخلاق الإسلامية التي على رأسها خُلق الصبر المانع من اقتراف الشهوات، واليقين العاصم من اتِّباع الشبهات، وكل من الشهوات والشبهات مرض من أمراض القلوب المؤثرة على تديُّن الإنسان واستقامته، قال - تعالى - عن مرض الشهوات: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وقال عن مرض الشبهات: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]. وغاية مقصد أطباء القلوب هو قطع مادة الفساد عن العقول والجوارح أو منعها، ولا أنفع في ذلك من دوائين هما: الصبر واليقين.

وكذلك تصنيف القاعدة في علم فقه الدعوة والتغيير يُعدُّ صواباً من جهات مختلفة، منها:

- كون العلماء والدعاة من جنس أئمة المسلمين الذين تجب طاعتهم والردُّ إليهم، قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

وولاة أمور المسلمين لا يهدون بأمر الله إلا إذا صبروا وكانوا بآيات الله يوقنون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

- إن وظيفة أهل العلم والدعوة هي التربية والتعليم، بكل ما تحمل الكلمتين من معنى، قال - تعالى -: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، ولا يقوم بالتربية والتعليم والدعوة إلى الله على الوجه الذي يرضي الله ورسوله مَنْ لم يتوفر فيه اليقين والمعرفة بما يدعو الناس إليه ويربِّيهم عليه، وكذلك الصبر والثبات على ما يلقاه في سبيل ذلك من الأذى.

- مسؤولية الأمراء والحكام في الدعوة والتغيير بما عهد الله إليهم من واجب إقامة دين الله وسياسة الدنيا به، ولا يقومون بهذه الوظائف الجليلة ما لم يتحلّوا بصفتَيْ الصبر واليقين.

إذن؛ فقاعدة (بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين) قاعدة شرعية جليَّة في فقه الدعوة والسياسة الشرعية، ومصباح منير في طريق السالكين وبالأخص من ترشَّح منهم لقيادة المسلمين وإمامتهم.

وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

مجموعة شركات ومصانع رغدان للدهانات

RAGHADAN GROUP OF PAINT COMPANIES AND FACTORIES

RAGHADAN

No 1

رغدان

دهانات تميزت بالجودة

www.Raghadan.com

إطلالة جديدة ... لرشات يابانية ديكورية مبتكرة

(بشكل الجرانيت)

multi-color paint zola-coat

ALESCO

KANSAI PAINT

شركة كنساى اليابانية

أكوا زولاكوت

AQUA ZOLACOAT

رشات يابانية ديكورية قوية - داخلية وخارجية

مزايا أكوا زولاكوت

- رشات ديكور متعدة الألوان ذات لمعه
- للاستعمال الداخلي والخارجي
- قابلة للغسيل
- ضد الخدش
- ضد البكتيريا والفطريات
- مقاوم للعوامل الجوية القاسية
- مؤخر للحريق
- يمكن طلاؤها على معظم الاسطح

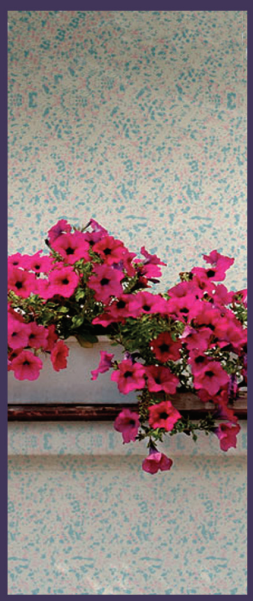

الادارة العامة (الرياض) : تلفون ٤٥٤٩٩٨٢ (١ ٠٠٩٦٦) فاكس ٤٥٤٩٩٨١ ص.ب ١٥١٨ الرياض ١١٤٤١ السعودية

Head Office : Tel. (00966 1) 4549982 Fax. 4549981 P.O. Box 1518 Riyadh 11441 Saudi Arabia

Website: www.Raghadan.com E-mail: paints@Raghadan.com

الرياض ٤٥٥٠٥٧٢ جدة ٦٠٥١٤٤٦ الدمام ٨٣٣٠٠٤٧ الاحساء ٥٣١٣١٢٣ خميس مشيط ٢٢٣١٣٦٧ المدينة ٨٤٥٤١١٣

السعودية - الامارات - الكويت - قطر - البحرين - عُمان - اليمن

الاردن - سوريا - مصر - السودان - ليبيا - بريطانيا

التفكُّر

عبادة ربانية وضرورة دعوية

محمد عادل
abo_abdo209@hotmail.com

حقيقة التفكُّر:

التفكُّر سياحة نورانية ورياضة إيمانية؛ ينطلق فيها القلب في وعي، والعقل في يقظة معاً بعيداً في ساحات الإيمان بلا قيد من جواذب الأرض وقيود الشهوات؛ ليجتمعا على التقاط الحكمة والمعرفة وتحقيق معاني الإيمان والترقي في درجات العبودية.

والتفكُّر فرصة عظيمة لاكتشاف مساحة بعيدة شديدة العمق في النفس الإنسانية يصعب الوصول إليها في غير تلك الأجواء النفسية الصافية التي تمتزج فيها أنوار التدبر مع صفاء النفس حتى تصل إلى حقائق العبودية بما فيها من ضَعْف وعَجْز وذلة وعَوَز، ومشاهدة كمالات الربوبية بما فيها من: كمال وجمال وجلال.

وهو يبدأ بعمليات سهلة بسيطة؛ يلتفت فيها القلب إلى عظيم الآيات المبهرة وعظيم قدرة الله في خَلْقه، وجلاله في فِعْله وتدبيره، في عملية يسيرة لا تحتاج في بدايتها لكبير مجاهدة، ترتقي إلى درجات أعلى في معانيها وأعمق في تأثيرها، لا يتمكن من الوصول إليها إلا بنوع من المجاهدة ولا يستطيعها إلا من رُزق بحظ من البصيرة وقِسْط من السموِّ الروحي، وفيها يتجاوز المؤمن بنور بصيرته نور بصره، ويتجاوز ظواهر الأشياء إلى حقائقها، ويرى فضل المنْعِم من وراء النعم، ويشاهد عظيم قدرة الله في كل حركة وسكنة في الكون، ويجمع من عجائب آيات الكون والنفس وعظيم حكمة الشرع؛ فينصب من جميعها شواهد على جلال أسماء الله وصفاته وعظيم قدرته وحكمة تقديره.

شرَفُ التفكُّر وعظيم قدره:

أمر الله – سبحانه – بالتفكُّر والتدبر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكِّرين بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال – سبحانه –: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

ونعى – سبحانه – على الغافلين عن النظر والتدبر في كونه، فقال – عز وجل –: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال – سبحانه وتعالى –: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

والتفكُّر بمعناه الواسع ودوائره المتعددة التي تشمل النظرَ في آيات الله الكونية، والتفكُّرَ في آيات الله المقروءة في كتابه الكريم، والتدبرَ في عظيم فِعْل الله وبديع تدبيره وسنن الله

في كونه، يُعدُّ في وسائل التزكية وخطوات التربية وسيلةً هامة وخطوة كبيرة لبناء نَفْس مزكَّاة، وبدونه تتحول النفوس إلى نسيج هشٍّ، والعقول إلى مستودعات خاوية، وتغيب عن القلب حقيقة العبودية.

ويكفي في شرف التفكُّر، وعظيم قَدْره، ومسيس حاجة المؤمنين عامة والدعاة الربانيين له خاصة، أن أصول أعمالهم ورأس مالهم الذي عليه تُبنى ربانيتهم: من تلاوة، وقيام، وعِلْم، وذِكْر، لا تكمل ولا تثمر بدون نوع تفكُّر يسري فيها كسريان الروح في الجسد؛ فيستجلي به العبد من التلاوة مقاصد الرب من كلامه، ويفجر به معاني العبودية في قيامه، ويستعين به على تحقيق مقصد العلم من العمل.

يقول الإمام ابن القيم حين يصف التفكُّر وعظيم شرفه: «تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة؛ فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة...»[1].

خصائص التفكُّر وتنوُّع دوائره:

من جميل خصائص التفكُّر أن توجِّه الأمر به إلى مساحات فسيحة ودوائر متعددة لا تترك مجالاً يتسلل منه الملل للقلوب، ولا منفذاً يتسرب منه الخمول للعقل، وما ترك باباً يوصل لحقيقة الإيمان إلا طَرَقه؛ فالأمر به اتسع ليشمل المحسوس والمعنوي، وتجاوز المادي إلى الغيبي. وطلَبَ النظر في الدنيا كما أَمَر بالتفكُّر في الآخرة، ورغَّب في التفكُّر في النفس واستجلاء آياتها والنظر في الكون والتقاط جميل إبداعه، كلُّ ذلك في عملية فريدة تغذِّي العقل بالحكمة وتقوي القلب باليقين وتُعين الجوارح على إحسان الطاعة؛ فتجمع مع عبادة الباطن عبادة الظاهر ومع حركة القلب نشاط العقل.

وكما أن دوائر التفكُّر ومجاريه منوعة، فكذا الوارد من أنوار التفكُّر[2] شديد التنوع؛ فالعبد إذا سرح في رياض الأسماء والصفات وتأمَّل آثار صفات جلال الرب وكماله، ينشرح صدره ويذوب حياءً وحباً؛ لِمَا يرى من واردات أنوار الإحسان والعفو والستر والرحمة، ويقشعر قلبه خوفاً ويذوب خشيةً عندما يطيل النظر في معاني أسماء البطش والقهر والجبروت.

وتتصاغر إليه نفسه عند تذكُّر ذنوبه والتأمل في حال نفسه وعظيم تقصيره، مع تذكُّر عظيم نِعَم الله عليه وواسع عطائه وفَضْله وجميل آياته في خَلْقه وتقدير رِزْقه وتدبير أموره؛ فيستشعر القلب عظيم المنة، ويلهج اللسان بالشكر والثناء على المنعم.

وحين يسرح بفكره في رياض الجنة؛ فيرى بعين قلبه أنهارها وغلمانها وحورها؛ فيهيج في قلبه حب لقاء ربه وتتفجر في نفسه طاقة عظيمة تقوي عزمه في طَلَب رضاه ويستعذب معها مكابدة الطاعة، وحين ينقل بصره تِلقاء أهل النار ويعاين ما هم فيه من بؤس وشقاء، ويرى ما لحقهم من توبيخ وحسرة وندامة، يذوب قلبه كمداً على ما فرَّط.

وتُذْهل آيات الكون الفسيح عَقْله بما يحويه من مشاهد عَظَمَة وبديع صَنْعة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١] فيتكشف له في الكون من جميل الإبداع وعَظَمَة الخَلْق ما تفنى الأعمار قبل الوقوف على ما فيها من أسرار أو تحصي ما فيها من عجائب.

وليس المقصود من تدبُّر آيات الكون الوقوف عند ظواهرها فقط، بل إدراك تلك الحقائق الضخمة التي تقف وراء هذا الكون العظيم، والتي تُحدِث تلك النقلة الاعتبارية المقصودة من التفكُّر عند أولي الألباب، وتتحول بهم من الوقوف على عَظَمَة الخَلْق إلى عَظَمَة الخالق؛ فيلقي في النفس التعظيم لهذا الخالق المبدع وتلهج الألسنة بذكر ربها: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

مآلات التفكُّر وعظيم نَفْعه:

التعرف على الله: هو المقصود الأسمى والمطلوب الأهم من عبادة التفكُّر، وهو الغاية الجامعة لما سواها من غايات التفكُّر، وما سلك العابدون طريقاً إلى ربهم أسرع ولا أرحب من التفكُّر.

وما بثه الله – سبحانه – في جميع كونه وخَلْقه من عظيم آيات، وما وضع فيها من جميل صُنْعه وحُسْن تصريفه الذي تفرَّد به، تنطق بأن للكون ربّاً مدبِّراً وتشهد أنه إله عظيم؛ فيخشع القلب لقدرته، ويَذْهل العقل لعظيم تقديره.

(١) مفتاح دار السعادة: ١٨٣.

(٢) قال سفيان بن عيينة: الفكرة نور يدخل قلبك.

إن تعويد القلب على التفكُّر في كون الله - عز وجل - وما بثه فيه من آيات، والنظرِ بعين القلب لآثار أسماء الله وصفاته وحكمة أفعاله وواسع قدرته، يستنبت في القلب معاني التوحيد، ويستفيد منه العبد معرفة الرب وجلال عظمته.

إحسان العمل ودوامه: إن استدامة التفكُّر الذي يجمع بين وعي العقل وحضور القلب تصل بصاحبها إلى حُسْن الفهم عن الله، المورِّث للعلم الحقيقي الذي هو قناعة العقل واطمئنان القلب وانقياد الجوارح. قال وهب بن منبه: «ما طالت فكرة امرئ قط إلا فَهِم، وما فَهِم إلا علم، وما علم إلا عمل»[1] فَهْمٌ موصل لعلم، وعلم محفِّز لعمل: حلقة متشابكة يوصل بعضها لبعض بلا انقطاع ولا توقُّف عند ظاهر العلم أو غياب عن مقصد العمل.

هَجْر الذنوب: التفكُّر في عَظَمَة الله وواسع قدرته وعظيم بطشه وشديد انتقامه يورث القلب خوفاً مزعجاً وخشية تحول بينه وبين شهوات نفسه وأهوائها؛ فالأثر النوراني لهذا التفكُّر يعرقل عمل الشهوات في القلب ويدفع أهواءها على حسب قوة الوارد من أنوار التفكُّر؛ فتُسْلَب الشهوة من عاجل لذتها فما يتبقى منها سوء عاقبتها. قال بِشْر الحافي: «لو تفكَّر الناس في عَظَمَة الله - تعالى - ما عصوه»[2].

استجلاء حقائق الإيمان والتحقق بها: التفكُّر يكشف للقلب ما حُجب عنه بسبب الذنوب من معاني الإيمان، ويجلب كلُّ نوع من أنواع التفكُّر للقلب مشهداً من مشاهد الإيمان وحقيقة من حقائقه؛ فتظل معاني الإيمان وحقائقه: من يقين وخشية وحب ورجاء وتوكُّل وإنابة تلوح للقلب في جَوْلات التفكُّر، وكلما كان التفكُّر في حضرة من القلب وحضور من العقل كانت حقائق الإيمان أكثر وضوحاً واشد تأثيراً. قال الحسن: عن عامر بن عبد قيس قال: «سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكُّر»[3].

رقة القلب: حينما تستمر جَولات التفكُّر وتتنوع دوائرها؛ فإن ذلك يورث القلب رقة وإخباتاً لما ينطبع فيه من مشاهد العَظَمَة والقدرة والقهر التي تطرد دواعي الكبر والعُجْب وتستنبت بذور الذل والتواضع، ومن مشاهد العفو والرحمة والإحسان والجود ما يستمطر أسباب الحياء والشكر؛ فيندفع مع كل مشهد من مشاهد التفكُّر وكل جَوْلة من جَولاته باعث من بواعث الشر ويستجلب باعثاً من بواعث الخير، ولا يزال القلب في ميدان التفكُّر يدافع الشر ويستجلب الخير حتى يبلغ من الرقة ما يكون معه على حال كريمة قريباً من الله قريباً من رحمته.

التفكُّر أكثر ما يحتاج إليه الدعاة:

والتفكُّر وإن كانت حاجة الجميع إليه ملحَّة إلا أن الدعاة هم من أكثر أصناف الخلق حاجة إليه؛ لما يمثله التفكُّر في حياة الدعاة من مَعِين روحي وعقلي يمدهم بكثير من مقومات بنائهم الذاتي ونجاحهم الدعوي، ومن عظيم فوائد التفكُّر للدعاة فضلاً عما سبق:

• روحانية تُعين: إن لحظات التفكُّر الصافية التي يجتمع على القلب فيها من معاني الإيمان وحقائقه ومقامات العبودية، تمد الداعية بجزء كبير من زاده الروحي الذي يؤهل الداعية لاستحقاق مدد الله من العون والنصرة.

والتفكُّر يوفر للداعية من اليقين وحُسْن الفهم عن الله ما ينسكب على أخلاقياته صبراً جميلاً مع المدعوين وحُسْناً في الخُلُق يثبِّت المودة في قلوبهم، وما يبدو منه من هدوء نَفْس وجميل سَمْت أسبغته عليه جلسات التفكُّر يفتح قلوب المدعوين على مصراعيها لدعوته ويُلْزِمهم طِيب المعشر.

• الوقوف على مواطن الضعف والقوة: فالتفكُّر مرآة تعكس بنور البصيرة خبايا النفوس وعيوبها؛ وفي جلسات التفكُّر الصافية البعيدة عن تزيين الشيطان وحظوظ النفس يصل الداعية لمساحات واسعة يصعب الوصول إليه في منظومته النفسية ونفوس من حوله من تلامذته ومحبيه بما اختبأ فيها من طبائع وأخلاقيات ومواطن ضعف ومكامن قوة؛ حتى إذا قام ليضع خطة نهوضه وخريطة سيره؛ فعن بينة يسير وعن بصيرة ينطلق. قال الفضيل: «الفكر مرآة تُريك حسناتك وسيئاتك»[4].

• تصحيح المسار: وللداعية من مواطن التفكُّر ومساحات التدبر ما قد يغيب عن غيره الاعتبار به: من النظر فيما يجري من مِحَن وابتلاءات في حياة أصحاب الدعوات، وما

(١) تفسير ابن كثير، مجلد ٢، تفسير الآية ١٩٠ سورة آل عمران.
(٢) تفسير ابن كثير، مجلد ٢، تفسير الآية ١٩٠ سورة آل عمران.
(٣) تفسير ابن كثير، مجلد ٢، تفسير الآية ١٩٥ سورة آل عمران.
(٤) تفسير ابن كثير، مجلد ٢، تفسير الآية ١٩٥ سورة آل عمران.

يقع في مسيرتهم من حوادث تحمل الكثير من العبر، ووقائع تحمل العديد من الدروس: من هزيمة ظالم، وانتصار مظلوم، ومن جريان الأيـــام دول بين المؤمنين والكافرين، وغير ذلك: من زاد الســـابقين وخبرات اللاحقين وتجارب أهل الدعوة، مما يلزم الداعية الاسترشاد به في دعوته.

ومـــع غياب جـــولات التفكُّر التي يمـــارس الداعية من خلالها مراجعاته الإيمانية ويجدد خططه الدعوية، يضعف حُسْـــن تواصل الداعية مع مدعويه ويتحول جانب كبير من العلاقة إلى مشاكل تســـتنزف كثيراً من الجهود؛ وذلك لِـمَا يلمســـه الجميع من غياب لجزء كبير من مرتكز اليقين الذي يؤسَّـــس في خلوات التفكُّر، وغياب لمساحة واسعة من رُكْن الفهم ووضوح الرؤية المقوِّمة لمسار الدعوة.

إشكالية التفكُّر في واقعنا المعاصر ومقترحات عملية:

يشهد واقعنا المعاصر نوعاً من التعقيدات والمشاكل التي تســـللت لكل نواحي الحياة، واتسعت لتشمل كل زوايا النفس البشـــرية، مما ترك أثره على النفس تشويشاً على صفائها، وتشـــتتاً في اهتماماتها، وغفلة عن كثيـــر من حقائق الكون والنفس، وكلها عوائق تصطدم وأساسيات التفكُّر الذي ينبني في أصله على اجتماع همة النفس وصفائها.

ونشأ من ذلك إهمال واضح لعبادة التفكُّر أو نسيان لها في زحمة وتعدد المشـــاغل، وفي أحســـن الأحوال يجد المرء صعوبة شـــديدة في المداومة عليها وأدائها على الوجه الذي يُرجى منه أثر فعَّال يتجاوز رقة قلبية مؤقتة.

وهذه بعض المقترحات العملية التي يمكن أن تساعد في تنمية عبادة التفكُّر:

١ - استغلال الأوقات الذهبية ومواسم الطاعات:

تتميز تلك الأوقات الذهبية: كـ (أوقات السَّحر ومواسم الخيـــر في رمضان والعمرات) بأنها توفر البيئة المثلى لكثير من أنواع التفكُّـــر، وتجتمع في تلك الأوقات الشـــريفة من مُعينات التفكُّر ما لا يجتمع في غيرها؛ فهي فرصة لاجتماع شـــتات القلب وحضوره، وفيها يضعف أثر الشواغل وتزداد النفس إقبالاً وتكون أيسر في الاستجابة لنداء التفكُّر.

٢ - الحرص على الرحلات الخلوية:

فيجتهد المرء أن يفرِّغ نفسه كلما استشعر بجفاف روحي وعَطَش إيماني؛ ليرحل إلى مكان هادئ بديع بعيد عن صخب المدنية، تتوفر فيه من عجائب الخلق من سماء مرفوعة وأرض ممدودة ونجوم ســـاطعة وأشجار وأنهار ما يهيئ القلب لعبادة التفكُّر؛ فيعطي العين حقها من رؤية مشاهد القدرة والإبداع، ويمنح القلب فرصة ذهبيـــة؛ ليحلِّق خارج دنياه الضيقة في رحابة الآخرة، ويساعد العقل على الانطلاق خارج اهتماماته المحدودة إلى قضايا حياته الكبرى.

٣ - التدرب على عمليات التفكُّر البسيطة:

التفكُّـــر أنواع بعضها فوق بعض، وبعض أنواع التفكُّر قد يحتاج لنوع مجاهدة ومستوى من الفهم ورصيد من الإيمانيات والعلم؛ ربما لا يبلغه الكثيـــرون، ولا يعني هذا أن يُحْرَم من لـــم يمتلك تلك المؤهلات من عبـــادة التفكُّر، بل الواجب أن يتفكَّر كل امرئ على قَدْر ما حباه الله من عقل وفَهْم، والأمـر في قولـه - تعالى -: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿وَفِي أَنفُسِـكُمْ أَفَلا تُبْصِـرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] لم يتوجه لفئـــة دون فئة، ولكنها دعوة ربانية ونداء إلهي للناس جميعاً للنظر في الآيات في هذا الكون الفسيح، وفي ملكوت الله الواســـع، وخَلْقِه العظيم، وإبداع صَنْعَته مما يلفت نظر أقل الناس عقلاً ويحرك مشاعر أقسى الناس قلباً.

٤ - الصوم:

وهـــو من الطرق المعينـــة على التفكُّـــر؛ فالصوم يوقظ الفكرة ويُضعِف جذوة الشـــهوات، وبالمداومة عليه ينســـكب على النفس ســـكينة تمنح صاحبها صفاءً يعينه على دخول جـــولات التفكُّر، بخلاف إذا ما أكثر من الطعام والشـــراب؛ فيتثاقل عن الطاعة وتُسد أمامه أبواب التفكُّر، ومن هنا قال بعضهم: إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرســـت الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة.

أخيـــراً: مهما تكن من مشـــاغل وعوائق تمنع القلب من الإقبال على التفكُّـــر بهمة، وتعيق النفس عن الاجتماع عليه بنشـــاط؛ فإن فوائد التفكُّر وعظيم حاجة النفس البشـــرية إليه، تدفع دفعاً لمصارعة الواقع بمشاكله ومدافعة ضغوطاته؛ لابتـــكار حلول لتجاوُز تلك التحديـــات، والأخذ ولو بنصيب قليل من عبادة التفكُّر التي قد يؤدي فواتها إلى إحداث شَرْخٍ واسعٍ في حقيقة العبودية.

إعجاب المرء بنفسه

صالح بن فريح البَهلال(*)
saleh.f.b@gmail.com

إن للنفس البشرية طرائق تميل بها مع الهوى، ومسارب تنفُذ من خلالها نحو الهلاك، وإن اللبيب الموفَّق مَن زمَّ نفسه بزمام التقوى، وجاهدها بلزوم الإيمان، ومراقبة الرحمن؛ فبذلك يفوز ويُهدى، ويسلم وينجح، قال - جل وعز -: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ألا وإن من أدواء النفس الخفية، والتي يحتاج صاحبها يقظة على الدوام؛ حتى يسلم منه: داء (العُجب بالنفس) فقد يمنُّ الله على بعض عباده بنعمة من النعم؛ من علم، أو مال، أو جاه، أو موهبة حسنة... فيحسب غير الموفق من أولئك أنه ابن بَجْدتها، وأبو عُذْرتها، وأنه ابن جَلَاها، وطلَّاع ثناياها؛ فربما صعَّر خده للناس، ونأى بجانبه عنهم، واستنكف عن قبول الحق، وهذه مَهلكة ومَزلَّة قَدَم، وما يؤذي فيها المرء إلا نفسه، والمرء إذا لم يلحظْ نفسه، فإنها تقوده إلى العطَب.

وإن علاج ذلك الداء يسّير على من يسره الله عليه؛ وذلك متمثّل في أمور:

أولاً: أن يعلم العبد أن هذه النعمة إنما هي محض توفيق الله، وأنه ليس لنفسه في ذلك الفضل شيءٌ، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، وأنه لولا الله لكان هملاً مضاعاً، ساقطاً مزدرى، ولكن الله هو الذي أنعم وتفضل، ووهب وامتن، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣]، وقال: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١] وقد قال الله لنبيه محمد ﷺ وهو أفضل الخلق: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤] وقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وقال: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٧] وقال على لسان نبيه شعيب - عليه السلام -: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ولذا كان من الدعاء النبوي الذي ينبغي للمسلم أن يقوله طرَفَي النهار: «يا حي يا قيوم! برحمتك أستغيث؛ أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرْفَة عين»(١)، وورد في حديث آخر: «فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر، وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك»(٢)، وورد في حديث آخر: «وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعورة

(١) أخرجه النسائي في الكبرى: (١٠٤٠٥).
(٢) أخرجه أحمد: (٣٩١٦).

(*) محاضر في قسم السُّنة بجامعة القصيم.

وذنب وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك»[1].

وكان مكحول ومالك لا يفتيان حتى يقولا: «لا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

قال الرازي: (والذي جربته من أول عمري إلى آخره؛ أن الإنسان كلما عوَّل في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة والشدة والرزية، وإذا عوَّل العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه؛ فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عُمُري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين؛ فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله - تعالى - وإحسانه... ومن كان له ذوق في مقام العبودية وشرب من مشرب التوحيد عرف أن الأمر كما ذكرناه»[3].

ولا يشك مسلم أن الله ولي كل نعمة، ولكن ربما تراءت له نفسه، بسبب كثرة ما يسمع من مديح وإطراء، أو لشدة انغماسه في الحياة المادية، أو لكثرة ما يرى من ترادف النعم، مع بُعده عمن يذِّكره بالله؛ فتصدأ الروح وتجف؛ فتحتاج إلى من يُزكِّيها ويَسقيها.

ثانياً: أن يعلم أن بقاء هذه النعمة منوط بشكرها، وشكرُها يتحقق بمسكنة العبد وفاقته إلى ربه؛ فكلما زادت النعمة على العبد كلما تحتَّم عليه أن يزيد افتقاره للخالق، وتواضعه للخلق؛ فمهما بلغ العبد من الصلاح والديانة، فإنه لا ينبغي له أن يدَّعي الكمال، بل يذل لربه، ويعترف بتقصيره وظُلْمه لنفسه، فإذا رأيت الرجل كلما ارتفع كلما زاد افتقاره والتجاؤه لربه، وانكساره له، فاعلم أنه قد تفيأ ظلال التوفيق، وأخذ منه بسبب متين، وآوى فيه إلى ركن شديد.

وقد حذق ابن القيم كعادته فصور هذا المشهد، فقال: (وأما ضبط السرور، فلا يقدر عليه إلا الأقوياء؛ أرباب العزائم، الذين لا تستفزهم السراء؛ فتغلب شكرهم، ولا تضعفهم الضراء؛ فتغلب صبرهم. والنفس قرينة الشيطان ومصاحِبته، وتشبهه في صفاته، ومواهبُ الرب - تبارك وتعالى - تنزل على القلب والروح؛ فالنفس تسترق السمع، فإذا نزلت على القلب تلك المواهب، وثَبَتْ لتأخذ قسطها منها، وتصيِّره من عدَّتها وحواصلها؛ فالمسترسل معها، الجاهل بها يدَعُها تستوفي ذلك، فبينا هو في موهبة القلب والروح وعدة وقوة له؛ إذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعُددها؛ فصالت به وطغت؛ لأنها رأت غناها به، والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال؛ فكيف بما هو أعظم خطراً وأجلُّ قدْراً من المال بما لا نسبة بينهما؛ من عِلْم أو حال أو معرفة أو كشف؟ فإذا صار ذلك من حاصلها انحرف العبد به ولا بد إلى طَرَف مذموم؛ من جرأة، أو شطح، أو إدلال... ونحو ذلك؛ فوالله كم ههنا من قتيل، وسليب، وجريح يقول: من أين أُتيت؟ ومن أين دُهيت؟ ومن أين أُصبت؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك: أن يُغلَق عنه باب المزيد؛ ولهذا كان العارفون، وأرباب البصائر: إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلى طرَف الذل، والانكسار، ومطالعة عيوب النفس، واستدعَوا حارس الخوف، وحافظوا على الرباط، بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس، ونظروا إلى أقرب الخلق من الله، وأكرمهم عليه، وأدناهم منه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وقد دخل مكة يوم الفتح، وذقنه تمس قربوس سرجه[4]؛ انخفاضاً وانكساراً وتواضعاً لربه - تعالى - في مثل تلك الحال التي عادة النفوس البشرية فيها أن يملكها سرورها، وفرحها بالنصر والظفر والتأييد، ويرفعها إلى عَنَان السماء؛ فالرجل: من صان فتْحَه، ونصيبه من الله، وواره عن استراق نفسه، وبخل عليها به، والعاجز: من جاد لها به، فيا له من جُوْد ما أقبحه! وسماحة ما أسفه صاحبها! والله المستعان)[5].

ومن تأمَّل حال الكُمَّل من الخلق، يلحظ أنهم قد أخذوا من هذه المعاني بحظ وافر؛ فهذا آدم وزوجه - عليهما السلام - يقولان: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال نوح - عليه السلام -: ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقال إبراهيم - عليه السلام -: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وقال موسى - عليه السلام -: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وقال يونس - عليه السلام -: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - للنبي ﷺ: علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال:

(١) أخرجه أحمد: (٢١٦٦٦).
(٢) سير أعلام النبلاء: ٥/ ١٦١، و٨/ ٦٦.
(٣) تفسير الرازي: ١٨/ ١٤٥.

(٤) أخرج الحاكم: ٤/ ٣٥٢ عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي دخل مكة و ذقنه على رحله متخشعاً. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، و لم يخرجاه.
(٥) بتصرف من مدارج السالكين: ٢/ ٣٩٤،٣٩٥.

«قل: اللهم! إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت؛ فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[1].

قال ابن القيم: (فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يَصحَّ له بعدُ الإسلام حتى يدَّعي الشرف فيه، ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي
وهكذا كان أبي وجدِّي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً، وبعث إليَّ في آخر عُمُره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظْمِه:

أنا الفقير إلى رب البريات
أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي، وهي ظالمتي
والخير إن يأتنا من عنده ياتي[2]

وقد ضرب الإمام أحمد في هذا المعنى بسهم وافر؛ فمن ذلك:

- قال يحيى بن معين: (ما رأيت مثل أحمد؛ صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيءٍ مما كان فيه من الخير)[3].

- وقال المَرُّوذي: (قلت لأبي عبدالله: إن بعض المحدِّثين قال لي: أبوعبدالله لم يزهد في الدراهم وحدها، قد زهد في الناس! فقال: ومن أنا حتى أزهد في الناس؟ الناس يريدون أن يزهدوا فيَّ)[4].

- وقال أيضاً: (سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - وذكر أخلاق الورعين، فقال: أسأل الله أن لا يمقتنا، أين نحن من هؤلاء؟)[5].

- وقال أيضاً: (قلت لأبي عبدالله: ما أكثر الداعين لك! فتفرغرت عيناه، وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً)[6].

وقال محمد بن موسى: (رأيت أبا عبد الله؛ يعني الإمام أحمد وقد قال له خراساني: الحمد لله الذي رأيتك، قال: اقعد، أي شيءٍ ذا؟ من أنا؟ وعن رجل قال: رأيت أثر الغم في وجه أبي عبد الله، وقد أثنى عليه شخص، وقيل له: جزاك الله عن الإسلام خيراً! قال: بل جزى الله الإسلام عني خيراً! من أنا وما أنا؟)[7].

وقال إسماعيل بن إسحاق الثقفي: (قلت لأبي عبدالله أوَّلَ ما رأيته: ائذن لي أُقبِّل رأسك، فقال: لم أبلغ أنا ذلك)[8].

وكان ابن القيم يقول:

بُنَيَّ أبي بكرٍ كثيرٌ ذُنُوبُهُ
فَلَيْسَ عَلَى مَنْ نَالَ مِنْ عِرْضِهِ إِثْمُ
بُنَيَّ أبي بكر جَهُولٌ بِنَفْسِهِ
جَهُولٌ بِأَمْرِ الله، أَنَّى له العِلْمُ
بُنَيَّ أبي بكر غدا مُتَصَدِّرَاً
يُعَلِّمُ عِلْمَاً وَهُو لَيْسَ لَهُ عِلْمُ
بُنَيَّ أبي بكر غَدَا مُتَمَنِّيَاً
وِصَالَ الْمَعَالِي وَالذُّنُوبُ له هَمُّ[9]

وقد حدثني فضيلة شيخنا العالم العابد عبد العزيز العقل - متَّعه الله بالصحة والعافية - أنه لمَّا كان مدرساً في جامعة الإمام محمد بن سعود (فرع القصيم) شرح لطلابه حديث: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[10].

قال الشيخ: فوقع في نفسي سؤالٌ، هو: مَنْ مجدد هذا العصر؟

واستبهم عليَّ تعيين المجَدِّد، وانصرفت من الكلية، وأنا أُعْمِل رأيي في هذا السؤال، فلم أجزم فيه بشيء، فنمت بعد الظهر، فرأيت في المنام سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز جالساً متربعاً مستقبل القبلة، فأقبلت عليه؛ فعانقته وقبَّلته وإذا بي أسمع صوتاً لا أرى صاحبه يقول: هذا مجدد هذا العصر.

قال الشيخ عبد العزيز العقل: فاستيقظت من النوم مسروراً! وبعد أيام ذهبت إلى الرياض، وزرت الشيخ ابن باز، وبشرته بالرؤيا التي رأيت، فتشاغل عنها ولم يحفل بها.

(١) أخرجه البخاري: (٨٣٤) ومسلم: (٢٠٧٥).
(٢) مدارج السالكين: ١/ ٥٢٤، والقصيدة أطول من هذا؛ وقد تركتها اختصاراً.
(٣) سيَر أعلام النبلاء: ١١/ ٢١٤.
(٤) الورع للمروذي: ص٤٩٤.
(٥) الورع: ص ٦.
(٦) الورع: ص١٥٢.
(٧) السيَر: ١١/ ٢١١.
(٨) المناقب: ص٣٦٧.
(٩) الوافي بالوفيات: ٢/ ٢٧٢، والقصيدة أطول من هذا؛ وقد تركتها اختصاراً.
(١٠) أخرجه أبو داود: (٤٢٩١).

ثالثاً: أن يعلم العبد أنه متى أُعجب بنفسه فثَمَّ الخذلان، وضياع الشأن، وهذه حوادث تنْبئ بهذا:

الأولى: ذكرها الماوردي (أحد علماء الشافعية) عن نفسه، فقال: (ومما أنذرك به من حالي؛ أنني صنفت في البيوع كتاباً جمعت فيه ما استطعت من كُتُب الناس، وأجهدت فيه نفسي، وكددت فيه خاطري، حتى إذا تهذب واستكمل، وكدت أُعجب به، وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعاً بعلمه، حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان؛ فسألاني عن بيع عقداه في البادية، على شروط تضمنت أربع مسائل، لم أعرف لواحدة منها جواباً، فأطرقت مُنْكراً، وبحالي مُفَكِّراً، فقالا: ما عندك فيما سألناك جواب، وأنت زعيم هذه الجماعة؟ فقلت: لا. فقالا: واهاً لك! وانصرفا، ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي، فسألاه، فأجابهما مسرعاً بما أقنعهما، وانصرفا عنه راضيين بجوابه، حامدَين لعلمه، فبقيت مرتبكاً، وبحالهما وحالي معتبراً، فكان ذلك زاجر نصيحة، ونذير عظة؛ تَذلَّلَ بهما قيادُ النفس، وانخفض لهما جناحُ العجب، توفيقاً مُنِحتُه، ورشداً أُوتيتُه...)[1] إلخ ما قال رحمه الله!

الثانية: ذكرها الجاحظ، فقال: (كان لنا بالبَصرة قاضٍ يقال له: عبدُ الله بنُ سوَّار، لم يَرَ النَّاسُ حاكماً قطُّ، ولا زِمِّيتاً[2]، ولا رَكيناً[3]، ولا وقوراً حليماً؛ ضَبطَ من نفسه، وملَك من حركته مثلَ الذي ضبَط وملَك، كان يصلِّي الغداةَ، فيأتي مجلسَه، فيحتبي ولا يتَّكئ، فلا يزالُ منتصباً، ولا يتحرَّك له عضوٌ، ولا يلتفت، ولا يحلُّ حَبْوَته، ولا يحوِّل رِجلاً عن رِجل، ولا يَعتمد على أحد شِقَّيه، حَتَّى كأنّه بناءٌ مبنيٌّ، أو صخرةٌ منصوبة؛ فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر، ثم يعودُ إلى مجلسه؛ فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر، ثمَّ يرجع لمجلسه؛ فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب، ثمَّ رُبما عاد إلى محَلِّه، بل كثيراً ما كان يكون ذلك، إذا بقي عليه من قراءة العهود والشُّروط والوثائق، ثمَّ يُصلِّي العشاء الأخيرة وينصَرف، فالحق يقال: لَمْ يَقمْ في طول تلك المدَّةِ والوِلايةِ مَرَّةً واحدةً إلى الوضوء، ولا احتاجَ إليه ولا شربَ ماءً ولا غيرَه من الشراب، كذلك كان شأنُه في طِوال الأيام، وفي قِصارها، وفي صيفها، وفي شتائها، وكان مع ذلك لا يحرِّك يدَه، ولا يُشيرُ برأسِه، وليس إلاَّ أن يتكلم، ثمَّ يوجز، ويَبلُغ بالكلام اليسيرِ المعانيَ الكثيرة، فبينا هو كذلك ذاتَ يوم، وأصحابه حواليه، وفي السِّماطين بينَ يديه، إذْ سقَطَ على أنفِه ذُبَابٌ، فأطال المكث، ثمَّ تحوَّل إلى مُوقِ عينه، فرام الصَّبر في سقوطه عَلَى الموق، وعلى عضِّه، ونفاذِ خرطومه، كما رَام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرِّك أرنبَته، أو يغض وجهَهُ، أو يذبَّ بإصبعه، فلمَّا طال ذلك عليه من الذبَاب، وشغَله وأوجعَه وأحرَقهُ وقصدَ إلى مكان لا يحتمل التغافُلَ، أطبَق جفنَهُ الأعْلى عَلَى جفنِه الأسفلِ، فلم ينهض فدعاه ذلك إلى أن وَالى بينَ الإطباقِ والفتْح، فتنحَّى ريثما سكنَ جفنُهُ، ثمَّ عاد إلى موقِه بأشدَّ من مرَّته الأولى، فَغَمَسَ خرطومهُ في مكان كان قد أوهاهُ قبلَ ذلك؛ فكان احتماله له أضعف، وعجزُه عن الصَّبر في الثانية أقوى، فحرَّك أجفانَهُ، وزاد في شدَّة الحركة، وفي فتح العين، وفي تتابُع الفتْح والإطباق؛ فتنحَّى عنهُ بقدْرِ ما سكَنَتْ حركَتهُ، ثمَّ عاد إلى موضعِه، فما زالَ يلحُّ عليه حتى استفرغَ صبْرَه، وبَلغَ مجهُوده؛ فلم يجدْ بُدّاً من أن يذبَّ عن عينيه بيده، ففعل وعيون القوم إليه ترمُقه، وكأنَّهم لا يَرَوْنَه، فتنَحَّى عنه بقدْر ما رَدَّ يدَه، وسكَنتْ حركته، ثمَّ عاد إلى موضعه، ثمَّ ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجْهه بطَرَف كمه، ثم ألجَأه إلى أنْ تابَعَ بين ذلك، وعلم أنَّ فِعلَه كلَّه بعين مَنْ حَضَره من أُمنائه وجلسائه، فلمَّا نظروا إليه قال: أشهد أنَّ الذّباب ألجُّ من الخنفساء، وأزهى من الغراب، وأستَغفر الله! فما أكثر مَن أعجبَتْه نفسُه، فأراد الله - عز وجل - أن يعرِّفه من ضعْفِه ما كان عنهُ مستوراً! وقد علمت أنِّي عند الناس مِنْ أزْمَتِ الناس، فقد غلَبَني وفَضَحَني أضعفُ خلْقِه ثمَّ تلا قولَهُ - تعالى -: ﴿ ...وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣][4].

الثالثة: قال عبيد بن شريك: (كان أبو معمر القطيعي من شدة إدلاله بالسُّنة يقول: لو تكلمت بغلتي لقالت: إنها سُنِّية. قال: فأُخذ في المحنة؛ فأجاب، فلما خرج، قال: كفرنا وخرجنا!)[5].

أسأل الله في ختام هذا المقال أن يُصلح لنا شأننا كلَّه، ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، كما أسأله أن يجنبنا منكرات الأخلاق والأهواء والأسواء والأدواء، وأن يقينا شر أنفسنا والشيطان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) أدب الدنيا والدين: ص ٨١.
(٢) قال في لسان العرب (٢ / ٣٥): (الزِّميتُ والزِّمِّيتُ الحليم الساكن القليل الكلام كالصِّمِّيت).
(٣) قال في لسان العرب (١٣ / ١٨٥): (ورجل رَكِين وَقُورٌ رَزِينٌ بَيِّنُ الرَّكانة، ويقال للرجل إذا كان ساكناً وقوراً: إنه لرَكِينٌ).
(٤) الحيوان: ٣/ ٣٤٣.
(٥) تهذيب الكمال: ٣/ ٢٠.

جَمْع الأصدقاء بدلاً من جَمْع التبرعات

إبراهيم بن سليمان الحيدري(*)
alhaidari5@hotmail.com

ولَّدت أهمية المال في عالم المنظمات الخيرية اهتماماً بالغاً بوسائل استقطابه وتنمية موارده، وترجمت كبرى المنظمات الخيرية وصغراها اهتمامها بالمال في تخصيص جزء من مواردها البشرية والمالية في تكوين وتطوير وحدات إدارية وبرامج متنوعة لجَمْع التبرعات. هذا الوضع قاد لدى بعض المنظمات الخيرية إلى تفشي ثقافة تجاه المال لا تختلف في طبيعتها عن ثقافة بعض الشركات التجارية التي تركز على تعظيم رأس المال وتنمية الأرباح، وأصبحت الأرقام لدى بعض القادة وجامعي التبرعات مؤشر نجاح.

الأرقام في حد ذاتها مؤشر مهم ولا شك؛ إلا أنه وحده لا يكفي ولا يعبِّر عن كل أوجه نجاح عمليات جَمْع التبرعات وتنمية الموارد المالية. والاهتمام بالأرقام فقط مؤشر على مادية العلاقة بين المنظمة الخيرية والمتبرع، هذه العلاقة التي من طبيعتها التركيز على جيب المتبرع ورصيده البنكي بدلاً من مراعاة حاجاته الخيرية والدوافع النبيلة التي تقف خلف رغبته بالتصدق.

إن من المهم جداً أن يستوعب القائمون على منظماتنا الخيرية وجامعو التبرعات أن لكل متبرع قِيَماً تقوده للتبرع وحاجات يبحث عن إشباعها من خلال تبرعاته، ونجاح المنظمة الخيرية في التعامل مع المتبرعين ينبغي ألا يتوقف عند كمية التبرعات التي تستقبلها منهم، بل على مدى تحقيق قيمهم وإشباع حاجاتهم.

لن تستطيع المنظمة الخيرية أن تصل إلى مرحلة إشباع حاجات المتبرعين وتحقيق رغباتهم الخيرية من خلال حفاوة مؤقتة بالمتبرع تنتهي بمغادرته، ما لم يكن هناك علاقة قوية ومستمرة يترجمها نظام متكامل يشعر المتبرع من خلاله أن دوافعه ورغباته محط عناية المنظمة وتقدير القائمين عليها.

المتبرع لن يكون هو الوحيد المستفيد من وجود علاقة قوية ومستمرة تربطه بالمنظمة الخيرية يُشبِع من خلالها دوافعه الخيرية، بل إن المنظمة ذاتها هي مستفيد رئيس من هذه العلاقة؛ فالمتبرع سيكون أكثر سخاءً ومداومة على التبرع وتقديم الدعم، وهذه العلاقة جديرة بأن تحوِّل المتبرع إلى نصير للمنظمة يدافع عنها وينشر أخبارها ويوصي الآخرين بدعمها والتبرع لها ليجلب متبرعين جدداً من غير عبء مالي على المنظمة الخيرية.

قد تمتلك المنظمة علاقات جيدة مع آحاد من المتبرعين إلا أن التحدي أن يكون بناء العلاقات نظاماً متكاملاً وثقافة تقود جامعي التبرعات ومسوِّقي البرامج والأنشطة.

إن تبني ثقافة جَمْع الأصدقاء ستجلب - لا محالة - مزيداً من التبرعات واستقراراً في الدعم؛ إلا أن ثقافة جَمْع التبرعات لا يعني بالضرورة أنها تقود إلى تكوين أصدقاء أوفياء للمنظمة، لا سيما عندما تزداد المنافسة، أو يقل المال بين أيدي الناس.

(*) ماجستير في الإدارة، وباحث في إدارة العمل الخيري.

قارئ الكتب

دار السلام
DARUSSALAM
دار السلام للنشر والتوزيع

اقرأ واستمع

القرآن الكريم كاملاً

بصوت الشيخ/ محمد صديق المنشاوي

مع تفسير الجلالين

٣٣٠ ريالاً

استمتع بقراءة كتب أخرى على نفس الجهاز

مميزات الجهاز:

- القراءة والاستماع للقرآن الكريم كاملاً.
- سهولة اختيار السورة والآية.
- إمكانية تحديد مجموعة من الآيات وتكرارها.
- إمكانية تسجيل الصوت لتسع مقاطع مختلفة.
- التحكم في سرعة التلاوة.
- إمكانية تغيير المادة العلمية بتغيير الشريط المصاحب.

متوفر للجهاز:

- كتاب رياض الصالحين كاملاً (صوتيًا)
  شريط مع الكتاب (٧٥ ريال)
- كتاب بلوغ المرام كاملاً (صوتيًا).
  شريط مع الكتاب (٧٥ ريال)
- القرآن الكريم مع ترجمة المعاني بالإنجليزية (صوتيًا)
  شريط مع الكتاب (٩٠ ريال)

الصيانة مجاناً

المكتب الرئيسي الرياض: ٤٠٣٣٩٦٢-٤٠٤٣٤٣٢ فاكس: ٤٠٢١٦٥٩ الفروع: العليا: ٤٦١٤٤٨٣ الملز: ٤٧٣٥٢٢٠ السويلم: ٢٨٦٠٤٢٢
مندوبون: ٠٥٠٥١٩٦٧٣٦ - ٠٥٠٣٤٥٩٦٩٥ - ٠٥٠٤٤٠٥٩٤٣ جدة: ٦٨٧٩٢٥٤ الخبر: ٨٦٩٢٩٠٠ المدينة المنورة: ٨٢٣٤٤٤٦ - ٠٤
خميس مشيط: ٠٥٠٠٧١٠٣٢٨ القصيم: ٠٥٠٣٤١٧١٥٦ ينبع البحر: ٠٥٠٠٨٨٧٣٤١ الشارقة: ٥٦٣٢٦٢٣ -٦-٠٠٩٧١
Website: www.dar-us-salam.com Email: darussalam@awalnet.net.sa

أمتنا: في تقدُّم أم تأخُّر؟

(٥)

د. عبد الكريم بكار
bakkar10@hotmail.com

في أيام ازدهار الحضارة الإسلامية كانت أمة الإسلام متفوقة على الأمم الأخرى في الجانب الأخلاقي والتشريعي والعمراني، وقد مكَّنها ذلك من أن تصوغ طموحات كثير من الأمم، وتوصِّف لها شروط العيش اللائق؛ وهذه سُنَّة مطردة: الأقوى والأعلم والأشد حداثة يشق طريق التقدم، ويمشي خلفه الآخرون، كما يمشي جيش جرار خلف قائد مظفَّر.

نحن اليوم نعاني من هذه الوضعية؛ فبما أننا لا نقود رَكْب الحضارة، بل لا نشارك في قيادته، فإننا لا نستطيع أن نتحكم في شؤوننا على النحو المطلوب، وإن الأساس الفكري والأخلاقي للاستقلال يكمن في التحكم في توجيه الطموحات والتطلعات، وفي صياغة المعايير والمرجعيات لِمَا هو مقبول وجيِّد وممتع ومطلوب، وما هو خطِر ورديء وسيئ، وإن من الملاحَظ اليوم بقوة: أن (العولمة) وضعت الناس في ما يشبه الخلَّاطة الكبيرة.

ووفَّر التقدم التقني درجة من الانفتاح والتواصل العالمي، لم يكن أذكى العقول قادراً على مجرد تخيُّلها، ونحن نعرف أنه حين يلتقي القوي بالضعيف والذي يصنع بالذي يستهلك... فإن اللقاء يكون في غالب الأمر لمصلحة القوي والمنتج، وهذا ما نلمسه اليوم على نحوٍ جليٍّ؛ حيث إن بريق الدول الصناعة يزداد قوة في عيون كثير من العرب والمسلمين، وصار التطلع إلى المحاكاة دون تمييز أقوى مما كان عليه الأمر قبل عشرين سنة أضعافاً مضاعفة، حتى إن بعض المثقفين ممن يقيمون الشعائر وصل بهم الافتتان بالغرب إلى درجة أنهم يتمنون أن يكون لدينا مثل ما لدى الغرب على كل صُعُد الحياة و في كل مجالاتها. صحيح أن هذا التمني ليس بالجديد، لكن الحقيقة أن الشريحة التي تعتقد بالاقتباس الواسع جداً من الغرب صارت أوسع من السابق بما لا يدع مجالاً للمقارنة، وهذا يشكِّل نقطة ضَعْف، وتأخُّر في وضعية أمتنا اليوم.

شيء ثانٍ أشعر أن أمتنا تتراجع على صعيده، هو الميل إلى الشكل والمظهر على حساب المضمون والجوهر؛ والحقيقة أن التقدم العمراني كان دائماً يجنح إلى الاهتمام بالمظهر على حساب الجوهر، وهذا ما نلاحظه اليوم. وتستطيع أن ترى هذا رأي العين في كل مكان، ولا أعتقد أن مهنة (هندسة الديكور) ازدهرت في أي مرحلة من مراحل تاريخنا كازدهارها اليوم، ونجد في المقابل نوعاً من الزهد في معانٍ وأخلاقيات تتصل بالجوهر واللباب، مثل: التقلل من متاع الدنيا والتواضع والإيثار وتنقية النفوس من عِلَلها وصَقْل القلوب والأرواح، وهذا كله بسبب التأثير الكبير الذي تتركه الحضارة المادية في ثقافتنا وسلوكياتنا اليومية.

الشيء السلبي الثالث الذي أودُّ الإشارة إليه: هو تفتُّح الوعي على المصلحة الشخصية، وهذا أيضاً من المفرزات السلبية للتقدم العمراني. تفتُّح الوعي هذا جعل الناس مشغولين إلى حد الهوس بتحقيق المزيد من المكاسب الخاصة

مع غَضِّ الطرْف عن طُرُق الكسب والتساهل في المحذورات الشـــرعية التي تحيط بها، كما أن حِـــسَّ الانتماء إلى الأمة قد تراجع، كما تراجع الاهتمام بالشـــأن العام والعمل على إصلاحه.

فـــي ختام هذه المقالات أودُّ أن أقـــول: إن الوضع العام للأمـــة اليوم – من غير النظر إلـــى التفاصيل – يُعدُّ أفضلَ بكثير مما كانت عليه قبل أربعمئة سنة ماضية، أما إذا قارنَّا وضْعَنا اليوم بما كان عليه الحال قبل عشـــرين ســـنة، فإننا ســـنجد أن بعض جوانب حياتنا يتقـــدم، وبعضها في حالة نكوص وتأخُّر، ولعلِّي أشير هنا إلى الآتي:

١ – سيظل قياســـنا لأوضاعنا تقريبياً بسبب عدم دقة المقاييس التي نســـتخدمها، وسيظل لدينا نوع من الاختلاف في ذلك.

٢ – من المهم جداً أن ننشئ الكثير من المؤسسات والأطر والأنشـــطة المهتمة برصد تحولات الواقع؛ حيث إننا نلاحظ أن الاهتمـــام بكثير من الأمور الجيـــدة آخذ في التآكل، كما نرى وجود الكثير من المبادرات الجيدة والخيرة، وإن الرصد المنهجـــي الاحترافي ســـيوفر لنا ما يســـاعدنا على وَضْع المشـــروعات الإصلاحية الجيدة، كما يساعدنا على تنظيم ردود أفعالنا على التطورات الجارية.

٣ – أنـــا أدعو كل من له قدرة علـــى فَهْم ما يجري في الواقع، وفَهْم العوامل المؤثرة في اتجاهاته، أن يدلي بدلوه في توعية الأمة وتنوير الرأي العام حتى لا ننجرف مع التيارات غير الرشيدة.

٤ – ســـيظل تحديد التعريفات والمفاهيم والمصطلحات الحضارية هو الشيء الذي يجب أن نبدأ به عند كل محاولة لفهـــم ما يحتاج منا إلى مناصرة وتعزيز، وفَهْم ما يحتاج إلى حذر ومقاومة.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

رؤيتنا: تسعى مؤسسة التراحم الطبية الخيرية-بعون الله تعالى- إلى أن تصبح مؤسســـة متميزة بخدماتها الخـــيرية في المجال الطبي ذات إمكانيات متطورة وفعالة تقـوم بمـد يد العـون إلـى المـريض الفقير حيثما يـــكون في شتى ربـوع اليمـــن .

مجالات عملنا: إقـامة حمـلات التـراحـم الطبيـة الخـيرية لمكافحة مرضي البلهارسيا والملاريا .

فتح العيادات الخيرية في القـــرى .

توزيع الصيدليات الخيرية للإسعافات الأولية .

إقامة الندوات والدورات الطبية التخصصية .

إقامة حمـلات التوعيـــة والتثقيف الصحي .

لنزع البسمة

مؤسسة التراحم الطبية الخيرية

MERCY MEDICAL FOUNDATION

تصريح رقم (٦٠) وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل

يداً بيد

للعناية بالمرضى الفقراء

00967771110959 الأكملي للتصميم

www.medmercy.org

الجمهورية اليمنية – صنعاء – عصِر – تلفاكس : ٤٦٦٨٦٥ ٩٦٧١+ سيار : ٩٦٧٧٧٧٧٩٤٠٩٣+

رقم الحساب لدى بنك التضامن الإسلامي الدولي وبنك سبأ الإسلامي (٢٧١٠٠) tme@yemen.net.ye

حوار

د. خليل الحية: المخرج للواقع الفلسطيني.. استئناف المقاومة

محمد الصواف، غزة – الجيل للصحافة

الدكتور خليل الحية عضو المكتب السياسي لحركة حماس في حوار مع البيان.

– المطلوب أن تُطلَق يد المقاومة على أوسع نطاق، وأن ترعى من الدول العربية والإسلامية.

– الديمقراطية مذبوحة في عالمنا بالفيتو الأمريكي، والإدارة القمعية للنظام العالمي الجديد.

– لا أستبعد أن يُقدم محمود عباس على إجراء انتخابات في الضفة الغربية.

– السيناريو الأقرب من قِبَل حماس أن تقاطع الانتخابات، وتدعو لمقاطعاتها، وتمنعها في غزة.

رأى الدكتور (خليل الحية) عضو المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) أن المخرج الوحيد للواقع الفلسطيني أن يمارس الشعب الفلسطيني قناعته الحقيقة باستئناف المقاومة على أوسع نطاق في كل الميادين وفي كل الأصعدة، مؤكداً على أن حركة حماس هي أقل الأطراف أزمة؛ فخياراتها كلها مفتوحة، على صعيد المقاومة، والتعاطي السياسي.

ولم يستبعد الحية أن يُقْدم رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس على إجراء انتخابات تشريعية ورئاسية في الضفة الغربية؛ لأنه يتكئ على مواقف الأمريكان، والاحتلال، وبعض دول الإقليم، متوقعاً عدة سيناريوهات ممكن أن تُقْدم عليها حماس، أقربها: أن تقاطع الانتخابات، وتدعو إلى مقاطعاتها، وأن تمنعها في غزة.

البيان: هل تتوقعون أن يُقْدم رئيس السلطة الفلسطينية على إجراء انتخابات في الضفة الغربية وَفْقاً لما أعلن عنه في المرسوم؟

■ بدايةً أتمنى أن تحصل المصالحة، وأن نتجاوز هذه الأزمة المتراكمة منذ سنوات، بلا شك إعلان محمود عباس، المنتهية ولايته للمرسوم الرئاسي لتحديد موعد الانتخابات، وخروجه على ما جرى التوقيع عليه من مشروع الاتفاق شكَّل إضافة لتأزيم الموقف (الفلسطيني، الفلسطيني) وأَخْذ الأمور بعيداً، لذلك ما أتمناه أن تهيَّئ الأجواء للمصالحة الفلسطينية، وأن نذهب للانتخابات بعد تهيؤ الظروف لها في الموعد الذي اقترحته الشقيقة مصر في مشروع الاتفاق، وهو ٢٠١٠/٦/٢٨ وهذا هو المفضل، ولكن إذا لم يحصل ذلك، وآمل ألا يحدث ذلك، فإنني أعتقد أن محمود عباس دائماً يهرب إلى الأمام، ولا يضيره كل الإشكاليات في الشأن (الفلسطيني، الفلسطيني) إذ يمكن أن يفعل محمود عباس ذلك، ولا يضيره أن ينقسم الشعب الفلسطيني؛ لأن سلطة محمود عباس يتكئ فيها إلى مواقف الاحتلال والأمريكان

وبعض دول المنطقة حتى يقول: أنا الرئيس الفلسطيني؛ لذلك أنا لا أستبعد أن يفعلها محمود عباس.

البيان: في حال أجريت هذه الانتخابات في الضفة الغربية في ٢٠١٠/١/٢٥، ماذا أنتم فاعلون؟

■ هذا استباق لتحديد الموقف في حينه، لكن أنا أتوقع سيناريوهات متعددة أُرجِّح اثنين منها:

الأول: الذي أتوقع أن تفعله حماس، وحتى الآن لم يُتخَذ فيه قرار: أن تقاطع الانتخابات، وتدعو لمقاطعاتها، وأن تمنعها في غزة، وهذا حق لها؛ فإجراء انتخابات تحت حراب الاحتلال لا يوجد ضمانة لنزاهتها، والحركة ملاحقة، والشعب الفلسطيني مجوَّع، ولا إعمار... لا أتوقع أن تشارك حركة بثقل حماس في انتخابات هي متأكدة من تزويرها ونتائجها المسبقة.

الثاني: أن تترك حماس محمود عباس يفعل ما يريد وترفع الشرعية عن هذا الأمر، ولا تعترف بنتائج المجلس التشريعي، ولا تتعامل معه: لا في غزة ولا في الضفة الغربية، وتعتبر كل من شارك في هذه الانتخابات غير شرعي، وهو ما يُدخل في إشكاليات. هذه أكثر السيناريوهات التي من الممكن أن تندفع فيها حركة حماس، وتتعامل معها.

البيان: هل تعتقد في ظل هذا المفهوم، أن يبقى هناك ما يسمى بـ (الديمقراطية)؟

■ الديمقراطية مذبوحة في عالمنا بالفيتو الأمريكي والإدارة القمعية للنظام العالمي الجديد وَفْقَ هذه الأنظمة الموجودة: أين هذه الديمقراطية اليوم؟ أين الديمقراطية واحترامها بعد انتخابات ٢٠٠٦؟ أين الديمقراطية واحترامها بشأن رئيس مجلس تشريعي يعتقله الاحتلال، وعندما يخرج تمنعه الأجهزة الأمنية للأسف الشديد؟ أين هي الديمقراطية عندما يأخذ رئيس السلطة بقلمه، ويعطل الدستور بلا وجه حق؟ أين هي الديمقراطية عندما يشكل محمود عباس حكومة، ولا تأخذ الشرعية من المجلس التشريعي؟ الديمقراطية نبحث عنها اليوم في كل مكان فلا نجدها إلا اسماً، وبناءً على ذلك أنت مضطر إلى أن تتعامل مع هذه الديمقراطية العرجاء بما يُثبت مكانتك في هذا الوطن، ولكن ما نريده حقاً: هو التأكيد على ممارسة الديمقراطية بشكل صحيح، واحترامها والتداول السلمي على السلطة، والمشاركة السياسية الحقيقية، نحن نتساءل كسياسيين وغير ذلك: هل هذا متاح اليوم؟ هذا غير متاح في هذا العالم، ويبدو أن أمريكيا التي رفعت شعار الديمقراطية تراجعت عن هذا الشعار عندما وجدت أن الذين يتقدمون للديمقراطية وتنتخبهم شعوبهم هم من يعارضون التوجه الأمريكي المناقض لمصالح الشعوب.

البيان: انتخابات في الضفة، ولا انتخابات في غزة، أين الشعب الفلسطيني من هذا كلّه؟

■ هذه نتيجة طبيعية لسلطة تحت الاحتلال، وهذه نتيجة طبيعية لشعب يناضل الاحتلال ويريد أن يأخذ شرعيته من الاحتلال! إنها لعنة أوسلو التي أصيب بها الشعب الفلسطيني، ومصيبة أوسلو اليوم يتجرعها الجميع؛ فرغم أن أوسلو داستها الدبابات عام ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ في الضفة الغربية، وحطمتها إسرائيل في حرب الفرقان على قطاع غزة؛ إلا أن هناك من يتمسك بها رغم أن مسيرة التسوية وصلت إلى طريق مسدود.

محمود عباس نفسه قبل أيام يقول في تصريح له: إننا وصلنا إلى ما يشبه الطريق المسدود والمفوضات لم تُسفِر عن شيء. واليوم يصرون على ممارسة المفاوضات، إذاً هذا الواقع والمشهد الفلسطيني الحقيقي، لذلك لا بد أن تعكف مؤسساتنا الإدارية على حماية واقعنا الداخلي وتوفير مستلزمات، ومتطلبات حياة شعب يريد أن يقاوم الاحتلال وأن تُطلَق يد المقاومة الحقيقة وأن تُرعى من دول الطوق ودول الإقليم؛ لذلك نحن نقول لكل من طبل وزمر، وهلال واستبشر بمسيرة التسوية ودول التسوية: أين وصل المشروع اليوم؟ أين وصلنا اليوم؟ وأين حقوقنا اليوم؟ أين مسيرة الاعتدال والتسوية؟ أين العرب والفلسطينيون؟

أنا أقول: المرشح الحقيقي لواقعنا لفلسطيني، هو أن يمتشق الشعب الفلسطيني دمه وأشلاءه، وأن يواصل قناعته الحقيقة التاريخية باستئناف المقاومة على أوسع نطاق في كل الميادين والأصعدة؛ فإن الذي سينقذ الشعب الفلسطيني من هذا السجال أن تنطلق المقاومة بشكل قوي، وأن تُرعى من دول الطوق والإقليم، والأمة العربية مدعوة لذلك؛ حينها فقط تتغير المعادلة. أما أن ندخل كلنا في نفق التسوية واللعبة الديمقراطية، والاحتلال ماضٍ بسياساته لتهويد القدس والاستيطان والجدار والاعتداء على حق العودة وغير ذلك، فهذا أمر بعيد.

اليـــوم أصبح المواطن الفلســـطيني بعيـــداً عنا كنخب فلسطينية وقيادات سياسية للشـــعب فلسطيني خاصة في مســـار المقاومة وخيار المقاومة، إن أي مواطن فلسطيني من حقه أن يســـأل: أين ذهبت حقوقنا، وثوابتنا الفلســـطينية؟ ولذلـك فـإن الحـامي لكل ثوابتنـا الفلســـطينية بعد اللـه – سبحانه وتعالى – الشعب الفلسطيني والمقاومة.

البيان: إذاً: لماذا لم تنطلق المقاومة في ظل هذا العدوان الكبير: سـواء على القدس أو على الشعب الفلسطيني؛ والا قـد يصدق فيكـم قول القائلـين: إنكم تحاربـون المقاومة وتمنعونها، وتقدمون تهدئة مجانية للاحتلال، كما تحدث عباس مؤخراً ؟

■ المقاومة تحتاج إلى ظروف وبيئة مناسبة لها ولا تحتاج للمطـــاردة. دعنا نتحدث عن المقاومة فـــي الضفة الغربية؛ حيـــث الاحتلال الحقيقي: حتى ما يســـمى بالقانون الدولي يؤكد على حقنا فـــي أن نقاوم الاحتلال في حدود الأراضي المحتلـــة عام ١٩٦٧، وهذا لا خلاف عليـــه في كل القوانين، وبناءً على ذلك انظر إلى هذا الموقف الذي اتخذته إســـبانيا منـــذ مدَّة، إنها طردت جامعـــة صهيونية؛ لأن هذه الجامعة (جامعـــة أرئيل) موجودة في الضفة الغربية في مســـتعمرة، إذاً العالـــم معنا في مقاومة الاحتـــلال، ولكن هذا الاحتلال الموجود فـــي الضفة الغربية وقطاع غزة، في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧. طبعاً أرضنا كل فلسطين، وحقنا أن نقاوم المحتل، حيثما كان، لكن أريد أن أناقش هنا في مفهوم من يقول: إن المقاومة حق، وتقرير غولدســـتون الذي أكد على هذا، وقال: إن المقاومة كانت تدافع عن نفسها.

أنـــا أقول اليوم: أيـــن هي المقاومة التـــي تُلاحَق ويُزج أبناؤها في السجون والمعتقلات بلا استثناء (حماس، الجهاد، الجبهة الشـــعبية، وما تبقـــى مـــن حركة فتح من المقـــاومين والمنـــاضلين) ؟ كلهم يُزَجون في الســـجون، وللأسف الشديد يخرج بعـــض أبواق فتح ويســـأل: أين المقاومـــة ؟ أنتم من حبستموها، أنتم قاتلتموها، أنتم طاردتموها، أنتم من قتلتم أناساً لهم سنوات طِوَال مطارَدين من الاحتلال، من اعتقلهم؟ من قتلهم في نهاية المطاف؟ ولذلك نحن نتحدث عن مقاومة مطارَدة مكبوتة، ليس من الاحتلال فحسب، بل من الاحتلال، وما يســـمى بأجهزة دايتون التي تتحدث الفلسطينية؛ أجهزة الأمن اليوم تطارد المقاومة.

كيف ســـنجد المقاومة، وهي ملاحقة في كل بيت؟ كيف ســـنجد المقاومة والأجهزة في الضفة الغربية اســـتطاعت أن تدخل لأطفال فلســـطين في الضفـــة الغربية، وتجندهم كمخبرين؟ تصور أن الأجهزة جندت الأطفال (١٢ و ١٣) سنة مخبرين لهم ليدلوهم على أي مقاوم؛ فأين المقاومة؟

هذا في الضفـــة الغربية طبعاً والواقـــع في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ ليس أحســـن حالاً؛ فإذا كان الفلسطيني يطارد المقاومة، والأســـوأ مـــن ذلك أنه لايطـــارد المقاومة المســـلحة فقط؛ ففـــي أيام حرب غزة خرجـــت المظاهرات في كل العالـــم، لكننا لم نجد مظاهرات في الضفة الغربية، وللآســـف الشديد أيضاً ما جُمِعَ من تبرعات سُرِق، والأدهى أنه لم تخرج مظاهرة واحدة في الضفة الغربية، والمظاهرات تخرج في أراضي ١٩٤٨؛ ذلك أن الشـــعب الفلسطيني تحت ســـلطة قمعية فلسطينية أشد من الاحتلال. من الغريب أنه أيام حرب غزة خرجت مظاهرات في قرى فلســـطينية تحت الاحتلال، لكنها لم تســـتطع مظاهرة واحـــدة أن تخرج في مناطق السلطة الفلسطينية.

نأتي إلى غزة: في غـــزة يجب أن نتحدث بموضوعية: إننا نريـــد أن نُحْدث نكاية في العدو الذي يفعل في القدس ما يفعل، كيف ســـنصل إليه وأمامنا حـــدود وغير ذلك؟ ثم إننـــا خرجنا من حرب ضروس، ما زلنا نرمِّم جراحاتنا حتى الآن، والاحتلال قد كف يـــده عنا ومع ذلك يتعرض من هنا وهنـــاك؛ لذلك ندافع عن أنفســـنا في أي لحظة، أي لحظة يدخل الاحتلال أو جنوده أو مستعربيه داخل الخط الأخضر، المقاومـــة ترد وتنال منه وتواجه بكل قوة، لكن أنت الآن أمام خيارات صعبة: نحن توافقنا مع الفصائل الفلســـطينية بعد الحـــرب على غزة، وســـألنا هذا الســـؤال لإخواننا في كل الفصائل: هل أنتم ترون أننا في غزة يمكن أن نبادر الاحتلال بمقاومة في هذه المرحلة، فكان الإجماع من كل الفصائل أنه ليس من مصلحتنا كمقاومة فلسطينية أن نواجه الاحتلال في هذه المرحلة؛ لأننا خرجنا من حرب نريد أن نكفكف جراحات الناس، و نبني بيوتهـــم المدمـــرة، حتـــى يلملموا جراحاتهـــم، ولا نريد أن نستدعي حرباً جديدة، وبناءً على ذلك بينا وبين كل إخواننـــا في الفصائل تفاهم على أن ندافع عن أنفســـنا في غزة أمـــام أي عدوان علينا، ولا يعنـــي ذلك أننا أوقفنا المقاومة، نحن أوقفنا المقاومة بدون أن تكون علينا حرب في ٢٠٠٥ لمحمود عباس سنة كاملة، وقبله في ٢٠٠٣ أعطينا له أيضـــاً، ولذلك تقدير الموقف من كل الفصائل الفلســـطينية

هو: أننا في غـــزة نرى أن المصلحة الوطنية أن نكف أيدينا، والمقاومة تعتبر نفسها جيشـــاً جراراً يواجه الاحتلال، نحن مقاومة تستنزف الاحتلال تؤذيه حتى تبقى شوكة في حلقة، تســـتنزفه حتى يُقر بحقوقنا ويرحل عن أرضنا؛ ولذلك فإن المقاومة تخضع لتقديرنا السياسي والأمني مع كل الفصائل هنا في غزة، وقناعتنا أننا في هذه المرحلة يســـعنا أن ندافع عن أنفســـنا أمام أي أعتداء ولا نبادر الاحتلال، هذا الموقف الذي أخذناه، ومن هنا أقول: حماس ليست منفردة في هذا الـــرأي، حماس اجتمعت بالفصائل وخرجـــت بهذا، ولذلك نحن كإجماع وطني لانرى المقاومة في غزة تحقق لنا مكسباً فـــي هذه المرحلة، والمقاومة ليســـت بندقية تطلق الرصاص بدون هدف، نحن نقاوم لنحقق هدف طرد الاحتلال وإزعاج الاحتلال ليُقر بحقوقنا ويرحل عن أرضنا.

البيان: هنـــاك مـــن يـــرى أن إصـــدار عبـــاس للمرســـوم المقصود به الضغط على حماس كان بطلب مصر للموافقة على الوثيقة المصرية، ما قولكم في ذلك؟

■ إصدار محمود عباس هذا المرسوم يأتي في إطارين:

الإطار الأول: وسيلة ضغط؛ فهو ربما قد يكون قد أخذ الضوء الأخضر، وهكذا يدعي الإخوة في مصر، وهو يقول: إن مصر متفهمة هذا الموقف. وأنا أتمنى من الشقيقة مصر أن تقول موقفها بشكل واضح.

الإطارالثانـــي: محمود عباس يعتبر نفســـه ما زال رئيساً للســـلطة الفلســـطينية، ونحن فهِّمْنا للقانون أن محمود عبـــاس انتهت ولايته من ٢٠٠٩/١/٩ وبناءً على ذلك هو في حكم القوانين والدستور ليس رئيس السلطة الفلســـطينية، لكن عندنا في القانون بشكل واضح لا بد مـــن الدعوة لانتخابات لهذا الموضـــوع، ومحمود عباس يتخـــذ هذا ذريعة قانونية للإعلان عن المرســـوم، ولكن تســـاؤلاً كبيراً يوجَّه لمحمود عباس بعيداً عن الســـجال القانوني: الذي أنا مؤمن بـــه أن محمود عباس منتهية ولايته من ٢٠٠٩/١/٩ ولم يعد رئيساً؛ فكيف يتصرف وكأن شـــيئاً لم يكن؟ صـــرَّح لنا قيادات فـــي فتح أنه: صحيـــح انتهت ولايته، لكن لا يجوز أن يكون هناك فراغ دستوري!

واليوم كان علـــى محمود عباس أن يخطو خطوة أفضل مـــن ذلك لو كان رجلاً تصالحياً، لـــو كان رجلاً يريد وحدة الشعب، ويريد أن يتعامل مع حماس، ويريد أن يوقِّع الاتفاق،

لقال لمصر: (لاحقوا العيَّار لباب الدار) اســـمعوا من حماس، وانظروا ماذا تريد حماس، احشـــروا حمـــاس في الزاوية، أليس يدَّعي أننا نرفض التوقيع؟ طيب احشرونا في الزاوية، وناقشـــونا في ما نقول؛ فإن كنا مصيبـــين افعلوا، وإن كنا مخطئـــين اضربوا فينا عرض الحائـــط وجربونا، وأنا أذكِّر محمود عباس قبل اتفاق مكـــة، ونحن في اتفاق مكة، وبعد ما عدنا، بكلمة قالها مراراً، قال: أنا أشـــهد أن حماس ليس عليهـــا وصاية من أي جهة، قال ذلـــك بكل وضوح، قاله في مكة وعندما التقى بالأخ أبي الوليد في الشام وتوافقوا على المواقف، ودعا الملك عبد الله الدعوة؛ فذهبنا مباشـــرة دون وصايـــة من أحد، حينها قال محمود عباس: أدركت اليوم أن حماس ليـــس عليها وصاية من أحـــد، وحماس قرارها في يدها.

ما الذي غير محمود عباس؟ ما الذي غير حماس؟ حماس هي هي، لكن هذه الفزاعة ربما تعني الإسقاط النفســـي؛ فهم لا يفعلون فعلاً إلا ويتكئون فيه على فئة من خارج الشـــعب الفلسطيني، من هنا وهناك، عربية أو أجنبيـــة واحتلالية أوغير ذلـــك. نحن في حماس مقتنعـــون، ومؤمنـــون أن قرارنا بيدنـــا، وأننا اندفعنا للمصالحـــة، ولذلك لو أراد محمـــود عباس المصالحة لفَعَل أمراً أخر، وبناءً على ذلك هي وسيلة ضغط، وقد يكـــون كما قلت : إذا لم تحـــدث المصالحة، وأتمنى أن تحدث، ربما يذهب محمود عباس لتطبيق هذا المرسوم ولا يضيره أن ينقســـم الوطن ولا غير ذلك، وبالمناسبة مـــا لدينا من المعلومات تفيد بأنه يجد تشـــجيعاً دولياً على ذلك.

البيان: في زيارتكـم الأخيرة مع الأسـتاذ خالد مشـعل لمصـر توافقتم علـى عنوانَين رئيسـيَين في المصالحة في الورقـة المصرية، وعندما كانـت صياغتها في يد مصرية

أصبح لديكم تحفظات، ما الذي تغيَّر؟ ما هذه التحفظات التي تتحدثون عنها؟ ولماذا تراجعتم عن توقع الوثيقة؟

■ لا بد من الحديث بموضوعية متناهية في هذا الموضوع: ما جرى الاتفاق عليه مع الإخوة المصرين في اللقاء الأخير بعد عيد الفطر هو تحديد المواعيد. حينها قال الوزير عمر سليمان: لن يخرج المشروع الذي سنعِدُّه للمصالحة عما جرى الاتفاق عليه بينكم وبين الفصائل، وهذه الورقة الأخيرة.

ونحن نصحنا الإخوة المصرين العاملين مع الوزير عمر سليمان أن يقدموا مشروع المصالحة بما اتُفق عليه فقط، لا يزيد ولا ينقص، ويقدموا مقدمة لهذا الموضوع؛ فرحبوا بالفكرة وتمت صياغته. وللحق والعدل والإنصاف أقول: إن الوثيقة المصرية ومشروع الوفاق الوطني جيدة جداً، وهو ما جرى الاتفاق عليه في لجان المصالحة الخمسة، ولكن سقطت بعض العبارات كان قد اتُفق عليها، وأضيفت بعض الجمل في بعض المواضع اجتهاداً من الإخوة المصريين، ولذلك نحن لم نشأ في البداية أن نقول: سقطت، ولا: أضيفت، فقلنا للإخوة المصريين: عندنا بعض الملاحظات: اتفقنا وإياكم على أن يكون الاتفاق هو ما اتُفق عليه، ويبدو أنه سقط سهواً منكم بعض الجمل فيحتاج ذلك لمراجعة.

كنا نتوقع أن هذه المسألة لن تؤثر عند الإخوة المصرين؛ لأننا لا نريد أن نضيف شيئاً من عندنا، قلنا لهم: نريد أن نقارن هذه الورقة بالتي أنتم أعطيتمونا إياها نحن والفصائل، قالوا هذا الموجود، ولا نريد أن نزيد حرفاً أو ننقص.

أنا شخصياً لا أجد مبرراً لهذا التعنت وهذا الجمود المصري على رفض السماع منا لهذا، ما الدافع، لماذا؟ لا أدري، إننا لا نتكلم على ملاحظات عامة. نحن نتكلم عن مقارنة فقط بين ما جرى الاتفاق عليه وما هو موجود، وسنجده في أربع أو خمس عبارات أضيفت أو سقطت أو غيره، نحن لا نتحدث عن إضافة بنود ولا عن شيء، نحن نتحدث عن عبارات أضيفت أو سقطت، لذلك نحن مصرُّون على أنه من حقنا الطبيعي الاطمئنان على شيء تحدثنا فيه نحن والفصائل، حتى لا تلومنا الفصائل على شيء وقَّعنا عليه، وهنا أستغرب من بعض الفصائل التي تسلمت مثلنا الورقة المصرية التي وافقنا عليها، هم يقولون: إنهم لم يتسلموا الورقة المصرية حتى يتحدثوا عنها؛ لأن هناك عبارات أضافتها بعض هذه الفصائل سقطت؛ فلماذا سقطت؟ ولذلك ما زلت مقتنعاً بأن على إخواننا المصريين أن يأخذوا هذه العبارات وأن يرجعوها وينتهي الموضوع، وليضعوا حماس في الزاوية، ويروا: هل حماس قرارها بيدها أم بيد غيرها، ضعونا في الزاوية، واحشرونا، وعدِّلوا هذه العبارات البسيطة، والتي لا أعتبر أنها تستحق كل هذه الضجة، هذا ما تأخر بالموضوع، أولاً كان موضوع غولدستون، وانتهى غولدستون وبقي في التاريخ سُبَّة وثُلْمة، ووصمة عار على جبين من عطَّله. القرار الفلسطيني كيف يُتّخذ وليسوا أمناء على ذلك؟ والآن الشعب الفلسطيني انتصر بجراحاته وآلامه وتم إقرار التقرير. الآن ما يعيقنا فقط هذه الممانعة من أشقائنا المصريين، الذين بذلوا جهداً كبيراً واحتضنوا الفصائل الفلسطينية على مدار شهور طويلة وهم يسمعون منا، لكن لماذا ضاقت الصدور ذرعاً بذلك؟ ربما هي جُمَل بسيطة سقطت، ولكن رغم أنها بسيطة إلا أن لها أثراً كبيراً.

البيان: هل مسموح الإفصاح عن بعض هذه الجمل ؟

■ أنا أريد أن أتحدث عن جملة واحدة فقط، وقِس عليها باقي الجمل، وهذه للتاريخ، حتى نحفظَ للناس حقوقهم، عندما تحدثنا عن منظمة التحرير الفلسطينية، وتحدثنا عن الإطار المؤقت الفلسطيني الذي سيرأسه محمود عباس بصفته رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، وستكون معه كل الفصائل الفلسطينية حتى غير المنضوية تحت رئاسة منظمة التحرير مع رئاسة المجلس الوطني، حينها كان هناك سجال كبير، فأضافت الجبهة الشعبية جملة وتم إقرارها. تقول: هذا الإطار توصياته وقراراته لا تقبل التعطيل ولا التأجيل من أي جهة كانت؛ لأنها إجماع وطنيٌ جرى التوافق عليها. هذه الجملة سقطت من موضوع منظمة التحرير الفلسطينية، هذه الجملة التي وافقنا على إضافتها إلى هذا الإطار. انظر إلى أهميتها عندما تسقط هذه الجملة؛ فهذا الإطار الذي تحدثنا عنه سيكون مرجعية وإطاراً مؤقتاً للشعب الفلسطيني دون إنقاص مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية حقها، هذا الإطار الذي سيجتمع لأول مرة في تاريخ الشعب الفلسطيني برئاسة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، سيتحدث عن القضايا المفصلية والإستراتيجية للشعب الفلسطيني؛ فإذا أنت جعلت لقاء هذا الإطار لقاءً تشاورياً ليس ملزماً، فكأن شيئاً لم يحدث؛ فأهم شيء في

هذا الإطار أنك شطبت الجملة التي تجعل قرارات هذا الإطار قرارات ضرورية وملزمة ولا يجوز تعطيلها؛ فعندما تشطبها كأنك قلت: إن هذا الإطار كله لم يعد قائماً، وللحق أقول: إن هذا الإطار يصب في مصلحة منظمة التحرير الفلسطينية والشعب الفلسطيني والفصائل، ويمكننا القول: هو أفضل ما يحققه محمود عباس في كل المصالحة الفلسطينية؛ أقصد: لو نظر محمود عباس بعينين منصفتين، لرأى أن الإطار القيادي يعطيه من المكانة ما لم يتحقق لأبي عمار نفسه؛ لذلك قلت: إن محمود عباس رجل غير تصالحي، وللأسف الشديد دائماً يفر إلى الأمام ولا يستطيع أن يواجه الأمور على حقيقتها ولا يتسع صدره للجميع.

هذه واحدة من الجمل، فما الذي سيضير الأخوة المصريين لو عادت هذه الجمل في موضعها؟ وما الذي سيضير الفصائل وحركة فتح وهي من وافقت على هذه الورقة؟ وكنت أتمنى على الجبهة الشعبية نفسها التي اطلعت على الورقة في وسائل الإعلام أن تقول: هذه الجملة التي أضفناها سقطت ونحن نطالب بوضعها. وكذلك جُمَل من هذا النوع. ومع ذلك أقول: هذه الجمل لها أهميتها ونحن نطالب أن تعود وعلى الإخوة المصريين ألا يذهبوا بعيداً بها ونحن جاهزون للتوقيع مع تعديل هذه العبارات من الآن.

البيان: لكن بعد أن وثقتكم بالجانب المصري، وتركتم له صياغة الورقة، ألا تشعرون الآن أنكم تعرضتم لخدعة؟

■ ليس بهذا المعنى، وإنما نعتقد أن الإخوة المصريين عندما تركنا لهم تقديم مشروع الوفاق الوطني، لم يتقصدوا تجاوز تلك الجمل، ومن هنا؛ فإننا ننظر إلى هذا الموضوع من باب حُسْن النية لا من باب سوء النية، ولكن هذا الاجتهاد أو السهو يجب أن يُعدَّل. هذا ما نطالب به. أما الإخوة المصريون فقد عهدناهم في كثير من المواضع وفي لجان الاتفاق حريصين على ألا يزيدوا كلمة ولا ينقصوا كلمة. ما كان يجري الاتفاق عليه في الجلسة يتم وَضْعه في محضر ويعود لنا مطبوعاً لا زيادة حرف عليه ولا نَقْص حرف.

البيان: قيل: إنكم تعرضتم لتهديدات شديدة من مصر إذا لم توقعوا على الوثيقة: كإغلاق معبر رفح إغلاقاً تاماً، وتدمير الأنفاق، وتشديد الحصار وغير ذلك من وسائل التهديد؟

■ أنا لم أسمع أن المصريين وجَّهوا لوفدنا تهديداً أو غير ذلك، لكن في اللقاء الأخير بين وفدنا وبين الوزير عمر سليمان كان الوزير مستفزاً؛ لأنه يريد أن يُمضي المصالحة، ولا يريد أن يعيقها أي أمر، وكان تقديرهم أن على حماس أن تستجيب لهذا الأمر؛ لأن تأجيل تقرير غولدستون في تقديرهم ليس نهاية المطاف وبإمكانكم أن تتجاوزا عن هذه القضية، حسناً: انتهينا من تقرير غولدستون، فجاءت هذه التعديلات، ومع ذلك لم أسمع أن المصريين هددوا وفد الحركة، ولكن بلا شك عندما تسوء العلاقة بيننا وبين إخواننا المصريين أو عند الاجتهاد في بعض الأحيان فإننا نجد انعكاس ذلك على الأرض؛ فهل هو مقصود أو أنه يتزامن مع ذلك بطريقة أو بأخرى؟ هذا الذي في بعض الأحيان لا نتفهمه، لكن المصريين يُفترض أنهم قد عرفوا أن حماس لا تستجيب: لا للتهديد ولا للضغوط وأن قرارها بيدها وجَرَّبونا بدل المرة مرات عديدة، ويفترض أن تكون مصر أكثر دولة سبرت غور حركة حماس وغور قيادة الحركة، وأنه يجب التعاطي معنا على أننا لسنا كغيرنا، إننا إذا قلنا كلمة نلتزم بها، وهذا ما يُلزِمنا بأننا عندما نريد أن نوقع على شيء يجب أن نحميه، نحميه أولًا في نفوسنا وأمام قواعدنا وجمهورنا، ومن هنا عندما سألتني عن الورقة المصرية أجبت بمنتهى الموضوعية: نحن نريد أن نوقِّع على

اتفاق نحمي كل كلمة فيه، ولا نريد أن نشعر أننا وقَّعنا على جملة واحدة رغماً عنا؛ لأننا لا نستطيع أن ندافع عنها أمام قواعدنا ولا أمام شعبنا.

البيان: ألا أتـرى أن حمـاس الآن في أصعـب أوقاتهـا وظروفهـا؛ فالضغوط تزداد على الحركـة، والحصار يكاد يخنـق النـاس في القطاع... مـا الأوراق الـتي لا تزال بيد حماس في ظل هذه الأزمة؟

■ أي مقاومة تواجه احتلالاً وقوىً ظالمة ومستكبرة، في يوم من الأيام، في أي بقعة مـن بقاع العالم ما كانت تواجه بحبوحة من العيش ورغداً منه، وإنما كانت تواجه مصاعب، وبنـاءً على ذلك ما تواجهه حركة حماس وفريق المقاومة في الشعب الفلسـطيني وفي الأمة يجد هذا العنت، ومنذ متى كانت حماس في بحبوحة من العيش من أول نشأتها؟ بل متى كان شعبنا الفلسطيني في بحبوحة من العيش في أي مكان؟ بل العكس.

أنا أقول: إن الشـعب الفلسـطيني اليوم في يده أوراق أفضل من غيره، ؛ فعلى سـبيل المثـال: لأول مرة في تاريخ الصراع يصبـح العدو الصهيوني مطالَب بجرائم حرب أمام العالم، ولأول مـرة تخرج المظاهرات ضد قيادات الاحتلال، ولأول مرة تُمتهن كرامـة رئيس وزراء صهيوني في نيويورك في قلب أمريـكا؛ اليوم أولمرت كلما دخـل جامعة ومحفلاً تلاحقه لعنـة حرب غزة وجرائم الاحتـلال، وهذه الصورة للاحتلال علينا أن نسـتغلها. ومن الذي صنع هذه الصورة؟ صنعتها المقاومة وصنعتها حماس، وأشـلاء ودماء الشـعب الفلسـطيني، في حين أن مسار التسوية اليوم في مأزق أكثر من أي وقت مضى، لذلك نقول: إن مسار التسوية في مأزق والاحتلال في مأزق ومصداقية أمريكا أمام العالم في مأزق وعلـى المحك؛ فأولئك جميعاً في مـأزق. وإذا كانت حماس فـي أزمة، فهي أقل الأطـراف أزمة في المنطقـة، وأزمتنا جاءت من العبء الحقيقي والكبير الذي نحمله أمام شعبنا؛ لأننا مسـؤولون أمام شعبنا ونشعر بمشاعره وآلامه وأحزانه ونشـاركه أفراحه، هذا هو الألم الذي يؤلمنا وبناءً على ذلك خيارتنا كلها مفتوحة:

أولًا: علـى صعيد المقاومة: خيـارات المقاومة المحميَّة بالقانون السماوي والأرضي والشعبي قائمة وآفاقها مفتوحة في كل المواقع، وخيار المقاومة لو أردنا أن نحرك فيه قناعاتنا المبدئية، فإنه سيتسع في بقاع وأماكن متعددة، ومع ذلك نحن ما زلنا نحبس مقاومتنا داخل حدود الوطن،

ثانياً: إن خياراتنا في التعاطي السياسـي كلها مفتوحة: خياراتنا فـي الانتخابات مفتوحة؛ فنحـن الأحرار وغيرنا المأزوم والحبيـس، وبإمكاننا أن نشـارك في الانتخابات أو نقاطعهـا، أو نُجري انتخابات، وأن نذهب للمصالحة وأن نقدم تنازلًا جديداً؛ كل خيارتنا مفتوحة أمامنا، نحن من قَدَّم التنازل لشعبنا ولسـنا نادمين عليه، وكلما تعثرت المصالحة ندفعها للأمام، ولذلك بيدنا أن نحـرِّك كل الأوراق ولسـنا المأزومين، أما غيرنا فهو المأزوم، لو سـألت محمود عباس: ألسـت في أزمة؟ بل في أزمات: أين مشـروع حركة فتح؟ أين المشـروع السياسي لمحمود عباس الذي يدَّعي أن شعبنا أنتخبه عليه؟ أين الشعب الذي انتخبه؟ من انتخبه؟ ٢٦٪ ممن يحق لهم الانتخاب في الشعب الفلسطيني. إن رئيساً منتخباً من قِبَل ربع من له حق الاقتراع في الشعب الفلسطيني، عليه أن يدرك أن هذه هي شـعبيته، في حين أننا نحن المنتخَبون ولنا شرعية أكثر من ٦٠٪ من المجلس التشريعي، ولذلك هم المأزومون، وعليهم أن يدركوا الأزمة التي سيدخلونها.

غداً - إن شـاء الله - تتحقق المصالحة، وسـنرى من سينتخب الشعب الفلسطيني! ومن هو في مأزق!

وبنـاءً على ذلك أريد أن أطمئـن محبي حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وجماهيرنا وقياداتنا وعناصرنا أننا أكثر طَرَف في المنطقة في بحبوحة، لكن نحن متضايقون، وجرحنا غائر بسبب الجراح التي أصيب بها شعبنا؛ إننا كلما رأينا بيتاً مهدَّماً زاد ألمنا، كلما رأينا جريحاً لم يحظَ بالعلاج المناسـب آلامنا تتزايد، كلما رأينا أسيراً لم يتحرر آلامنا تتزايد، كلما رأينا لاجئاً يتضور جوعاً تحت حر الصيف وزمهرير الشـتاء نزداد ألماً، يؤلمنا مستقبل قضيتنا الفلسطينية، تؤلمنا القدس والمسجد الأقصى الذي يتعرض لأبشع حملة تهويد، كلما رينا الاستيطان يضرب أطنابه، وما نراه من الساسة الفلسطينيين الذين ينتسـبون إلى الشعب الفلسـطيني، هذا ما يؤلمنا في حركة حماس؛ ولذلك نسـتطيع أن نتحرك يميناً وشمالًا في المشهد السياسـي، ولكن أمانتنا والشعب الفلسطيني الذي حمَّلنا الأمانة هو الذي يدفعنا لأن نتخذ الخيارات الأصعب علينا في سبيل تحقيق المصلحة للشعب الفلسطيني.

البيان: كيف تقيِّـم العلاقة بين حماس ومصر: هل هي قطيعة بدليل عدم استقبال أي وفد من حركة حماس ؟

■ دعنـي أبيِّن ما هي سياسـة حماس تجـاه كل دول

الإقليم: نحن في حركة حماس نرى أن الإقليم كله (الوطن العربي والإسلامي بأكمله) وأحرار العالم هم رديفنا وعمقنا وظهرنا الذي يجب أن يحمينا؛ ولذلك حركة حماس حريصة على أن تبقى العلاقة في أفضل حال وأحسنه مع كل الدول، وهنا نخص بالذكر دول الطوق، وبناءً على ذلك نحن لا نفكر أبداً في أن تكون العلاقة مع مصر أو غير مصر في حالة قطيعة أو صدام، بل العكس؛ إننا نحرص دائماً علىأن تبقى العلاقة مع مصر وغيرها في أحسن الأحوال، أما تقييم الحالة الحالية؛ فهناك خلاف في موقف معيَّن لم يكن الأول ولن يكون الأخير. اختلفنا قبل ذلك وعدنا ورحنا وغدونا، لقد اختلفنا مع الإخوة المصريين على موقف ما، إلا أننا سنتجاوزه غداً بأي طريقة من الطرق، وعندما نتجاوزه، في نظري ستعود الأمور؛ فلا نحن نتخلى عن مصر، ولا مصر ستتخلى عن موقعها، ولا عن احتضانها للقضية الفلسطينية من موقعها كأكبر دولة عربية، ومن موقعها الذي قدَّمت فيه الشهداء في سبيل القضية الفلسطينية، ومن موقعها الأقرب والأكثر احتضاناً للشعب الفلسطيني على بوابته اليمنى، إن العلاقة مع مصر، علاقة ارتباط بدين وقومية وآلام وآمال ودماء اختلط الشعب المصري فيها بالشعب الفلسطيني، وبناءً على ذلك لا انفكاك ولا فكاك في العلاقة الطيبة والحميدة بيننا وبينهم، وإن عكر صفوها موقف هنا أو هناك، لكن سرعان ما تعود إلى أفضل أحوالها، أن شاء الله.

البيان: هل من جديد في صفقة الأسرى؟

■ ما أستطيع قوله: إن صفقة الأسرى تمضي، وعندما تتهيأ الظروف لنجاحها وتتم سنعلن ذلك أن شاء الله.

البيان: هناك حديث عن تجزئة بالصفقة؟

■ ليس لدي معلومات.

البيان: هناك حديث عن نية الجانب الإسرائيلي الإفراج عن معتقلي الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ والقدس بعيداً عن الصفقة، ولكن ضمن الصفقة؟

■ ليس لدي معلومات تفصيلية عن ذلك، ولكن ما أعلمه بشكل عام أن هناك مفاوضات تجري، تتقطع وتمشي، ولكن نحن مصرُّون كفصائل أسرت الجندي الصهيوني على مطلبنا العادل في هذا الموضوع، وإن شاء الله - تعالى - تخضع إسرائيل لهذه المطالب العادلة وتمضي الصفقة، ونحن نقول لهم: نحن نريد إمضاء الصفقة بأسرع وقت ممكن، وتستجيب إسرائيل لهذه المطالب العادلة وتنتهي المعاناة لكل الأطراف.

البيان: كيف تنظرون إلى المواقف التركية الأخيرة تجاه دولة الاحتلال؟

■ الموقف التركي موقف إنساني وأصيل يتحدث عن دولة تحترم نفسها وتحترم الحريات وحقوق الإنسان وتحترم أصالة شعبها الذي ينتمي إلى هذه الأمور، وهذا يعني: أن القيادة التركية اليوم ملتحمة بمشاعر الجمهور، وهي تمثل القيادة الناجحة التي من حق كل شعب أن يعتز بها، ونحن نتمنى أن تكون كل قيادات الأمة مترابطة مع مشاعر جمهورها فضلاً عن مصالحها.

القائد الذي يقول: أنا لا أتجاوز مصالح شعبي. هذا القائد هو الذي يستحق الاحترام والتقدير من كل شعوب العالم فضلاً عن شعبه.

البيان: ألا ترى أنها تحاول البحث على مكانة في المنطقة بعد هذا الفراغ القيادي؟

■ إن من حق كل دوله في العالم أن يكون لها مصالح، وأن تحققها، ولكن أنا لا أرى ذلك بعيداً؛ ربما تتعرض تركيا نتيجة هذه المواقف لمحاصرة وهي تقدِّم هذه المحاصرة على أن تتناقض سياسات قيادتها مع مشاعر جمهورها.

ما هو الموقع الذي ستحظى به تركيا في العالم؟ أين هي مصلحتها؟ هل في العالم العربي المرتهَن للقرار الأمريكي والباحث عن موقع في المشروع الأمريكي أم في العالم الإسلامي المترامي الأطراف المتشعب المشاكل؟ باعتقادي تركيا تعود إلى جذورها إلى أصالة الموقف، وأنا أتمنى من كل قيادات الأمة العربية والإسلامية أن تأخذ مثل هذا الموقف الطبيعي والإنساني والأخلاقي والمبدئي. جدير بتركيا الشريفة قيادتها، والأصيلة بشعبها أن تأخذ موقعها الذي لا ينافسها فيه أحد، وأن تفعل كل زعمات الأمة العربية والإسلامية ما تفعله تركيا، نحن تمنينا أن يفعل الأمين العام لجامعة الدول العربية ما فعله أردوغان في دافوس، نتمنى على الزعامة الفلسطينية أن تفعل ذلك عند حقوق شعبنا.

يحرص بعض الناس على أن يشوه المواقف الأصيلة بالمصالح. ورغم أن المصالح تتقطاع إلا أنني أرى أن من مصلحة تركيا أن تغض الطرْف بعض الأحيان وقد تجد فسحة، لكنها تأبى إلا أن تقف بجانب المظلومين والمحرومين،

تدافع عن حق الشعب الفلسطيني.

البيان: هل تراهنون على الموقف التركي وتطوُّره إيجابياً تجاه القضية الفلسطينية؟

■ بلا شك؛ فإن المواقف التركية شكلت رافعة جديدة للقضية الفلسطينية وصوتاً جديداً يدوِّي في العالم الإسلامي والغربي؛ فعندما تقف تركيا صاحبة التاريخ والموقف الثقيل هذا الموقف؛ فإنها - بلا شك - تُحرج السياسات الإقليمية والمحلية والدولية، إن تركيا عندما تقف هذا الموقف ستشجع غيرها من الدول لحماية الحق الفلسطيني، وبناءً على ذلك أقول: إن المواقف التركية من القيادة التركية اليوم، تأتي في صف الحق الفلسطيني المشروع وإضافةً نوعية له، وآمل من الفلسطينيين بمجموعهم على اختلاف برامجهم أن يأخذوا من التجربة التركية درساً وان يغتنموا الفرصة ليطورها إلى الإمام.

البيان: هناك تخوُّف إقليمي من الدور التركي: هل أنتم مع هذا التخوف؟

■ أنا لست مع هذا التخوف، وإنما الذي يربط مصالح أمته ومصالحه الداخلية بالمصالح الخارجية والمساعدات الخارجية يقزِّم الأدوار دائماً، ويتخوف من أي دور.

لماذا لا يكون أولئك المتخوفون مثل تركيا؟ ما الذي يمنع الدول العربية والإسلامية كلها أن تنحو مثل هذا النحو؟ لماذا لا يفعلون ذلك؟ فتركيا كما تحاول أن تتوسط بين العدو الصهيوني وسوريا، فإنها تتوسط بين أطراف متعددة؛ فهي تحدد أين المصلحة وتجدها منحازة لنا كأمة عربية وإسلامية أكثر من أن تنحاز إلى غيرنا، ولذلك لست مع هذا التخوف، بل أتمنى أن تتشكل قاعدة جديدة للتحرك العربي والإسلامي لحماية الحقوق العربية والإسلامية، وتركيا تشكل رافعة وحاضنة لهذا المشروع، آمل أن تجد دعماً لها، وآمل أن لا يحدث في تركيا ما حدث أيام تجربة نجم الدين أربكان.

البيان: لو تخلت مصر عن موضوع الحوار، هل ترون في تركيا مرشحة لقيادة هذا المشروع؟

■ أولاً: مصر لن تتخلى عن موضوع الحوار.

ثانياً: العرب كلهم وكَّلوا مصر بهذا الموضوع، وبناءً على ذلك؛ فإن تركيا من يوم أن تدخلت كانت عاملاً مساعداً، ولم تتدخل منافسة، والإخوة المصريون يعلمون ذلك؛ ولذلك فإن تركيا ستكون عاملاً مساعداً في كل شأن من الشؤون العربية والإسلامية، هذا ما أتوقعه، ولن تكون منافسة لأحد ولا بديلًا عن أحد، وأرى أن تركيا ستكون إن فشلت الجهود المصرية - وأنا لا أتوقع ذلك - عاملاً مساعداً لإعادة الدور المصري إلى موقعه الطبيعي.

البيان: هناك أزمة لدى الإخوان المسلمين، سواء في الأردن أو مصر، وربما السبب في جزء منها حماس... كيف تنظرون إلى ذلك؟

■ أولاً في كل الأحزاب والحركات العالمية يحدث وُجهات نظر في كل قضية، نحن في حماس يحدث عندنا وجهات نظر؛ فلماذا تسليط الضوء على قضية الإخوان في مصر؟ ولمَ هذا الافتعال الإعلامي الكبير المهتم بها إقليمياً ودولياً، أنا سمعت تحليلات كثيرة، كل ما هنالك أنها قضية إدارية داخل الجماعة في حجمها الطبيعي وانتهت، يدخل فلان أو لا يدخل فلان، من حق الرئيس أو ليس من حق الرئيس... وتمضي بعد ذلك الامور، والأستاذ المرشد ما زال في مكانه ومكتب الإرشاد ما زال في مكانه والجماعة قائمة. هذه الضجة التي قامت ليس لها رصيد من الواقع، لكن هي السياسات الإعلامية الدولية المناهضة للأمة تسلط الضوء على ذلك.

أما إخوان الأردن فعندهم قضية داخلية يتناقشون فيها، وكما حدث في موضوع إخوان مصر جرى تسليط الأضواء عليها.

إذا كان هناك قضية عليها خلاف داخل الجماعة - لها علاقة بحماس، أو ليس لها علاقة بحماس - فإنها تناقش في أُطُر الجماعة، قد يختلف الناس عليها في لقاء مجلس شورى، وفي النهاية سيتفقون. ما هذه الضجة الكبيرة في حركة تختلف على قضية معينة؟

حركة فتح أقامت مؤتمرها السادس تحت حراب الاحتلال، وهيأت من الأجواء والنصائح الدولية من كل العالم، وبعد ذلك زوروا الانتخابات وبشهاداتهم يقولون ذلك، وقد قال لي أحد قيادات فتح من الذين شاهدوا الصناديق أغلقت مكان الصناديق: إنه جرى تغيير الصناديق، وتم الاعتراف بما أفرزته وبقدرة قادر يخرج فلان وفلان، هذه المسرحية الهزلية لا أحد يسلط الضوء عليها. وإنما تسلَّط الأضواء على قضايا ليست بالأمر الهام لإشغال الناس بها.

حوار

د. خليل الحية: المخرج للواقع الفلسطيني.. استئناف المقاومة

محمد الصواف، غزة – الجيل للصحافة

الدكتور خليل الحية عضو المكتب السياسي لحركة حماس في حوار مع البيان.

– المطلوب أن تُطلَق يد المقاومة على أوسع نطاق، وأن ترعى من الدول العربية والإسلامية.

– الديمقراطية مذبوحة في عالمنا بالفيتو الأمريكي، والإدارة القمعية للنظام العالمي الجديد.

– لا أستبعد أن يُقدم محمود عباس على إجراء انتخابات في الضفة الغربية.

– السيناريو الأقرب من قِبَل حماس أن تقاطع الانتخابات، وتدعو لمقاطعاتها، وتمنعها في غزة.

رأى الدكتور (خليل الحية) عضو المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) أن المخرج الوحيد للواقع الفلسطيني أن يمارس الشعب الفلسطيني قناعته الحقيقة باستئناف المقاومة على أوسع نطاق في كل الميادين وفي كل الأصعدة، مؤكداً على أن حركة حماس هي أقل الأطراف أزمة؛ فخياراتها كلها مفتوحة، على صعيد المقاومة، والتعاطي السياسي.

ولم يستبعد الحية أن يُقْدم رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس على إجراء انتخابات تشريعية ورئاسية في الضفة الغربية؛ لأنه يتكئ على مواقف الأمريكان، والاحتلال، وبعض دول الإقليم، متوقعاً عدة سيناريوهات ممكن أن تُقْدم عليها حماس، أقربها: أن تقاطع الانتخابات، وتدعو إلى مقاطعاتها، وأن تمنعها في غزة.

البيان: هل تتوقعون أن يُقْدم رئيس السلطة الفلسطينية على إجراء انتخابات في الضفة الغربية وَفْقاً لما أعلن عنه في المرسوم؟

■ بدايةً أتمنى أن تحصل المصالحة، وأن نتجاوز هذه الأزمة المتراكمة منذ سنوات، بلا شك إعلان محمود عباس، المنتهية ولايته للمرسوم الرئاسي لتحديد موعد الانتخابات، وخروجه على ما جرى التوقيع عليه من مشروع الاتفاق شكَّل إضافة لتأزيم الموقف (الفلسطيني، الفلسطيني) وأَخْذ الأمور بعيداً، لذلك ما أتمناه أن تهيَّئ الأجواء للمصالحة الفلسطينية، وأن نذهب للانتخابات بعد تهيؤ الظروف لها في الموعد الذي اقترحته الشقيقة مصر في مشروع الاتفاق، وهو ٢٠١٠/٦/٢٨ وهذا هو المفضل، ولكن إذا لم يحصل ذلك، وآمل ألا يحدث ذلك، فإنني أعتقد أن محمود عباس دائماً يهرب إلى الأمام، ولا يضيره كل الإشكاليات في الشأن (الفلسطيني، الفلسطيني) إذ يمكن أن يفعل محمود عباس ذلك، ولا يضيره أن ينقسم الشعب الفلسطيني؛ لأن سلطة محمود عباس يتكئ فيها إلى مواقف الاحتلال والأمريكان

وبعض دول المنطقة حتى يقول: أنا الرئيس الفلسطيني؛ لذلك أنا لا أستبعد أن يفعلها محمود عباس.

البيان: في حال أجريت هذه الانتخابات في الضفة الغربية في ٢٠١٠/١/٢٥، ماذا أنتم فاعلون؟

■ هذا استباق لتحديد الموقف في حينه، لكن أنا أتوقع سيناريوهات متعددة أُرجِّح اثنين منها:

الأول: الذي أتوقع أن تفعله حماس، وحتى الآن لم يُتخَذ فيه قرار: أن تقاطع الانتخابات، وتدعو لمقاطعاتها، وأن تمنعها في غزة، وهذا حق لها؛ فإجراء انتخابات تحت حراب الاحتلال لا يوجد ضمانة لنزاهتها، والحركة ملاحقة، والشعب الفلسطيني مجوَّع، ولا إعمار... لا أتوقع أن تشارك حركة بثقل حماس في انتخابات هي متأكدة من تزويرها ونتائجها المسبقة.

الثاني: أن تترك حماس محمود عباس يفعل ما يريد وترفع الشرعية عن هذا الأمر، ولا تعترف بنتائج المجلس التشريعي، ولا تتعامل معه: لا في غزة ولا في الضفة الغربية، وتعتبر كل من شارك في هذه الانتخابات غير شرعي، وهو ما يُدخل في إشكاليات. هذه أكثر السيناريوهات التي من الممكن أن تندفع فيها حركة حماس، وتتعامل معها.

البيان: هل تعتقد في ظل هذا المفهوم، أن يبقى هناك ما يسمى بـ (الديمقراطية)؟

■ الديمقراطية مذبوحة في عالمنا بالفيتو الأمريكي والإدارة القمعية للنظام العالمي الجديد وَفْقَ هذه الأنظمة الموجودة: أين هذه الديمقراطية اليوم؟ أين الديمقراطية واحترامها بعد انتخابات ٢٠٠٦؟ أين الديمقراطية واحترامها بشأن رئيس مجلس تشريعي يعتقله الاحتلال، وعندما يخرج تمنعه الأجهزة الأمنية للأسف الشديد؟ أين هي الديمقراطية عندما يأخذ رئيس السلطة بقلمه، ويعطل الدستور بلا وجه حق؟ أين هي الديمقراطية عندما يشكل محمود عباس حكومة، ولا تأخذ الشرعية من المجلس التشريعي؟ الديمقراطية نبحث عنها اليوم في كل مكان فلا نجدها إلا اسماً، وبناءً على ذلك أنت مضطر إلى أن تتعامل مع هذه الديمقراطية العرجاء بما يُثبت مكانتك في هذا الوطن، ولكن ما نريده حقاً: هو التأكيد على ممارسة الديمقراطية بشكل صحيح، واحترامها والتداول السلمي على السلطة، والمشاركة السياسية الحقيقية، نحن نتساءل كسياسيين وغير ذلك: هل هذا متاح اليوم؟ هذا غير متاح في هذا العالم، ويبدو أن أمريكيا التي رفعت شعار الديمقراطية تراجعت عن هذا الشعار عندما وجدت أن الذين يتقدمون للديمقراطية وتنتخبهم شعوبهم هم من يعارضون التوجه الأمريكي المناقض لمصالح الشعوب.

البيان: انتخابات في الضفة، ولا انتخابات في غزة، أين الشعب الفلسطيني من هذا كلّه؟

■ هذه نتيجة طبيعية لسلطة تحت الاحتلال، وهذه نتيجة طبيعية لشعب يناضل الاحتلال ويريد أن يأخذ شرعيته من الاحتلال! إنها لعنة أوسلو التي أصيب بها الشعب الفلسطيني، ومصيبة أوسلو اليوم يتجرعها الجميع؛ فرغم أن أوسلو داستها الدبابات عام ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ في الضفة الغربية، وحطمتها إسرائيل في حرب الفرقان على قطاع غزة؛ إلا أن هناك من يتمسك بها رغم أن مسيرة التسوية وصلت إلى طريق مسدود.

محمود عباس نفسه قبل أيام يقول في تصريح له: إننا وصلنا إلى ما يشبه الطريق المسدود والمفوضات لم تُسفِر عن شيء. واليوم يصرون على ممارسة المفاوضات، إذاً هذا الواقع والمشهد الفلسطيني الحقيقي، لذلك لا بد أن تعكف مؤسساتنا الإدارية على حماية واقعنا الداخلي وتوفير مستلزمات، ومتطلبات حياة شعب يريد أن يقاوم الاحتلال وأن تُطلَق يد المقاومة الحقيقة وأن تُرعى من دول الطوق ودول الإقليم؛ لذلك نحن نقول لكل من طبل وزمر، وهلال واستبشر بمسيرة التسوية ودول التسوية: أين وصل المشروع اليوم؟ أين وصلنا اليوم؟ وأين حقوقنا اليوم؟ أين مسيرة الاعتدال والتسوية؟ أين العرب والفلسطينيون؟

أنا أقول: المرشح الحقيقي لواقعنا لفلسطيني، هو أن يمتشق الشعب الفلسطيني دمه وأشلاءه، وأن يواصل قناعته الحقيقة التاريخية باستئناف المقاومة على أوسع نطاق في كل الميادين والأصعدة؛ فإن الذي سينقذ الشعب الفلسطيني من هذا السجال أن تنطلق المقاومة بشكل قوي، وأن تُرعى من دول الطوق والإقليم، والأمة العربية مدعوة لذلك؛ حينها فقط تتغير المعادلة. أما أن ندخل كلنا في نفق التسوية واللعبة الديمقراطية، والاحتلال ماضٍ بسياساته لتهويد القدس والاستيطان والجدار والاعتداء على حق العودة وغير ذلك، فهذا أمر بعيد.

اليـــوم أصبح المواطن الفلســـطيني بعيـــداً عنا كنخب فلسطينية وقيادات سياسية للشـــعب فلسطيني خاصة في مســـار المقاومة وخيار المقاومة، إن أي مواطن فلسطيني من حقه أن يســـأل: أين ذهبت حقوقنا، وثوابتنا الفلســـطينية؟ ولذلـك فـإن الحـامي لكل ثوابتنـا الفلســـطينية بعد اللـه – سبحانه وتعالى – الشعب الفلسطيني والمقاومة.

البيان: إذاً: لماذا لم تنطلق المقاومة في ظل هذا العدوان الكبير: سـواء على القدس أو على الشعب الفلسطيني؛ والا قـد يصدق فيكـم قول القائلـين: إنكم تحاربـون المقاومة وتمنعونها، وتقدمون تهدئة مجانية للاحتلال، كما تحدث عباس مؤخراً ؟

■ المقاومة تحتاج إلى ظروف وبيئة مناسبة لها ولا تحتاج للمطـــاردة. دعنا نتحدث عن المقاومة فـــي الضفة الغربية؛ حيـــث الاحتلال الحقيقي: حتى ما يســـمى بالقانون الدولي يؤكد على حقنا فـــي أن نقاوم الاحتلال في حدود الأراضي المحتلـــة عام ١٩٦٧، وهذا لا خلاف عليـــه في كل القوانين، وبناءً على ذلك انظر إلى هذا الموقف الذي اتخذته إســـبانيا منـــذ مدَّة، إنها طردت جامعـــة صهيونية؛ لأن هذه الجامعة (جامعـــة أرئيل) موجودة في الضفة الغربية في مســـتعمرة، إذاً العالـــم معنا في مقاومة الاحتـــلال، ولكن هذا الاحتلال الموجود فـــي الضفة الغربية وقطاع غزة، في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧. طبعاً أرضنا كل فلسطين، وحقنا أن نقاوم المحتل، حيثما كان، لكن أريد أن أناقش هنا في مفهوم من يقول: إن المقاومة حق، وتقرير غولدســـتون الذي أكد على هذا، وقال: إن المقاومة كانت تدافع عن نفسها.

أنـــا أقول اليوم: أيـــن هي المقاومة التـــي تُلاحَق ويُزج أبناؤها في السجون والمعتقلات بلا استثناء (حماس، الجهاد، الجبهة الشـــعبية، وما تبقـــى مـــن حركة فتح من المقـــاومين والمنـــاضلين) ؟ كلهم يُزَجون في الســـجون، وللأسف الشديد يخرج بعـــض أبواق فتح ويســـأل: أين المقاومـــة ؟ أنتم من حبستموها، أنتم قاتلتموها، أنتم طاردتموها، أنتم من قتلتم أناساً لهم سنوات طِوَال مطارَدين من الاحتلال، من اعتقلهم؟ من قتلهم في نهاية المطاف؟ ولذلك نحن نتحدث عن مقاومة مطارَدة مكبوتة، ليس من الاحتلال فحسب، بل من الاحتلال، وما يســـمى بأجهزة دايتون التي تتحدث الفلسطينية؛ أجهزة الأمن اليوم تطارد المقاومة.

كيف ســـنجد المقاومة، وهي ملاحقة في كل بيت؟ كيف ســـنجد المقاومة والأجهزة في الضفة الغربية اســـتطاعت أن تدخل لأطفال فلســـطين في الضفـــة الغربية، وتجندهم كمخبرين؟ تصور أن الأجهزة جندت الأطفال (١٢ و ١٣) سنة مخبرين لهم ليدلوهم على أي مقاوم؛ فأين المقاومة؟

هذا في الضفـــة الغربية طبعاً والواقـــع في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ ليس أحســـن حالاً؛ فإذا كان الفلسطيني يطارد المقاومة، والأســـوأ مـــن ذلك أنه لايطـــارد المقاومة المســـلحة فقط؛ ففـــي أيام حرب غزة خرجـــت المظاهرات في كل العالـــم، لكننا لم نجد مظاهرات في الضفة الغربية، وللآســـف الشديد أيضاً ما جُمِعَ من تبرعات سُرِق، والأدهى أنه لم تخرج مظاهرة واحدة في الضفة الغربية، والمظاهرات تخرج في أراضي ١٩٤٨؛ ذلك أن الشـــعب الفلسطيني تحت ســـلطة قمعية فلسطينية أشد من الاحتلال. من الغريب أنه أيام حرب غزة خرجت مظاهرات في قرى فلســـطينية تحت الاحتلال، لكنها لم تســـتطع مظاهرة واحـــدة أن تخرج في مناطق السلطة الفلسطينية.

نأتي إلى غزة: في غـــزة يجب أن نتحدث بموضوعية: إننا نريـــد أن نُحْدث نكاية في العدو الذي يفعل في القدس ما يفعل، كيف ســـنصل إليه وأمامنا حـــدود وغير ذلك؟ ثم إننـــا خرجنا من حرب ضروس، ما زلنا نرمِّم جراحاتنا حتى الآن، والاحتلال قد كف يـــده عنا ومع ذلك يتعرض من هنا وهنـــاك؛ لذلك ندافع عن أنفســـنا في أي لحظة، أي لحظة يدخل الاحتلال أو جنوده أو مستعربيه داخل الخط الأخضر، المقاومـــة ترد وتنال منه وتواجه بكل قوة، لكن أنت الآن أمام خيارات صعبة: نحن توافقنا مع الفصائل الفلســـطينية بعد الحـــرب على غزة، وســـألنا هذا الســـؤال لإخواننا في كل الفصائل: هل أنتم ترون أننا في غزة يمكن أن نبادر الاحتلال بمقاومة في هذه المرحلة، فكان الإجماع من كل الفصائل أنه ليس من مصلحتنا كمقاومة فلسطينية أن نواجه الاحتلال في هذه المرحلة؛ لأننا خرجنا من حرب نريد أن نكفكف جراحات الناس، و نبني بيوتهـــم المدمـــرة، حتـــى يلملموا جراحاتهـــم، ولا نريد أن نستدعي حرباً جديدة، وبناءً على ذلك بينا وبين كل إخواننـــا في الفصائل تفاهم على أن ندافع عن أنفســـنا في غزة أمـــام أي عدوان علينا، ولا يعنـــي ذلك أننا أوقفنا المقاومة، نحن أوقفنا المقاومة بدون أن تكون علينا حرب في ٢٠٠٥ لمحمود عباس سنة كاملة، وقبله في ٢٠٠٣ أعطينا له أيضـــاً، ولذلك تقدير الموقف من كل الفصائل الفلســـطينية

هو: أننا في غـــزة نرى أن المصلحة الوطنية أن نكف أيدينا، والمقاومة تعتبر نفسها جيشـــاً جراراً يواجه الاحتلال، نحن مقاومة تستنزف الاحتلال تؤذيه حتى تبقى شوكة في حلقة، تســـتنزفه حتى يُقر بحقوقنا ويرحل عن أرضنا؛ ولذلك فإن المقاومة تخضع لتقديرنا السياسي والأمني مع كل الفصائل هنا في غزة، وقناعتنا أننا في هذه المرحلة يســـعنا أن ندافع عن أنفســـنا أمام أي أعتداء ولا نبادر الاحتلال، هذا الموقف الذي أخذناه، ومن هنا أقول: حماس ليست منفردة في هذا الـــرأي، حماس اجتمعت بالفصائل وخرجـــت بهذا، ولذلك نحن كإجماع وطني لانرى المقاومة في غزة تحقق لنا مكسباً فـــي هذه المرحلة، والمقاومة ليســـت بندقية تطلق الرصاص بدون هدف، نحن نقاوم لنحقق هدف طرد الاحتلال وإزعاج الاحتلال ليُقر بحقوقنا ويرحل عن أرضنا.

البيان: هنـــاك مـــن يـــرى أن إصـــدار عبـــاس للمرســـوم المقصود به الضغط على حماس كان بطلب مصر للموافقة على الوثيقة المصرية، ما قولكم في ذلك؟

■ إصدار محمود عباس هذا المرسوم يأتي في إطارين:

الإطار الأول: وسيلة ضغط؛ فهو ربما قد يكون قد أخذ الضوء الأخضر، وهكذا يدعي الإخوة في مصر، وهو يقول: إن مصر متفهمة هذا الموقف. وأنا أتمنى من الشقيقة مصر أن تقول موقفها بشكل واضح.

الإطارالثانـــي: محمود عباس يعتبر نفســـه ما زال رئيساً للســـلطة الفلســـطينية، ونحن فهِّمْنا للقانون أن محمود عبـــاس انتهت ولايته من ٢٠٠٩/١/٩ وبناءً على ذلك هو في حكم القوانين والدستور ليس رئيس السلطة الفلســـطينية، لكن عندنا في القانون بشكل واضح لا بد مـــن الدعوة لانتخابات لهذا الموضـــوع، ومحمود عباس يتخـــذ هذا ذريعة قانونية للإعلان عن المرســـوم، ولكن تســـاؤلاً كبيراً يوجَّه لمحمود عباس بعيداً عن الســـجال القانوني: الذي أنا مؤمن بـــه أن محمود عباس منتهية ولايته من ٢٠٠٩/١/٩ ولم يعد رئيساً؛ فكيف يتصرف وكأن شـــيئاً لم يكن؟ صـــرَّح لنا قيادات فـــي فتح أنه: صحيـــح انتهت ولايته، لكن لا يجوز أن يكون هناك فراغ دستوري!

واليوم كان علـــى محمود عباس أن يخطو خطوة أفضل مـــن ذلك لو كان رجلاً تصالحياً، لـــو كان رجلاً يريد وحدة الشعب، ويريد أن يتعامل مع حماس، ويريد أن يوقِّع الاتفاق،

لقال لمصر: (لاحقوا العيَّار لباب الدار) اســـمعوا من حماس، وانظروا ماذا تريد حماس، احشـــروا حمـــاس في الزاوية، أليس يدَّعي أننا نرفض التوقيع؟ طيب احشرونا في الزاوية، وناقشـــونا في ما نقول؛ فإن كنا مصيبـــين افعلوا، وإن كنا مخطئـــين اضربوا فينا عرض الحائـــط وجربونا، وأنا أذكِّر محمود عباس قبل اتفاق مكـــة، ونحن في اتفاق مكة، وبعد ما عدنا، بكلمة قالها مراراً، قال: أنا أشـــهد أن حماس ليس عليهـــا وصاية من أي جهة، قال ذلـــك بكل وضوح، قاله في مكة وعندما التقى بالأخ أبي الوليد في الشام وتوافقوا على المواقف، ودعا الملك عبد الله الدعوة؛ فذهبنا مباشـــرة دون وصايـــة من أحد، حينها قال محمود عباس: أدركت اليوم أن حماس ليـــس عليها وصاية من أحـــد، وحماس قرارها في يدها.

ما الذي غير محمود عباس؟ ما الذي غير حماس؟ حماس هي هي، لكن هذه الفزاعة ربما تعني الإسقاط النفســـي؛ فهم لا يفعلون فعلاً إلا ويتكئون فيه على فئة من خارج الشـــعب الفلسطيني، من هنا وهناك، عربية أو أجنبيـــة واحتلالية أوغير ذلـــك. نحن في حماس مقتنعـــون، ومؤمنـــون أن قرارنا بيدنـــا، وأننا اندفعنا للمصالحـــة، ولذلك لو أراد محمـــود عباس المصالحة لفَعَل أمراً أخر، وبناءً على ذلك هي وسيلة ضغط، وقد يكـــون كما قلت : إذا لم تحـــدث المصالحة، وأتمنى أن تحدث، ربما يذهب محمود عباس لتطبيق هذا المرسوم ولا يضيره أن ينقســـم الوطن ولا غير ذلك، وبالمناسبة مـــا لدينا من المعلومات تفيد بأنه يجد تشـــجيعاً دولياً على ذلك.

البيان: في زيارتكـم الأخيرة مع الأسـتاذ خالد مشـعل لمصـر توافقتم علـى عنوانَين رئيسـيَين في المصالحة في الورقـة المصرية، وعندما كانـت صياغتها في يد مصرية

أصبح لديكم تحفظات، ما الذي تغيَّر؟ ما هذه التحفظات التي تتحدثون عنها؟ ولماذا تراجعتم عن توقع الوثيقة؟

■ لا بد من الحديث بموضوعية متناهية في هذا الموضوع: ما جرى الاتفاق عليه مع الإخوة المصرين في اللقاء الأخير بعد عيد الفطر هو تحديد المواعيد. حينها قال الوزير عمر سليمان: لن يخرج المشروع الذي سنعِدُّه للمصالحة عما جرى الاتفاق عليه بينكم وبين الفصائل، وهذه الورقة الأخيرة.

ونحن نصحنا الإخوة المصرين العاملين مع الوزير عمر سليمان أن يقدموا مشروع المصالحة بما اتُفق عليه فقط، لا يزيد ولا ينقص، ويقدموا مقدمة لهذا الموضوع؛ فرحبوا بالفكرة وتمت صياغته. وللحق والعدل والإنصاف أقول: إن الوثيقة المصرية ومشروع الوفاق الوطني جيدة جداً، وهو ما جرى الاتفاق عليه في لجان المصالحة الخمسة، ولكن سقطت بعض العبارات كان قد اتُفق عليها، وأضيفت بعض الجمل في بعض المواضع اجتهاداً من الإخوة المصريين، ولذلك نحن لم نشأ في البداية أن نقول: سقطت، ولا: أضيفت، فقلنا للإخوة المصريين: عندنا بعض الملاحظات: اتفقنا وإياكم على أن يكون الاتفاق هو ما اتُفق عليه، ويبدو أنه سقط سهواً منكم بعض الجمل فيحتاج ذلك لمراجعة.

كنا نتوقع أن هذه المسألة لن تؤثر عند الإخوة المصرين؛ لأننا لا نريد أن نضيف شيئاً من عندنا، قلنا لهم: نريد أن نقارن هذه الورقة بالتي أنتم أعطيتمونا إياها نحن والفصائل، قالوا هذا الموجود، ولا نريد أن نزيد حرفاً أو ننقص.

أنا شخصياً لا أجد مبرراً لهذا التعنت وهذا الجمود المصري على رفض السماع منا لهذا، ما الدافع، لماذا؟ لا أدري، إننا لا نتكلم على ملاحظات عامة. نحن نتكلم عن مقارنة فقط بين ما جرى الاتفاق عليه وما هو موجود، وسنجده في أربع أو خمس عبارات أضيفت أو سقطت أو غيره، نحن لا نتحدث عن إضافة بنود ولا عن شيء، نحن نتحدث عن عبارات أضيفت أو سقطت، لذلك نحن مصرُّون على أنه من حقنا الطبيعي الاطمئنان على شيء تحدثنا فيه نحن والفصائل، حتى لا تلومنا الفصائل على شيء وقَّعنا عليه، وهنا أستغرب من بعض الفصائل التي تسلمت مثلنا الورقة المصرية التي وافقنا عليها، هم يقولون: إنهم لم يتسلموا الورقة المصرية حتى يتحدثوا عنها؛ لأن هناك عبارات أضافتها بعض هذه الفصائل سقطت؛ فلماذا سقطت؟ ولذلك ما زلت مقتنعاً بأن على إخواننا المصريين أن يأخذوا هذه العبارات وأن يرجعوها وينتهي الموضوع، وليضعوا حماس في الزاوية، ويروا: هل حماس قرارها بيدها أم بيد غيرها، ضعونا في الزاوية، واحشرونا، وعدِّلوا هذه العبارات البسيطة، والتي لا أعتبر أنها تستحق كل هذه الضجة، هذا ما تأخر بالموضوع، أولاً كان موضوع غولدستون، وانتهى غولدستون وبقي في التاريخ سُبَّة وثُلمة، ووصمة عار على جبين من عطَّله. القرار الفلسطيني كيف يُتّخذ وليسوا أمناء على ذلك؟ والآن الشعب الفلسطيني انتصر بجراحاته وآلامه وتم إقرار التقرير. الآن ما يعيقنا فقط هذه الممانعة من أشقائنا المصريين، الذين بذلوا جهداً كبيراً واحتضنوا الفصائل الفلسطينية على مدار شهور طويلة وهم يسمعون منا، لكن لماذا ضاقت الصدور ذرعاً بذلك؟ ربما هي جُمَل بسيطة سقطت، ولكن رغم أنها بسيطة إلا أن لها أثراً كبيراً.

البيان: هل مسموح الإفصاح عن بعض هذه الجمل ؟

■ أنا أريد أن أتحدث عن جملة واحدة فقط، وقِس عليها باقي الجمل، وهذه للتاريخ، حتى نحفظَ للناس حقوقهم، عندما تحدثنا عن منظمة التحرير الفلسطينية، وتحدثنا عن الإطار المؤقت الفلسطيني الذي سيرأسه محمود عباس بصفته رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، وستكون معه كل الفصائل الفلسطينية حتى غير المنضوية تحت رئاسة منظمة التحرير مع رئاسة المجلس الوطني، حينها كان هناك سجال كبير، فأضافت الجبهة الشعبية جملة وتم إقرارها. تقول: هذا الإطار توصياته وقراراته لا تقبل التعطيل ولا التأجيل من أي جهة كانت؛ لأنها إجماع وطنيٌ جرى التوافق عليها. هذه الجملة سقطت من موضوع منظمة التحرير الفلسطينية، هذه الجملة التي وافقنا على إضافتها إلى هذا الإطار. انظر إلى أهميتها عندما تسقط هذه الجملة؛ فهذا الإطار الذي تحدثنا عنه سيكون مرجعية وإطاراً مؤقتاً للشعب الفلسطيني دون إنقاص مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية حقها، هذا الإطار الذي سيجتمع لأول مرة في تاريخ الشعب الفلسطيني برئاسة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، سيتحدث عن القضايا المفصلية والإستراتيجية للشعب الفلسطيني؛ فإذا أنت جعلت لقاء هذا الإطار لقاءً تشاورياً ليس ملزماً، فكأن شيئاً لم يحدث؛ فأهم شيء في

هذا الإطار أنك شطبت الجملة التي تجعل قرارات هذا الإطار قرارات ضرورية وملزمة ولا يجوز تعطيلها؛ فعندما تشطبها كأنك قلت: إن هذا الإطار كله لم يعد قائماً، وللحق أقول: إن هذا الإطار يصب في مصلحة منظمة التحرير الفلسطينية والشعب الفلسطيني والفصائل، ويمكننا القول: هو أفضل ما يحققه محمود عباس في كل المصالحة الفلسطينية؛ أقصد: لو نظر محمود عباس بعينين منصفتين، لرأى أن الإطار القيادي يعطيه من المكانة ما لم يتحقق لأبي عمار نفسه؛ لذلك قلت: إن محمود عباس رجل غير تصالحي، وللأسف الشديد دائماً يفر إلى الأمام ولا يستطيع أن يواجه الأمور على حقيقتها ولا يتسع صدره للجميع.

هذه واحدة من الجمل، فما الذي سيضير الأخوة المصريين لو عادت هذه الجمل في موضعها؟ وما الذي سيضير الفصائل وحركة فتح وهي من وافقت على هذه الورقة؟ وكنت أتمنى على الجبهة الشعبية نفسها التي اطلعت على الورقة في وسائل الإعلام أن تقول: هذه الجملة التي أضفناها سقطت ونحن نطالب بوضعها. وكذلك جُمَل من هذا النوع. ومع ذلك أقول: هذه الجمل لها أهميتها ونحن نطالب أن تعود وعلى الإخوة المصريين ألا يذهبوا بعيداً بها ونحن جاهزون للتوقيع مع تعديل هذه العبارات من الآن.

البيان: لكن بعد أن وثقتكم بالجانب المصري، وتركتم له صياغة الورقة، ألا تشعرون الآن أنكم تعرضتم لخدعة؟

■ ليس بهذا المعنى، وإنما نعتقد أن الإخوة المصريين عندما تركنا لهم تقديم مشروع الوفاق الوطني، لم يتقصدوا تجاوز تلك الجمل، ومن هنا؛ فإننا ننظر إلى هذا الموضوع من باب حُسْن النية لا من باب سوء النية، ولكن هذا الاجتهاد أو السهو يجب أن يُعدَّل. هذا ما نطالب به. أما الإخوة المصريون فقد عهدناهم في كثير من المواضع وفي لجان الاتفاق حريصين على ألا يزيدوا كلمة ولا ينقصوا كلمة. ما كان يجري الاتفاق عليه في الجلسة يتم وَضْعه في محضر ويعود لنا مطبوعاً لا زيادة حرف عليه ولا نَقْص حرف.

البيان: قيل: إنكم تعرضتم لتهديدات شديدة من مصر إذا لم توقعوا على الوثيقة: كإغلاق معبر رفح إغلاقاً تاماً، وتدمير الأنفاق، وتشديد الحصار وغير ذلك من وسائل التهديد؟

■ أنا لم أسمع أن المصريين وجَّهوا لوفدنا تهديداً أو غير ذلك، لكن في اللقاء الأخير بين وفدنا وبين الوزير عمر سليمان كان الوزير مستفزاً؛ لأنه يريد أن يُمضي المصالحة، ولا يريد أن يعيقها أي أمر، وكان تقديرهم أن على حماس أن تستجيب لهذا الأمر؛ لأن تأجيل تقرير غولدستون في تقديرهم ليس نهاية المطاف وبإمكانكم أن تتجاوزا عن هذه القضية، حسناً: انتهينا من تقرير غولدستون، فجاءت هذه التعديلات، ومع ذلك لم أسمع أن المصريين هددوا وفد الحركة، ولكن بلا شك عندما تسوء العلاقة بيننا وبين إخواننا المصريين أو عند الاجتهاد في بعض الأحيان فإننا نجد انعكاس ذلك على الأرض؛ فهل هو مقصود أو أنه يتزامن مع ذلك بطريقة أو بأخرى؟ هذا الذي في بعض الأحيان لا نتفهمه، لكن المصريين يُفترض أنهم قد عرفوا أن حماس لا تستجيب: لا للتهديد ولا للضغوط وأن قرارها بيدها وجَرَّبونا بدل المرة مرات عديدة، ويفترض أن تكون مصر أكثر دولة سبرت غور حركة حماس وغور قيادة الحركة، وأنه يجب التعاطي معنا على أننا لسنا كغيرنا، إننا إذا قلنا كلمة نلتزم بها، وهذا ما يُلزِمنا بأننا عندما نريد أن نوقع على شيء يجب أن نحميه، نحميه أولًا في نفوسنا وأمام قواعدنا وجمهورنا، ومن هنا عندما سألتني عن الورقة المصرية أجبت بمنتهى الموضوعية: نحن نريد أن نوقِّع على

اتفاق نحمي كل كلمة فيه، ولا نريد أن نشعر أننا وقَّعنا على جملة واحدة رغماً عنا؛ لأننا لا نستطيع أن ندافع عنها أمام قواعدنا ولا أمام شعبنا.

البيان: ألا أتـرى أن حمـاس الآن في أصعـب أوقاتهـا وظروفهـا؛ فالضغوط تزداد على الحركـة، والحصار يكاد يخنـق النـاس في القطاع... مـا الأوراق الـتي لا تزال بيد حماس في ظل هذه الأزمة؟

■ أي مقاومة تواجه احتلالاً وقوىً ظالمة ومستكبرة، في يوم من الأيام، في أي بقعة مـن بقاع العالم ما كانت تواجه بحبوحة من العيش ورغداً منه، وإنما كانت تواجه مصاعب، وبنـاءً على ذلك ما تواجهه حركة حماس وفريق المقاومة في الشعب الفلسـطيني وفي الأمة يجد هذا العنت، ومنذ متى كانت حماس في بحبوحة من العيش من أول نشأتها؟ بل متى كان شعبنا الفلسطيني في بحبوحة من العيش في أي مكان؟ بل العكس.

أنا أقول: إن الشـعب الفلسـطيني اليوم في يده أوراق أفضل من غيره، ؛ فعلى سـبيل المثـال: لأول مرة في تاريخ الصراع يصبـح العدو الصهيوني مطالَب بجرائم حرب أمام العالم، ولأول مـرة تخرج المظاهرات ضد قيادات الاحتلال، ولأول مرة تُمتهن كرامـة رئيس وزراء صهيوني في نيويورك في قلب أمريـكا؛ اليوم أولمرت كلما دخـل جامعة ومحفلاً تلاحقه لعنـة حرب غزة وجرائم الاحتـلال، وهذه الصورة للاحتلال علينا أن نسـتغلها. ومن الذي صنع هذه الصورة؟ صنعتها المقاومة وصنعتها حماس، وأشـلاء ودماء الشـعب الفلسـطيني، في حين أن مسار التسوية اليوم في مأزق أكثر من أي وقت مضى، لذلك نقول: إن مسار التسوية في مأزق والاحتلال في مأزق ومصداقية أمريكا أمام العالم في مأزق وعلـى المِحك؛ فأولئك جميعاً في مـأزق. وإذا كانت حماس فـي أزمة، فهي أقل الأطـراف أزمة في المنطقـة، وأزمتنا جاءت من العبء الحقيقي والكبير الذي نحمله أمام شعبنا؛ لأننا مسـؤولون أمام شعبنا ونشعر بمشاعره وآلامه وأحزانه ونشـاركه أفراحه، هذا هو الألم الذي يؤلمنا وبناءً على ذلك خيارتنا كلها مفتوحة:

أولًا: علـى صعيد المقاومة: خيـارات المقاومة المحميَّة بالقانون السماوي والأرضي والشعبي قائمة وآفاقها مفتوحة في كل المواقع، وخيار المقاومة لو أردنا أن نحرك فيه قناعاتنا المبدئية، فإنه سيتسع في بقاع وأماكن متعددة، ومع ذلك نحن ما زلنا نحبس مقاومتنا داخل حدود الوطن،

ثانياً: إن خياراتنا في التعاطي السياسـي كلها مفتوحة: خياراتنا فـي الانتخابات مفتوحة؛ فنحـن الأحرار وغيرنا المأزوم والحبيـس، وبإمكاننا أن نشـارك في الانتخابات أو نقاطعهـا، أو نُجري انتخابات، وأن نذهب للمصالحة وأن نقدم تنازلًا جديداً؛ كل خيارتنا مفتوحة أمامنا، نحن من قَدَّم التنازل لشعبنا ولسـنا نادمين عليه، وكلما تعثرت المصالحة ندفعها للأمام، ولذلك بيدنا أن نحـرِّك كل الأوراق ولسـنا المأزومين، أما غيرنا فهو المأزوم، لو سـألت محمود عباس: ألسـت في أزمة؟ بل في أزمات: أين مشـروع حركة فتح؟ أين المشـروع السياسي لمحمود عباس الذي يدَّعي أن شعبنا أنتخبه عليه؟ أين الشعب الذي انتخبه؟ من انتخبه؟ ٢٦٪ ممن يحق لهم الانتخاب في الشعب الفلسطيني. إن رئيساً منتخباً من قِبَل ربع من له حق الاقتراع في الشعب الفلسطيني، عليه أن يدرك أن هذه هي شـعبيته، في حين أننا نحن المنتخَبون ولنا شرعية أكثر من ٦٠٪ من المجلس التشريعي، ولذلك هم المأزومون، وعليهم أن يدركوا الأزمة التي سيدخلونها.

غداً - إن شـاء الله - تتحقق المصالحة، وسـنرى من سينتخب الشعب الفلسطيني! ومن هو في مأزق!

وبنـاءً على ذلك أريد أن أطمئـن محبي حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وجماهيرنا وقياداتنا وعناصرنا أننا أكثر طَرَف في المنطقة في بحبوحة، لكن نحن متضايقون، وجرحنا غائر بسبب الجراح التي أصيب بها شعبنا؛ إننا كلما رأينا بيتاً مهدَّماً زاد ألمنا، كلما رأينا جريحاً لم يحظَ بالعلاج المناسـب آلامنا تتزايد، كلما رأينا أسيراً لم يتحرر آلامنا تتزايد، كلما رأينا لاجئاً يتضور جوعاً تحت حر الصيف وزمهرير الشـتاء نزداد ألماً، يؤلمنا مستقبل قضيتنا الفلسطينية، تؤلمنا القدس والمسجد الأقصى الذي يتعرض لأبشع حملة تهويد، كلما رينا الاستيطان يضرب أطنابه، وما نراه من الساسة الفلسطينيين الذين ينتسـبون إلى الشعب الفلسـطيني، هذا ما يؤلمنا في حركة حماس؛ ولذلك نسـتطيع أن نتحرك يميناً وشمالًا في المشهد السياسـي، ولكن أمانتنا والشعب الفلسطيني الذي حمَّلنا الأمانة هو الذي يدفعنا لأن نتخذ الخيارات الأصعب علينا في سبيل تحقيق المصلحة للشعب الفلسطيني.

البيان: كيف تقيِّـم العلاقة بين حماس ومصر: هل هي قطيعة بدليل عدم استقبال أي وفد من حركة حماس ؟

■ دعنـي أبيِّن ما هي سياسـة حماس تجـاه كل دول

الإقليم: نحن في حركة حماس نرى أن الإقليم كله (الوطن العربي والإسلامي بأكمله) وأحرار العالم هم رديفنا وعمقنا وظهرنا الذي يجب أن يحمينا؛ ولذلك حركة حماس حريصة على أن تبقى العلاقة في أفضل حال وأحسنه مع كل الدول، وهنا نخص بالذكر دول الطوق، وبناءً على ذلك نحن لا نفكر أبداً في أن تكون العلاقة مع مصر أو غير مصر في حالة قطيعة أو صدام، بل العكس؛ إننا نحرص دائماً علىأن تبقى العلاقة مع مصر وغيرها في أحسن الأحوال، أما تقييم الحالة الحالية؛ فهناك خلاف في موقف معيَّن لم يكن الأول ولن يكون الأخير. اختلفنا قبل ذلك وعدنا ورحنا وغدونا، لقد اختلفنا مع الإخوة المصريين على موقف ما، إلا أننا سنتجاوزه غداً بأي طريقة من الطرق، وعندما نتجاوزه، في نظري ستعود الأمور؛ فلا نحن نتخلى عن مصر، ولا مصر ستتخلى عن موقعها، ولا عن احتضانها للقضية الفلسطينية من موقعها كأكبر دولة عربية، ومن موقعها الذي قدَّمت فيه الشهداء في سبيل القضية الفلسطينية، ومن موقعها الأقرب والأكثر احتضاناً للشعب الفلسطيني على بوابته اليمنى، إن العلاقة مع مصر، علاقة ارتباط بدين وقومية وآلام وآمال ودماء اختلط الشعب المصري فيها بالشعب الفلسطيني، وبناءً على ذلك لا انفكاك ولا فكاك في العلاقة الطيبة والحميدة بيننا وبينهم، وإن عكر صفوها موقف هنا أو هناك، لكن سرعان ما تعود إلى أفضل أحوالها، أن شاء الله.

البيان: هل من جديد في صفقة الأسرى؟

■ ما أستطيع قوله: إن صفقة الأسرى تمضي، وعندما تتهيأ الظروف لنجاحها وتتم سنعلن ذلك أن شاء الله.

البيان: هناك حديث عن تجزئة بالصفقة؟

■ ليس لدي معلومات.

البيان: هناك حديث عن نية الجانب الإسرائيلي الإفراج عن معتقلي الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ والقدس بعيداً عن الصفقة، ولكن ضمن الصفقة؟

■ ليس لدي معلومات تفصيلية عن ذلك، ولكن ما أعلمه بشكل عام أن هناك مفاوضات تجري، تتقطع وتمشي، ولكن نحن مصرُّون كفصائل أسرت الجندي الصهيوني على مطلبنا العادل في هذا الموضوع، وإن شاء الله - تعالى - تخضع إسرائيل لهذه المطالب العادلة وتمضي الصفقة، ونحن نقول لهم: نحن نريد إمضاء الصفقة بأسرع وقت ممكن، وتستجيب إسرائيل لهذه المطالب العادلة وتنتهي المعاناة لكل الأطراف.

البيان: كيف تنظرون إلى المواقف التركية الأخيرة تجاه دولة الاحتلال؟

■ الموقف التركي موقف إنساني وأصيل يتحدث عن دولة تحترم نفسها وتحترم الحريات وحقوق الإنسان وتحترم أصالة شعبها الذي ينتمي إلى هذه الأمور، وهذا يعني: أن القيادة التركية اليوم ملتحمة بمشاعر الجمهور، وهي تمثل القيادة الناجحة التي من حق كل شعب أن يعتز بها، ونحن نتمنى أن تكون كل قيادات الأمة مترابطة مع مشاعر جمهورها فضلاً عن مصالحها.

القائد الذي يقول: أنا لا أتجاوز مصالح شعبي. هذا القائد هو الذي يستحق الاحترام والتقدير من كل شعوب العالم فضلاً عن شعبه.

البيان: ألا ترى أنها تحاول البحث على مكانة في المنطقة بعد هذا الفراغ القيادي؟

■ إن من حق كل دوله في العالم أن يكون لها مصالح، وأن تحققها، ولكن أنا لا أرى ذلك بعيداً؛ ربما تتعرض تركيا نتيجة هذه المواقف لمحاصرة وهي تقدِّم هذه المحاصرة على أن تتناقض سياسات قيادتها مع مشاعر جمهورها.

ما هو الموقع الذي ستحظى به تركيا في العالم؟ أين هي مصلحتها؟ هل في العالم العربي المرتهَن للقرار الأمريكي والباحث عن موقع في المشروع الأمريكي أم في العالم الإسلامي المترامي الأطراف المتشعب المشاكل؟ باعتقادي تركيا تعود إلى جذورها إلى أصالة الموقف، وأنا أتمنى من كل قيادات الأمة العربية والإسلامية أن تأخذ مثل هذا الموقف الطبيعي والإنساني والأخلاقي والمبدئي. جدير بتركيا الشريفة قيادتها، والأصيلة بشعبها أن تأخذ موقعها الذي لا ينافسها فيه أحد، وأن تفعل كل زعمات الأمة العربية والإسلامية ما تفعله تركيا، نحن تمنينا أن يفعل الأمين العام لجامعة الدول العربية ما فعله أردوغان في دافوس، نتمنى على الزعامة الفلسطينية أن تفعل ذلك عند حقوق شعبنا.

يحرص بعض الناس على أن يشوه المواقف الأصيلة بالمصالح. ورغم أن المصالح تتقطاع إلا أنني أرى أن من مصلحة تركيا أن تغض الطرْف بعض الأحيان وقد تجد فسحة، لكنها تأبى إلا أن تقف بجانب المظلومين والمحرومين،

تدافع عن حق الشعب الفلسطيني.

البيان: هل تراهنون على الموقف التركي وتطوُّره إيجابياً تجاه القضية الفلسطينية؟

■ بلا شك؛ فإن المواقف التركية شكلت رافعة جديدة للقضية الفلسطينية وصوتاً جديداً يدوِّي في العالم الإسلامي والغربي؛ فعندما تقف تركيا صاحبة التاريخ والموقف الثقيل هذا الموقف؛ فإنها - بلا شك - تُحرج السياسات الإقليمية والمحلية والدولية، إن تركيا عندما تقف هذا الموقف ستشجع غيرها من الدول لحماية الحق الفلسطيني، وبناءً على ذلك أقول: إن المواقف التركية من القيادة التركية اليوم، تأتي في صف الحق الفلسطيني المشروع وإضافةً نوعية له، وآمل من الفلسطينيين بمجموعهم على اختلاف برامجهم أن يأخذوا من التجربة التركية درساً وان يغتنموا الفرصة ليطورها إلى الإمام.

البيان: هناك تخوُّف إقليمي من الدور التركي: هل أنتم مع هذا التخوف؟

■ أنا لست مع هذا التخوف، وإنما الذي يربط مصالح أمته ومصالحه الداخلية بالمصالح الخارجية والمساعدات الخارجية يقزِّم الأدوار دائماً، ويتخوف من أي دور.

لماذا لا يكون أولئك المتخوفون مثل تركيا؟ ما الذي يمنع الدول العربية والإسلامية كلها أن تنحو مثل هذا النحو؟ لماذا لا يفعلون ذلك؟ فتركيا كما تحاول أن تتوسط بين العدو الصهيوني وسوريا، فإنها تتوسط بين أطراف متعددة؛ فهي تحدد أين المصلحة وتجدها منحازة لنا كأمة عربية وإسلامية أكثر من أن تنحاز إلى غيرنا، ولذلك لست مع هذا التخوف، بل أتمنى أن تتشكل قاعدة جديدة للتحرك العربي والإسلامي لحماية الحقوق العربية والإسلامية، وتركيا تشكل رافعة وحاضنة لهذا المشروع، آمل أن تجد دعماً لها، وآمل أن لا يحدث في تركيا ما حدث أيام تجربة نجم الدين أربكان.

البيان: لو تخلت مصر عن موضوع الحوار، هل ترون في تركيا مرشحة لقيادة هذا المشروع؟

■ أولاً: مصر لن تتخلى عن موضوع الحوار.

ثانياً: العرب كلهم وكَّلوا مصر بهذا الموضوع، وبناءً على ذلك؛ فإن تركيا من يوم أن تدخلت كانت عاملاً مساعداً، ولم تتدخل منافسة، والإخوة المصريون يعلمون ذلك؛ ولذلك فإن تركيا ستكون عاملاً مساعداً في كل شأن من الشؤون العربية والإسلامية، هذا ما أتوقعه، ولن تكون منافسة لأحد ولا بديلًا عن أحد، وأرى أن تركيا ستكون إن فشلت الجهود المصرية - وأنا لا أتوقع ذلك - عاملاً مساعداً لإعادة الدور المصري إلى موقعه الطبيعي.

البيان: هناك أزمة لدى الإخوان المسلمين، سواء في الأردن أو مصر، وربما السبب في جزء منها حماس... كيف تنظرون إلى ذلك؟

■ أولاً في كل الأحزاب والحركات العالمية يحدث وُجهات نظر في كل قضية، نحن في حماس يحدث عندنا وجهات نظر؛ فلماذا تسليط الضوء على قضية الإخوان في مصر؟ ولمَ هذا الافتعال الإعلامي الكبير المهتم بها إقليمياً ودولياً، أنا سمعت تحليلات كثيرة، كل ما هنالك أنها قضية إدارية داخل الجماعة في حجمها الطبيعي وانتهت، يدخل فلان أو لا يدخل فلان، من حق الرئيس أو ليس من حق الرئيس... وتمضي بعد ذلك الامور، والأستاذ المرشد ما زال في مكانه ومكتب الإرشاد ما زال في مكانه والجماعة قائمة. هذه الضجة التي قامت ليس لها رصيد من الواقع، لكن هي السياسات الإعلامية الدولية المناهضة للأمة تسلط الضوء على ذلك.

أما إخوان الأردن فعندهم قضية داخلية يتناقشون فيها، وكما حدث في موضوع إخوان مصر جرى تسليط الأضواء عليها.

إذا كان هناك قضية عليها خلاف داخل الجماعة - لها علاقة بحماس، أو ليس لها علاقة بحماس - فإنها تناقش في أُطُر الجماعة، قد يختلف الناس عليها في لقاء مجلس شورى، وفي النهاية سيتفقون. ما هذه الضجة الكبيرة في حركة تختلف على قضية معينة؟

حركة فتح أقامت مؤتمرها السادس تحت حراب الاحتلال، وهيأت من الأجواء والنصائح الدولية من كل العالم، وبعد ذلك زوروا الانتخابات وبشهاداتهم يقولون ذلك، وقد قال لي أحد قيادات فتح من الذين شاهدوا الصناديق أغلقت مكان الصناديق: إنه جرى تغيير الصناديق، وتم الاعتراف بما أفرزته وبقدرة قادر يخرج فلان وفلان، هذه المسرحية الهزلية لا أحد يسلط الضوء عليها. وإنما تسلَّط الأضواء على قضايا ليست بالأمر الهام لإشغال الناس بها.

نص شعري

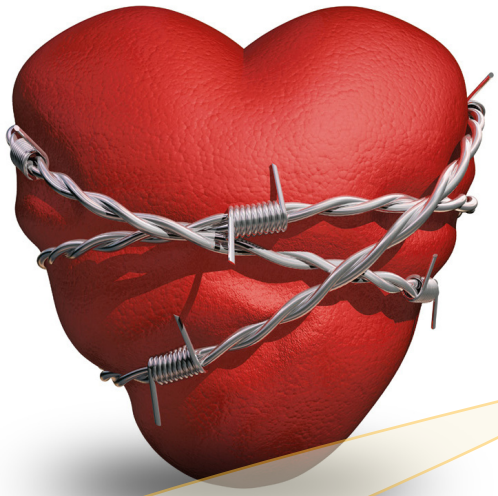

انْظُرْ لِقَلْبِكَ

مشبب القحطاني

كونوا جميعاً عبادَ الله إخواناً ... واستمسكوا بِعُرَى الإسلام إيمانا

واستنهضوا هِمماً أوهَتْ بها فتنٌ ... أودَت بصاحبها ذُلاً وخسرانا

إنَّا لفي سَفَرٍ نمْضي على عَجَلٍ ... للسَّعدِ موعِدنا تعدُو مطايانا

من عاش في سَعةٍ، فالمال مستلَبٌ ... يَكفيهِ غُسْلاً، وتحنِيطاً، وأكفانا

أو عاش مفتقِراً بالبُؤسِ مُكتسياً، ... فالله أكْرمَنَا بالحقِّ أغنانا

واللاهِثون إلى اللَّذات ما غنموا ... وإنْ بدا الزَّيفُ أشْكالاً وألوانا

والصابرون لهم من همِّهم فَرَجٌ ... لِلْعُسْرِ يُسرٌ، وعيْن الله ترعانا

والعمرُ يُطوى وأيامُ الفتى دولٌ؛ ... فهل نظنُّ بأنَّ الموت ينسَانا؟

وللزمان صُروفٌ كلُّها كَدَرٌ ... أمْسى الحليمُ لِمَا يَلقاهُ حيرانا

ندافعُ الشرَّ بالحُسنى فَإنْ عظُمَتْ، ... فالشَّرُّ يَدفعُ بعضَ الشَّرِّ أحيانا

والذَّنبُ كالذِّئبِ لا تأمنْ غَوائلَهُ ... هلْ رانَ قلبكَ تسويفاً وعِصيانا؟

❊ ❊ ❊

دُنياكَ دارُ فناءٍ لا بقاء لها ... مَهما يكُن حُسنُها الخدَّاعُ فتَّانا

تُغنيكَ عن زُخرُف الدُّنيا، وزينتها ... جِنَانُ خُلْدٍ زهتْ روحاً ورَيْحانا

لولا البِشاراتُ أنَّ الدِّين مُنتصرٌ ... والفجرُ يَغْسِلُ بعد الليل بَلْوانا

لَمَا تفاءَلَ في دُنيا الهوى أحدٌ ... فحَالُ أمَّتِنا في التِّيهِ أبْكانا

يا أمَّتي! لن يَضِلَّ الرَّكبُ إن طهُرتْ ... نُفوسُنا وعلى التَّوحيدِ لُقيانا

ما أهنأ العيشَ والإسلامُ منهجُنا ... وقَائدُ الرَّكب أخشانا وأتقانا!

إلهنا! يا ملاذَ الخائفينَ! وفي ... ظلال عفوك ألْقينا خَطَايانا

هيِّئْ لنا رُشْداً تزْكُو النُّفوسُ بِهِ ... بكَ التَجأنا، ومِنك الفضلُ مولانا

- المصالحة الفلسطينية... كعب أخيل المقاومة
أمير سعيد

- الأسيرات لدى العدو الصهيوني (تقرير)
نائل نخلة

- قصة قصيرة... عفواً طويلة جداً
أحمد فهمي

- التفوق الشيعي!
أنور قاسم الخضري

الآن..

" من لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أُغلق عليه باب التدبر "

بدر
٠٥٠٨٩٤٨٩٤٧

الرياض ـ هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١

المشاريع ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢-٠٥٠٢٢١٠٩٢٠- ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦- ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥-٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

المصالحة الفلسطينية... كعب أخيل المقاومة

أمير سعيد
amirsaid@gawab.com

الانطباع الذي تتركه كلمة: «مصالحة فلسطينية» لم يعد يواطئ مدلولها الحقيقي لدى بعض الفلسطينيين والعرب ممن لم يبقوا مغترين بوقعها التفاؤلي، بل مندفعين باتجاه النظر إليها كتعبير أغربت دلالته في بحر أوهام الاستسلام والخضوع لمنهج الاستسلام ذاته.

فلا المصالحة الفلسطينية حاصلة في ظل غياب الأرضية الصالحة لها، ولا التعبير ذاته بقي رياناً يحمل البشائر للقضية الفلسطينية التي ما انفكت تعالج مشاكلها الداخلية بأكبر مما تفرضه عليها استحقاقات التحرير من الاحتلال الصريح.

إن مصطلح المصالحة غدا جسراً إلى إلغاء أبجدية المقاومة، وفرضاً لنمطية الانهزام، وتقبُّلاً لإملاءات الرباعية وخامستها الصهيونية، ولم يعد يحمل على الفأل؛ سواء أتمت المصادقة على بنوده المقترحة أم لم يحدث؛ فحيثما لا تحضر المقاومة تبطل المصالحة، ولا يستقيم تلاقي خطين متوازيين ومتعاكسين معاً.

والفصائل الإسلامية والوطنية الشريفة التي تُدعى إلى الإدلاء برأيها بشأن اتفاقية الوفاق الوطني الفلسطيني، سواء قبل التعديل أو بعده، مخيرة بين الموافقة على صكٍّ بإلغاء المقاومة الفلسطينية، تضمَّنه نص يتحدث عن إلغاء كافة «الميليشيات» خارج إطار قوى الأمن التي يشرف عليها رئيس السلطة الفلسطينية طبقاً لهذا البند قبل التعديل (أي: قبل إطلاق كلمة الميليشيات على أجنحة الفصائل المقاومة) والذي يقول: «يُحظر إقامة أي تشكيلات عسكرية خارج إطار الهيكل المقرر لكل جهاز»[1]، وغيره من البنود التي لا تقبل بها تلك الفصائل في أدبياتها، أو التخلي كلياً عن «المصالحة الفلسطينية» بمعناها المتضمَن في الاتفاق.

(١) اتفاقية الوفاق الوطني الفلسطيني: ص٧ القاهرة ٢٠٠٩م.

إذن لقد غدت «المصالحة الفلسطينية» كعب أخيل للمقاومة، سواء جرى التوقيع عليها أو رفضُها، وبالذات لحركة حماس التي حُشرَت في زاوية التنكر للديمقراطية التي أتت بها إلى الحكومة والمجلس التشريعي، والرغبة في استمرار الانقسام، والعمل لحساب الخارج، كما تُلمح وسائل إعلام الوسطاء، أو الانتحار قيمياً وأخلاقياً وسياسياً وعسكرياً أيضاً في حال قبلت الانخراط في مشروع المصالحة الآني.

على الحركة أن تتصالح مع غيرها، وتتصارع ساعتئذٍ مع ذاتها، وتدير ظهرها لأدبياتها ونضالها، وهي - مع ذلك - لا تضمن صيرورة الاتفاقية حال توقيعها التزاماً لطرفَي المصالحة حتى في حدودها الدنيا التي تتمثل في بعض إيجابيات الاتفاقية.

والذي يترجح بين المعقول وغير المعقول، والواقعي والسريالي، هو المضي قُدُماً في مصالحة لا تستند إلى أرضية مشترَكة للمتصالحين، وتحفُّها الاتهامات المتبادَلة، ما بين: الخيانة والاستسلام وعدم الشرعية من جهة، والظلامية والانقلابية والانتحار من جهة أخرى. هذا عن الملاسنات اللفظية، أما بالنسبة للمضمون؛ فهو الخلاف حول المشترَك الأساسي بين طرف يعلي من قيمة المقاومة، وآخر يعدُّها تراثاً بائداً وعبثية لا طائل من ورائها... بين فصائل مقاومة، وميليشيا تسعى إلى تصفيتها بكل ما أوتيت من دعم أمريكي و «إسرائيلي» وعربي.

وإزاء معادلة صِفرية، يتعذر فيها الجمع بين الشيء ونقيضه، وتَبعثُر أحلام المصالحة بهبوب عاصفة التدابر، وافتقار المتحاورين إلى طاولة يبسطون عليها أوراقهم المتنافرة، تبدو الردهة متسعة لحزمة من التناقضات التي لم تتمكن الاتفاقية في كل أطوارها من إيجاد حلول ممكنة لها، ومنها ثلاث قضايا رئيسية:

الأولى: الأمن: وهو في الحقيقة القضية الرئيسية التي فجرت الصراع بين حركتَي (فتح وحماس)، أو بين خط التفاوض إلى الأبد، والمقاومة بألوانها المختلفة. ولا شك - عندي على الأقل - في أن حماس لم تنخرط في العملية السياسية من الأساس، غاضة طرْفَها عن سقفها الأوسلوي، إلا حينما أدركت أنها بحاجة إلى ترتيب البيت الداخلي قبل العبور خطوات أكثر في طريق المقاومة، بل حينما رأت أنها عاجزة عن الاستمرار في خطها بعد اغتيال أهم وأكبر زعمائها وقيادتها السياسية والعسكرية، وأبرز عناصرها التالية، وحَشْرِها في زاوية الهدنة، ثم الانخراط في العملية السياسية، التي عدَّتها حماس استراحة محارب تمكِّنها من التقاط أنفاسها وإعادة بناء عناصرها وتأهيل ساستها، والمحافظة على بنيتها، والتخفيف من ضغط الداخل «الأوسلوي» عليها، سواء أكان بكثرة الاعتقالات والضربات الأمنية الإجهاضية التي كان ينفذها جهازا الأمن الوقائي: في الضفة (جبريل رجوب)، وغزة (محمد دحلان)، أم بكثرة الوشايات ضد عناصرها المطلوبة والمطارَدَة من قِبَل «إسرائيل»، وكان يتعذَّر على الحركة ملاحقة عملاء الكيان الصهيوني حينها؛ لأن قِسْماً منهم - ببساطة - كانوا من داخل الأجهزة الأمنية «الشرعية»، ومن ثَمَّ وجدت حماس نفسها بحاجة إلى غطاء شرعي، وإلى تولِّي أمر الأجهزة الأمنية بذاتها، أو - على الأقل - تعويقها عن تنفيذ سياسة «تجفيف المنابع» التي كانت تتبعها السلطة الفلسطينية بدءاً من إغلاق الجمعيات الخيرية إلى كشف الملاحقين «إسرائيلياً» وتسليمهم، (كما حدث في عملية تسليم خلية صوريف).

ولما نجحت في انتخابات المجلس التشريعي في ٢٠٠٦/١/٢٥، عملت على إعادة ترتيب وَضْع الأجهزة الأمنية بما يتيح لحماس قَدْراً معقولاً من التمثيل بها في ظل هيمنة من الدايتونيين (حلفاء وأتباع الجنرال الأمريكي دايتون المسؤول عن تدريب الأجهزة الأمنية للسلطة الفلسطينية) على تلك الأجهزة، وحيث إنها عجزت عن تحقيق ذلك بشكل نظامي، شكَّل وزير الداخلية «القوة التنفيذية» لتحقيق توازن أمني مع الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة الفلسطينية، وهو ما أدى إلى الرد السلطوي عبر ميليشات غير نظامية بإحداث ما سُمي بالفلتان الأمني، وهو ما استدعى الحسم العسكري من قِبَل حركة حماس، والذي نفذته كتائب القسام

في ٢٠٠٧/٦/١٤ بالسيطرة على جميع مقرات أجهزة أمن فتح ومربعاتها الأمنية.

والواقع أن الحركة ما كانت لتصمد في مجزرة العدوان على غزة في الشتاء الماضي (ديسمبر ٢٠٠٨ - يناير ٢٠٠٩) لو لم تكن قد أمَّنت الجبهة الداخلية في غزة، وما استطاعت أن تبني جيشاً مصغراً، وتُنوِّع من تكتيكاتها العسكرية والأمنية، وتطوِّر أداءها لو لم تكن قد حققت قَدْراً معقولاً من الاستقرار في غزة، وهو ما جعلها رقماً أصعب مما مضى، والثابت أيضاً أن حماس لم تتحرك للحسم في غزة إلا عندما وجدت نفسها في وضع صعب في الضفة الغربية التي مضى فريق السلطة بخطى حثيثة في مساعيه لإخراجها نهائياً من معادلة القوى في الضفة، وبناءً على ذلك فضلت الاستئثار بغزة مع استحالة إيجاد وضع توافُقيٍّ في الضفة ذات الطبيعة السكانية والأمنية المختلفة تماماً.

إذن نحن إزاء احتكار أمني للسلطة في الضفة، وآخر لحكومة حماس في غزة، وفي الوقت الذي لا تقبل فيه السلطة الفلسطينية و «إسرائيل» والرباعية وبعض الدول العربية شراكة أمنية في الضفة؛ فإن المطلوب فقط أن تقبل حركة حماس بتسليم الأجهزة الأمنية في غزة إلى السلطة الفلسطينية، وهو ما يرنو إليه الاتفاق الذي ترعاه القاهرة؛ حيث يؤكد على ضرورة دمج القوى الأمنية النظامية التي لا ينص عليها القانون الأساسي في الأجهزة الأمنية، ثم جرى تعديل ذلك أيضاً ليشمل حل ما دعاه بـ «الميليشيات» غير النظامية، والذي رفضته بالطبع مجمل الفصائل المقاوِمَة: كالجهاد والشعبية فضلاً عن حماس.

الثاني: منظمة التحرير الفلسطينية: وهي المشكلة المزمنة التي لا تسعى حركة فتح (كبرى الفصائل الممثَلة فيها) لحلها؛ حيث لم تعد تمثل الشعب الفلسطيني بتركيبته الحالية، ورغم أن اتفاق المصالحة ينص على: «تفعيل وتطوير منظمة التحرير الفلسطينية وَفْقَ أسس يتم التراضي عليها؛ بحيث تضم جميع القوى والفصائل الفلسطينية وَفقاً لاتفاق القاهرة في مارس ٢٠٠٥، وكما ورد في الفقرة الثانية من وثيقة الوفاق الوطني يونيو ٢٠٠٦ فيما يتعلق بتطوير وتفعيل منظمة التحرير الفلسطينية وانضمام كل القوى والفصائل إليها وَفْقَ أسس ديمقراطية ترسِّخ مكانة منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد لشعبنا في أماكن تواجده كافة»[1]. والطريف أنه عند البحث في الاتفاق والوثيقة السابقين المشار إليهما في الاتفاق، نجد أن:

أحدهما: ينص على «الإسراع في إنجاز ما جرى الاتفاق عليه في القاهرة في مارس ٢٠٠٥ في ما يتعلق بتطوير وتفعيل منظمة التحرير الفلسطينية وانضمام حركتَي (حماس والجهاد الإسلامي) إليها»[2].

والثاني: ينص على أنه قد «وافق المجتمعون على تفعيل وتطوير منظمة التحرير الفلسطينية وَفْقَ أسس يتم التراضي عليها...»[3]، وما يتبع ذلك لا يروي ظمأ التواقين لوضع سقف زمني محدد وملزم، ومؤثر على النقاط الأخرى التي أخذت حظاً أوفر من الإلزام والفعالية، وهو ما يعني: أنه بناء على النقطتين السابقتين؛ فإن على حماس أن تحل القوة التنفيذية في غزة، وتعيد العناصر الأمنية المتهمة بإحداث الفلتان الأمني في غزة، وتستقيل من الحياة في غزة في مقابل وعد معلَّق بكلمات: «التفعيل» و «الإسراع» و «التطوير».

هذا مع اعتبار أن المنظمة ذاتها لم تعد - في أحسن حالاتها - ورقة اعتبارية تستأهل التضحية من الحركة ولا حتى من أصغر فصيل مقاوم، عدا القوى الكرتونية أو عاشقي نضال الفنادق في أوروبا؛ إذ لا تستشار المنظمة - وهي في حيازة فتح - في قرار مصيري، وآخرها تقرير جولدستون، ولا يؤبه لها، هذا مع هيمنة الفتحاويين عليها؛ فكيف إذا شاركهم فيها غيرهم بشكل فعال؟

الثالث: الانتخابات التشريعية والرئاسية: يَعدُّ بعض المتابعين للشأن الفلسطيني أن هذه القضية، هي أهم

(١) اتفاقية الوفاق الوطني الفلسطيني: ص٢ القاهرة ٢٠٠٩.
(٢) وثيقة الأسرى: ٢٠٠٦/٦/٩.
(٣) إعلان القاهرة: ٢٠٠٥/٣/١٧.

مـــا تقدِّمه الورقة لنظام عباس؛ لأنهـــم يعدونها القادرة على منحه شـــرعية فقدهـــا – رغـم عدم اعترافـــه هو وحركته بذلك – في ينايـــر ٢٠٠٩ عندما انتهت مدة ولايته، وبقي في السلطة دون إجراء انتخابات، وهي البوابة التي يريد الجميع أن تخرج منها حركة المقاومة الإســـلامية مثلما دخلت منها، عبر نجاحها في انتخابات ٢٠٠٦ بنســـبة مكنتها من تشـــكيل الحكومة الفلسطينية، وبناءً على ذلك؛ فإن الحل الوحيد يكمن في فشـــل أو إفشال حماس في انتخابات ٢٠١٠ عبر انتخاب حرٍّ أو مزوَّر.

ويحـــدد الاتفاق موعداً لإجراء تلك الانتخابات في البند الثاني بالنص الآتي: «تُجرى الانتخابات التشريعية والرئاسية والمجلس الوطني الفلســـطيني متزامنة يـــوم الإثنين الموافق ٢٠١٠/٦/٢٨ ويلتزم الجميع بذلك»[١]، ويجري تشـــكيل لجنة الانتخابات عن طريق عباس وَفْقاً للاتفاقية، كما يلي: «عملًا بما جـــاء في قانـــون الانتخابات يقوم الرئيس الفلســـطيني بتشـــكيل لجنة الانتخابات بناءً على المشاورات التي يقوم بها وعلى تنسيب القوى السياسية والشخصيات الوطنية»[٢].

غير أن عباس اســـتبق ذلك الموعـــد، حين فاجأ الجميع بتحديـــد موعد مبكر لإجراء الانتخابـــات، لا يتوقع كثير من المراقبـــين قدرته على تنفيذ وعده بإجرائها في الموعد المحدد من قِبَله، وهو ٢٠١٠/١/٢٤؛ لأسباب تتعلق بكون ذلك الموعد هـــو من قبيل التهديد أكثر من كونـــه واقعياً، كما أنه يناقض صراحة توقيع فتح على الورقة المصرية، وأيضاً خشية الرجل ومعاونيـــه، من أن يُجْـــري انتخابات بالضفة قـــد تأتي وَفْقاً لظـروف غير دقيقـة من جانـــب قـواه الأمنيـــة بمعـارضـين له ولو من داخل فتح ذاتها.

على كل حـــال؛ فالموعد المحدد في الاتفاق هو آخر يونيو القادم، ولعل المأخذ الأساســـي لدى حماس على الاتفاق في ذلك يتعلق بمنح عباس وأجهزتـــه فيها كل الصلاحيات التي تؤهلـــه للتأثير في ســـير الانتخابات، لا ســـيما تلك المتعلقة بتشكيل لجنة الانتخابات وتشكيل محكمة قضايا الانتخابات.

وإذا كانـــت الاتفاقية – للأمانة – ليســـت مســـؤولة عن إنجاز كل حيثياتها التي تعوزها لجان مشتركة، وجهود أخرى، إلا أنها كمـــا تقدَّم لا تمنح كلا الطرفين قَدْراً متســـاوياً من الحقوق والواجبات، وبالمناسبة هي لم تأت على ذكر الحكومة الفلسطينية في غزة، على أساس أنها غير موجودة أو مقالة، وبذلك تكون الاتفاقية قد ثبَّتت محمود عباس كرئيس للسلطة الفلسطينية، مع أن الشرعية الانتخابية التي جاءت الاتفاقية لتبشـــر بها، لم تزل لحركة حمـــاس صاحبة أكبر نصيب في المجلس التشـــريعي الذي لم تنقضِ مُدَّته، على عكس مؤسسة الرئاسة الفلسطينية التي تعمل في الوقت الضائع بعد انتهاء ولاية عباس منذ ما يقترب من عام.

والملاحظات الســـابقة تليها أخرى تتعلق بحيثيات جزئية، لكنهـــا بالغة الأهمية، ويجـــدر إلحاقها بتلـــك القضايا الآنِف ذكرها:

• الأجواء التـــي تُظلل هذه الاتفاقية لا تبعث على الارتياح والطمأنينـــة اللازمين لإنضاج وثيقة قابلة للتنفيذ؛ فلقد عمل عباس على إثر إعلان فتح عن قبول الاتفاقية على شن هجوم عنيف على حركة حماس متهماً إياها بـ: «الإمارة الظلامية»، وتوالت الهجمات اللفظية من العديد من أركان نظامه كياسر عبد ربه وآخرين. والاتهامات الإعلامية والرسمية الفتحاوية لحماس لا تحمل علـــى الاعتقاد أن التوقيـــع على الاتفاقية سيجد نصيبه من التنفيذ.

• وقضية المعتقلين من حركتَي (حماس والجهاد الإسلامي) لدى نظام السلطة الفلسطينية في رام الله، لا تعطي أي زخم لقضية الانتخابات إن جرت في يونيو فضلاً عن تقديمها إلى يناير القادم، والنصـــوص التي حملتها الاتفاقية غائمة تماماً فيما يخص ملف المعتقلين السياسيين في الضفة والذين يزيد عددهم عن ٦٥٠ معتقلاً معظمهم من حماس. وبعودة إلى نص الاتفاق نجده يقول:

– «تقـــوم كلٌّ من حركتَي (فتح وحمـــاس) بتحديد قوائم

(١) اتفاقية الوفاق الوطني الفلسطيني: ص٤ القاهرة ٢٠٠٩م.
(٢) اتفاقية الوفاق الوطني الفلسطيني: ص٥ القاهرة ٢٠٠٩م.

المعتقلين طبقاً لآخر موقف، ويتم تسليم مصر ومؤسسة حقوقية (يُتفق عليها) نسخة منها بعد التحقق منها (أي: تثبيت الأعداد والأسماء) قبل التوقيع على اتفاقية الوفاق الوطني.

– يقوم كل طرف بالإفراج عن المعتقلين الموجودين لديه من كافة الفصائل فور توقيع الاتفاقية.

– في أعقاب عملية الإفراج عن المعتقلين يقوم كل طرف بتسليم مصر قائمة تتضمن أسماء أولئك المعتقلين المتعذر الإفراج عنهم وحيثيات عدم الإفراج ورفع تقارير بالموقف لقيادتَي (فتح وحماس).

– بعد توقيع الاتفاقية تستمر الجهود المبذولة بمشاركة مصرية لإغلاق ملف الاعتقالات نهائياً»[1].

وبناءً على ما تَقدَّم؛ فهو يترك مسألة الإفراج تقديرية لما يكتنف مصير من يُدعَون بـ «المعتقلين المتعذر الإفراج عنهم» من لبسٍ وغموض. ويرفع تقارير لقيادتَي الحركتين، بما لا يضمن إفراجاً عنهم في النهاية، وكان من المنطقي أن يسبق الإفراجُ عن المعتقلين السياسيين التوقيع على الاتفاق على أنه الجزرة الممنوحة لحماس في مقابل حزمة من الجزر أعطيت بسخاء للسلطة الفلسطينية التابعة لفتح.

• كل ما يتعلق بضمانات إجراء انتخابات نزيهة في الضفة الغربية بالذات لا يبعث على الارتياح لدى حركة حماس، ولا حتى غيرها؛ إذ إن جملة من يُتوقع حضورهم كمراقبين للعملية الانتخابية، هم في الغالب من الكارهين للحركة، وبعضهم لا يعدُّها سوى حركة إرهابية يستحق الشعب الفلسطيني عقاب الحصار والدمار على انتخابها، وما قد يُعتذر به من أن هؤلاء أنفسهم ربما راقبوا العملية الانتخابية في ٢٠٠٦ لا يزيل خشية المتحفظين، كون حركة حماس ذاتها قد تمكنت من حماية خيارها الانتخابي حينها وَفْقاً لشهادة أحد المرشحين السابقين، وهو د. فايز أبو شمالة؛ حيث قال: «لقد عملت حركة حماس حساب كل صغيرة وكبيرة قد تُشوِّه نتائج الانتخابات، بدءاً من تحضير شاحن الإنارة فيما لو قطعت الكهرباء، إلى ترتيب المندوبين في كل لجنة، وعلى كل صندوق، وبث العيون في كل مكان لمتابعة الأحداث، وليس انتهاءً برجال لا تراهم العين المجردة، ولكنهم موجودون بأسلحتهم الرشاشة في محيط صناديق الاقتراع، يحرسونها من بعيد لبعيد، خشية مندسٍّ، أو مزوِّرٍ، أو متلاعبٍ، أو حالم بالفوز الكاذب».

وثمة نقطة خطيرة تتعلق بالرقابة على الانتخابات قد لا تكون باعثة على التفاؤل بشأنها، كون تلك الرقابة قد أخفقت أو تواطأت في انتخابات عديدة مثل: الانتخابات الرئاسية الأفغانية، والعراقية، وذلك لا يجعلها فوق مستوى الشبهات، لا سيما أن طريقة اختيار المراقبين ستمر ببوابة عربية ليست «دقيقة» في هذا المجال أيضاً، وبعد نجاح السلطة الفلسطينية المنتهية ولايتها في تسديد ضربات موجعة للحركة واستمرارها في أداء هذا الدور؛ فإن الحركة في الضفة ستخوض الانتخابات – إن فعلت – وظهرها للحائط، ويلخص الأسير أنور زبون خشية الحركة من حدوث ذلك بقوله: «إن الهجمة الشرسة التي تقوم بها سلطة رام الله غير الدستورية بقيادة الجنرال دايتون على حركة حماس في جميع أنحاء الضفة الغربية، لهي خير برهان على أن حركة فتح – حقيقة – غير جادة في طرح الانتخابات؛ إلا إذا كانت هي متأكدة من تزويرها لتحقيق فوز وهمي؛ فالانتخابات الحرة والنزيهة بحاجة إلى تهيئة أجواء وسيادة الروح الديمقراطية بين المواطنين، وكيف يتحقق ذلك، والتحقيق والتعذيب ينهمر على رؤوس أبناء حماس وقيادتها واستمرار كشف الهيكلية التنظيمية ومقدرات الحركة للاحتلال، والأمر لا يقف عند هذا الحد، بل محاسبة أبناء الحركة على مشاركتهم في الانتخابات التشريعية السابقة إعلاناً ودعاية ومشاركة بأي شكل من الأشكال، وحتى المشاركة في انتخابات الجامعة يحاسَبون عليها، وما يجري الآن من فصلٍ تعسفيٍّ للموظفين على خلفية سياسية دون ذنب، والتهديدات للمواطنين بشكل عام بعدم الاقتراب من أبناء الحركة ومكاتب نوابها، وما اعتقال موظفي مكاتب النواب الأخير إلا خير دليل على

(١) اتفاقية الوفاق الوطني الفلسطيني: ص٢١ القاهرة ٢٠٠٩.

ذلـــك»، وهي مســـائل إذا ما أضيف إليهـــا رَفْض حركة فتح مشـــاركة حماس السلطة لدى نجاح الأخيرة، ووضع العراقيل لإفشال حكومتها بما في ذلك الصمت إزاء العدوان على غزة – وربما تشـــجيعه وَفْقاً لروايات حمـــاس – ومحاولة اغتيال رئيس الحكومة الفلســـطينية (إســـماعيل هنية) في ديسمبر ٢٠٠٦ لـــدى عودته من جولة خارجيـــة، والفلتان الأمني في أعقاب نجاح حماس خلال كل المـــدة التي تلت نجاح الحركة في أوائل عام ٢٠٠٦ وحتى الحسم العسكري في غزة بعد ١٨ شهراً، وفضيحة تأجيل تقرير جولدستون، وفضيحة لجنة أول أكتوبر بشـــأن التحقيق فيها، والتي لم تُشـــكَّل لحد الآن رغم مرور الأسبوعين المعلنَين من قِبَل عباس عنها، والفضائح التي فجرها رئيس الدائرة السياســـية لمنظمة التحرير الفلسطيني (فاروق القدومي) بشأن ضلوع رموز السلطة الفلسطينية في قَتْل رئيسهم ياسر عرفات، واعتقاد الحركة عدم إيمان عباس بالديمقراطية وتطبيق القانون، لتشـــكيله حكومة طوارئ دون أي سند دستوري في عام ٢٠٠٧ برئاسة فياض (رفضها حتى كثير من الفتحاويين)، واستمراره في الحكم لمدة تقارب العام دون أي سند دستوري أيضاً، وما اكتنف الانتخابات الداخلية لفتح ذاتهـــا من تجاوزات واضطرابات، إضافة إلى سلســـلة طويلة من الممارسات، كل ذلك لا يفتح شهية حماس للتعاطي الإيجابي مع دعوات الانتخابات.

• وجود إجماع من أهم الفصائل الفلســـطينية على رَفْض توقيع الاتفاقية بوضعها الحالي.

إن إضافة تعديلات من قِبَل الوسيط المصري طرأت على ما وافقـــت عليه حماس تحتاج إلى «تدقيق» بحســـب رئيس المكتب السياســـي لحماس (خالد مشـــعل)، وكذلك تحفظات أخـــرى للجهـــاد تتعلق بمصير جناحها العســـكري (ســـرايا القدس)، وقـــال جميل مزهر عضو الجنـــة المركزية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عن الاتفاقية: «إنها لم تتضمن حق العودة للاجئين الفلســـطينيين ولا حق شـــعبنا في المقاومة»، وأبدى تحفظه على اللجنة المشـــتَرَكة وآلية تشكيلها وطبيعة النظام الانتخابـــي، وكذلـــك وجدت الجبهـــة الديمقراطية لتحـــرير فلســـطين ٤ اعتراضات على الاتفاقية – لم تكشف عنها – تدعوها إلى إعادة النظر في الاتفاقية.

وبطبيعة الحال؛ فإن الاتفاقية تتضمن نقـــاطاً إيجـــابية، لا ســـيما تلك المتعلقة بالجمعيات الأهليـــة، والإفراج عن المعتقلين (ولا شك أن قسماً من المعتقلين سيُفرج عنم حال التوقيـــع عليها ولو كان دون الطموح المأمول)، غير أن الأمر يتعلـــق بأزمة ربما يتعذر حلها فـــي الوقت الحالي؛ لوجود حركتـــين قد بدتا متباعدتين عن بعضهما أكثر من أي وقت مضى، وغدت الهوة بينهما أوســـع مـــن أن تُردم، لكن يبدو في المقابل اســـتحقاقات وضغوط لا يمكـــن لصناع القرار في كلا الطرفين تجاهلها، وهي المتعلقة بالتوقيت الســـيئ لهذا الوضع الشاذ المفضي إلى استئثار الصهاينة بالمسجد الأقصى، وغياب أجندة مقاومة يمكنها لجم «إسرائيل» عن المضي في خلخلة أُسُسِه، وتعدد الاقتحامات بشكل مستفِز قاهر، ومحفِّز على اندلاع سلســـلة من الانتفاضات بَيْد أنه لا يحدث شـــيء من ذلك، بعد أن نجحت إجراءات داخلية وخارجية في شل الضفة الغربية تماماً عن العمـــل المقـــاوم، وكذلـــك قضية الحصـــار الـــذي لم يزل يعاني منه الغزيون، وعـــدم حل قضية المعابر حتى الآن، واهتزاز صورة القضية الفلســـطينية وفصائلها بكل أطيافها نتيجة حالة الانقسام بين الضفة وغزة، كل ذلـــك انعكس على قضايا: الأقصى، واللاجئين، الأوضاع المعيشـــية في الداخل الفلســـطيني، والانسداد الذي تعيشه المقاومة الفلسطينية، وازدياد الهوة بين أبناء الشعب الفلسطيني بغض النظر عن سلوك القادة، ونجاح الصهاينة في اســـتغلال الموقف الفلسطيني المتأزم لصالحهـــم عبر إضعـــاف الأطراف كلها بمـــا فيها طرف السلطة الفلسطينية المنقضية ولايتها ورئيسها عباس، ذاك الذي وصفه وزير التعليم «الإسرائيلي» الأسبق وزعيم حركة ميريتس يوســـي ســـريد بالقول: إنه يمكن اعتبار محمود عباس «إنســـاناً ميتاً، وإن الذين قتلوه هما: رئيس الوزراء نتنياهـــو ووزير الحرب بـــاراك. إن كل ذلك يحدث عندما يريدون تحويل شريك إلى عميل».

الأسيرات لدى العدو الصهيوني (تقرير)

نائل نخلة

كشفت الأسيرة المحرَّرة (هيام البايض) ٣٤ عاماً في مقابلة خاصة مع مجلة البيان عن إجبار السجانات في المعتقلات الصهيونية الأسيرات على التفتيش العاري.

وقالت البايض: «إن كل أسيرة فلسطينية تدخل أو تخرج من السجن المخصص للنساء تُجْبَر على التفتيش العاري من قِبَل شرطيات السجن، وفي حال رفضت الأسيرة هذا الإجراء يدخل الرجال إلى الغرفة مهدِّدين بإرغامها على التفتيش العاري بالقوة، وبحضورهم، مما يضطر الأسيرة إلى التفتيش العاري في غرفة مغلقة بحضور مجندة واحدة فقط».

ظروفاً صعبة تعيشها ٣٣ أسيرة فلسطينية موزعة على سجنين مخصصَين لهن داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ هما: سجن تلموند قرب مدينة نتانيا، وسجن الدامون شمال مدينة الكرمل.

قبل الصفقة التي عُرِفَت بـ «دقيقة شاليط» والتي ظهر فيها الجندي الذي تحتجزه فصائل المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة، وعلى رأسها حركة المقاومة الإسلامية حماس في شريط فيديو لمدة دقيقة واحدة مقابل إفراج إسرائيل عن ٢٠ أسيرة فلسطينية كان عدد الأسيرات في السجون الإسرائيلية ٥٣ أسيرة.

١٢ ساعة على كرسي الشَّبْح مدة ١٦ يوماً:

كان لهيام تجربتان من الاعتقال في السجون الإسرائيلية:

الاعتقال الأول: كان في شهر أكتوبر عام ٢٠٠٣؛ حيث أمضت ٤٠ شهراً في السجن بتهمة نشاطها في المقاومة الفلسطينية.

أما الاعتقال الثاني: فكان بعد نصف سنة فقط من الإفراج؛ حيث اعتُقلَت من منزل عائلتها في مخيم الجلزون قرب مدينة رام الله في الضفة الغربية في الأول من شهر كانون الثاني عام ٢٠٠٧، وحُكِم عليها بالسجن ٤٠ شهراً أمضت منها ٣٤ شهراً قبل الإفراج عنها مع عشرين أسيرة مقابل دقيقة شاليط.

وأوضحت البايض لـ البيان أنها واجهت عند اعتقالها لأول مرة تهمة جاهزة حوكمت عليها بدون تحقيق ولا حتى استجواب، أما في الاعتقال الثاني، فكان لها تجربة مع زنازين التحقيق. تقول هيام: «الاعتقال الثاني كان قاسياً، إذا ما افتضرت أن الاعتقال الأول كان متوقعاً بسبب الانتفاضة؛ حيث قررت بعد ذلك تركيز جهودي كلها على التعليم؛ فالتحقت بالجامعة، وافتتحت مع إحدى صديقاتي مركزاً لتعليم الكمبيوتر والإنترنت في رام الله مخصص للفتيات فقط».

تقول هيام عن ساعة اعتقالها: «كانت ليلة صعبة، كانت الساعة الثانية فجر اليوم الثامن من شهر كانون الثاني عام ٢٠٠٧ عندما طوَّق جنود مدججون بالسلاح منزل والدتي التي أقيم معها في مخيم الجلزون ٨ كم إلى الشمال من مدينة

رام الله وسط الضفة الغربية، ثم اقتحموا البيت بشكل عنيف، وأخرجونا من الغرف، ثم فتشوا البيت وقلبوه راساً على عقب... دمروا كل شي وقع تحت أيديهم، ثم أخبروني أنني معتقَلة بتُهَم خطيرة».

قيدت مجندة رافقت الجنود يديها ورجليها، ثم عصبت على عينيها، وأدخلوها في سيارة جيب عسكري. نُقلَت في المحطة الأولى إلى معسكر اعتقال داخل مستوطنة قرب مدينة رام الله تسمى: بيت إيل، ثم نقلتها سيارة جيب أخرى إلى مركز المسكوبية في القدس المحتلة؛ حيث يوجد مركز تحقيق تابعٌ لجهاز المخابرات الإسرائيلي (الشين بيت).

وهناك أدخلوها إلى غرفة صغيرة مظلمة حتى الصباح؛ حيث وضعوا نظارة سوداء على عينيها، لا ترى من خلالها أي شيء، ونقلوها إلى غرفة التحقيق.

وتصِف هيام الغرفة بأنها صغيرة، يوجد فيها مكتب وكرسي مخصص للمحقق، ويتوسطها كرسي حديدي صغير مثبَّت إلى الأرض أجلوسها عليه، ثم قيدوا يديها ورجليها إلى ذلك الكرسي وبدأت معها جولات التحقيق والاستجواب.تقول: «لمدة ١٦ يوماً وبدون توقُّف كانت جولات التحقيق تبدأ الساعة التاسعة صباحاً وتنتهي عند الساعة التاسعة مساءً، حقق معي أكثر من خمسة محققين، وأنا مقيَّدة بذلك الكرسي الحديدي طوال الوقت، ولم يكن ينتهي التحقيق في تلك الغرفة، بل حتى عند نقلي إلى الزنزانة التي أنام فيها، والتي كانت قذرةً جداً ومعتِمة، ولا يوجد فيها سوى فرشة واحدة وعِدَّة أغطية رائحتها قذرة جداً، لم يكن الحراس يسمحون لي بالنوم؛ ففي كل نصف ساعة يقومون بالضرب أو الدق على الباب الحديدي الذي يغلق عليَّ الزنزانة إذا وجدوني نائمة حتى أستيقظ».

لم يكن فريق التحقيق يسمح لها بالنوم: لا في الليل ولا في النهار، كما لم يسمحوا لها برؤية أحد أو الحديث مع أحد سوى المحققين، ولم يسمحوا لأي محامٍ أو منظمة حقوقية بزيارتها والاطلاع على أوضاعها، ولا حتى تبديل ملابسها أو الاستحمام.

الأسيرة المحررة (هيام البايض) للبيان: السجَّانات يجبرن الأسيرات على التعري... الماء وحبة الأكامول علاج لكل مرض في السجن

التفتيش العاري:

نُقلت بعد ذلك إلى سجن تلموند وهناك بدأت معاناة محاكمتها أمام محكمة عسكرية إسرائيلية في سجن عوفر القريب من مدينة رام الله.

أكثر من ثلاثين جلسة كانت تحضرها رغماً عنها من سجنها في تلموند شمال فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ إلى المحكمة في سجن عوفر قُرْب مدينة رام الله وسط الضفة الغربية التي احتُلَّت عام ١٩٦٧. تستمر الرحلة في أحسن الأحوال ١٥ ساعة؛ حيث يجري نقلُها بواسطة وحدة خاصة تسمى: «وحدة الناحشون» وهي مخصصة لنقل الأسرى من السجون وإليها، بواسطة البوسطة «وهو باص كراسيه حديدية يغطي نوافذه شبك حديدي»، ويبقى الأسير جالساً بداخله طوال النهار وهو مقيَّد اليدين والرجلين لا يُسمَح له بالحركة أو النوم أو الحديث مع أحد، وصولًا إلى مقرِّ المحكمة ثم يُنقَل إلى زنازين حتى يأتيَ دوره في المحاكمة؛ لينقل إلى قاعة المحكمة لمدة ربع ساعة أو نصف ساعة فقط ثم تبدأ رحلة عودته.

أصعب ما في هذه الرحلة، هي لحظة خروجها من غرفتها في السجن؛ حيث تأتي إحدى السجانات وتطلب من الأسيرة الاستعداد لنقلها إلى المحكمة.تقول هيام: «أخرج من الغرفة إلى خارج القسم، وهناك يدخلوننا إلى غرفة مُحكَمة الإغلاق، لا توجد فيها نوافذ. يرافقني بداخلها شرطيَّة من فريق حماية السجن، وتبدأ بعملية التفتيش العاري على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: يُطلب من الأسيرة خَلْع حجابها، (وهو غطاء الرأس والجلباب).

والمرحلة الثانية: يجري تفتيش الجزء العلوي من جسد الأسيرة بشكل دقيق ثم ترتدي سِترها.

وفي المرحلة الثالثة: تفتيش الجزء السفلي من جسد الأسيرة، ويجري ذلك بعد خَلْع الأسيرة كلَّ ملابسها».

سألَتها البيان: وفي حال رَفَضت الأسيرة هذا الإجراء ماذا يحدث؟ صمتت قليلًا ثم أجابت: «عندما ترفض الأسيرة هذا الإجراء يدخل ضابط السجن ويقول: حسناً إذا رفضتي التفتيش العاري سأُدخِل الجنود إلى الغرفة ويجري تقييد الأسيرة ثم إجبارها على التفتيش العاري».

وأكدت هيام أن الأسيرات رفضن في البداية هذا الإجراء، فكان يجري نقل الأسيرة إلى العزل الانفرادي ثم إحضارها إلى الغرفة المخصصة للتفتيش ويبقى بداخلها الجنود مع البدء بعملية التفتيش العاري، ولكن في اللحظات الأخيرة توافق الأسيرة على التفتيش بشرط خروج الجنود، وهذا ما حصل.

الحبة السحرية دواء لكل داء:

وعن ظروف الاعتقال قالت هيام: «إن الأسيرات يواجهن ظروفاً اعتقالية تفتقر إلى الحد الأدنى من متطلبات الحياة الإنسانية الكريمة».

وتصِف هيام كيف يمضي يوم الأسيرة في السجن، فتقول: «يبدأ اليوم مع صلاة الفجر جماعة ثم يتبعها العدد [1] الصباحي في الساعة السابعة صباحاً. وبعد ذلك يُسمح مدة ساعة رياضية صباحية واحدة بالخروج إلى ساحة صغيرة تسمى: الفورة «الفسحة» أمام أقسام السجن، مغلقة من جهاتها الأربعة، وسقفها مغطىً بشبك حديدي، وبعد ذلك يبدأ الفحص الحديدي لأقسام وغُرَف السجن، ويسميه الأسرى بـ «الدق»؛ حيث يجري فيه فحص قضبان النوافذ والأسِرَّة والحمَّام والأرضية، ثم تبدأ الفورة لمدة ثلاث ساعات يتخللها فحص العدد مرة أخرى، ثم العودة إلى الغرف، ثم يبدأ العدد للمرة الثالثة في نهار ذلك اليوم، وفي المساء يكون العدد الرابع، وخلال الليل تقوم إدارة السجن ثلاث أو أربع مرات شهرياً بالتفتيش الأمني في وسط الليل؛ حيث يُخرجون الأسيرات من الغرف إلى الساحة مقيَّدات بهدف تفتيش الغرف والعبث بأغراض ومحتويات الأسيرات الخاصة».

أكثر ما يهدد حياة الأسيرات هو نقص الرعاية والإهمال الصحي المتعمَّد من قِبَل إدارة السجن للمريضات. تقول هيام: «أكثر ما نعانيه في السجن بعد قصة التفتيش العاري، هو عدم وجود الرعاية الصحية في السجن؛ فالأسيرات يعانين من آلام مزمنة في المفاصل والعمود الفقري، إضافة إلى فقر الدم بسبب وجود الرطوبة العالية في الغرف وعدم دخول الشمس إلى أقسام الاعتقال، وأدى سوء الطعام المقدَّم إلينا من إدارة السجن إلى مشاكل صحية في المعدة والأمعاء. كل هذه الأمراض لا تجد من إدارة السجن أي اهتمام».

وتضيف هيام: «إذا ما طلبت الأسيرة الخروج إلى عيادة السجن التي يتوفر فيها بشكل يوميٍّ طبيب عام، فإنه يُسمَح لها بالخروج بعد أسبوعين أو أكثر على أقل تقدير، وعند زيارتها للعيادة لا يقدِّم لها الطبيب سوى حبة الأكامول أو (الحبة السحرية) كما اعتادت الأسيرات على تسميتها؛ فهي دواء لكل داء بحسب فَهْم الطبيب؛ فمن تعاني من مرض المفاصل يصرف لها حبة الأكامول، ومن تعاني من آلام في ضرسها يصرف لها هذه الحبة، ومن تعاني من آلام المعدة أو فقر الدم أيضاً لا دواء سوى هذه الحبة، وعندما تحتَجُّ الأسيرة على الطبيب يقول لها: عليك بشرب الماء».

صراصير وفئران:

أحلام التميمي أسيرة تقضي حكماً بالسجن المؤبد ١٦ مرة، وهي الأعلى حكماً بين الأسيرات. قالت لإحدى المؤسسات التي تهتم بقضية الأسرى: «إن غرف سجن تلموند الذي توجد فيه ١٤ أسيرة مليئة الآن بالفئران والصراصير».

وتؤكد التميمي التي اتهمتها قوات الاحتلال بالمشاركة في عملية فدائية لحماس أسفرت عن مقتل ١٦ صهيونياً أن الغرفه التي دخلت عليها كانت مسكناً وموقعاً للصراصير والقوارض، وكانت خالية من كل اللوازم، وقدمت الأسيرات طلباً للإدارة من أجل وَضْع خزائن وعلَّاقات وستائر للحمامات وحتى الآن لم يتم تركيب وتوفير أي شيء من اللوازم.

وتضيف الأسيرة التميمي: «إن الغرف في سجن تلموند مغلقة الشبابيك بالصاج ولا يدخل إليها هواء، وتعاني الأسيرات

(١) العدد: هو فحص أمني لاسم الإسير ورقمه الاعتقالي.

من ارتفاع درجات الحرارة في الصيف وكذلك من عدم توفير مراوح في الغرف؛ فهناك غرف خالية من المراوح».

وطالبت الأسيرة باسم كافة الأسيرات بأن يُنْقلْهن إلى سجن آخر يكون صالحاً للمعيشة، وذلك أدنى حق تطالب الأسيرات به؛ حيث إن سجن تلموند مُقام على شبكة مجارٍ، وسجن الدامون المنْوِي نَقْل الأسيرات إليه يفتقر لأدنى المتطلبات الإنسانية وكان هناك قرار مسبق بإغلاقه.

أسماء وأعداد الأسيرات في السجون الإسرائيلية بحسب وزارة الأسرى في غزة:

قالت وزارة شؤون الأسرى والمحررين: إن الاحتلال لا يزال يعتقل في سجونه ٣٣ أسيرة، وهو العدد المتبقي بعد تحرير ٢٠ أسيرة ضمن صفقة الحرائر أول أكتوبر ٢٠٠٩.

وأشار (رياض الأشقر) مدير الدائرة الإعلامية بالوزارة إلى أن هناك الكثير من التكهنات والروايات المختلفة حول عدد الأسيرات في سجون الاحتلال، وهذا سببه أن العدد غير مستقر في كثير من الأحيان؛ حيث يمارس الاحتلال سياسة الاعتقال يومياً في الأراضي الفلسطينية، ولفترات مختلفة؛ إذ قد تُعتَقل أسيرة لمدة ساعة أو عدة ساعات ثم يُطلَق سراحها، وقد يحدث اختطاف مواطنة وتحويلها إلى مراكز التحقيق المختلفة ليوم أو يومين ثم يُفرَج عنها، وعدد آخر يجري ترحيله إلى السجون المخصصة للأسيرات بعد انتهاء التحقيق معهن.

وأوضح الأشقر أن العدد الفعلي للأسيرات داخل سجون الاحتلال هو ٣٣ أسيرة جرى توثيق اعتقالهن في سجون الاحتلال، ٢١ منهن في سجن الشارون «تلموند»، و ١١ في سجن الدامون، وأسيرة واحدة في عَزْل «نفيه ترتسا» بسجن الرملة وهي من قطاع غزة، ومنهن ٢٥ أسيرة من الضفة الغربية المحتلة، و ٤ أَسيرات من القدس، و ٣ أسيرات من الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، وأسيرة واحدة، وهي «وفاء البس» من قطاع غزة.

وحسب الوضع القانوني للأسيرات؛ فهناك ٢٠ أسيرة محكومات بأحكام مختلفة، خمسة منهن محكومات بالسجن المؤبد مرة أو عدة مرات، أعلاهن حكماً الأسيرة «أحلام التميمي» من رام الله وتقضي حكماً بالسجن المؤبد ١٦ مرة، وهناك ١٠ أسيرات موقوفات ينتظرن المحاكمة، بينما ٣ أسيرات يخضعن للاعتقال الإدارى دون تهمة أو محاكمة وهن: الأسيرة «ماجدة أكرم فضة» من نابلس عضو مجلس بلدية نابلس، وهي معتقلة منذ ٢٠٠٨/٨/٦، وجُدد لها الإدارى ثلاث مرات، والأسيرة «رجاء قاسم الغول» من جنين، وهي ناشطة في مجال الدفاع عن الأسرى، اعتُقلت منذ ٢٠٠٩/٣/٣١، وتعاني من مرض في القلب، ومن ضغط دم مرتفع، ولا تتلقى علاجاً مناسباً لحالتها الصحية، وجُدد لها الإدارى مرتين، والأسيرة «هناء يحيى شلبي» من جنين، وهي معتقلة منذ ٢٠٠٩/٩/١٤.

من جانب آخر هناك ٣ أسيرات معتقَلات مع أزواجهن، وهن: الأسيرة «أحلام التميمي» وزوجها محكوم بالسجن المؤبد، والأسيرة «إيرينا سراحنة» وزوجها محكوم بالمؤبد ٦ مرات، والأسيرة «إيمان غزاوي» وزوجها محكوم ٢٠ سنة، وهناك أسيرتان لديهما إخوة معتقلون في سجون الاحتلال، وهن: الأسيرة «فاتن السعدي» والأسيرة «عبير عودة»، وهي أسيرة محرَّرة جرى إعادة اختطافها مرة أخرى، وهناك ٦ أسيرات أمهات، يبلغ عدد أبنائهن ٢٨ ابن. بينما تعاني ١٢ أسيرة من بين الأسيرات من أمراض مختلفة، أخطرهن حالة الأسيرة «أمل فايز جمعة» من نابلس والتي تعاني من مرض السرطان في الرحم، ولا تتلقى علاجاً مناسباً لحالتها الصحية، وكذلك الأسيرة «وفاء سمير البس» من غزة والتي تعاني من إصابتها بحروق شديدة قبل الاعتقال، وتحتاج إلى علاج لتتعافى من أثر تلك الحروق، والأسيرة «لطيفة أبو ذراع» والتي تعاني من وجود ألياف على الرحم، وتخثُّر في الدم.

أوضاع سيئة:

وتطرَّق تقرير الوزارة إلى الأوضاع السيئة التى تحياها الأسيرات بفعل ممارسات الاحتلال القمعية ضدهن؛ حيث تعاني الأسيرات من سوء التهوية والرطوبة العالية، وانتشار الحشرات والقوارض في الغرف والعزل الانفرادي والتنقلات التعسفية دون أدنى مبرر، وهو ما يؤثر في التواصل الإنساني

بين الأسـيرات في ما بينهن أو التأثير على مواعيد الزيارات العائلية وانتظامها.

كما تشـكو الأسـيرات من حالات الإهمال الطبي وسوء المتابعـة وانعدام الفحـص المخبري وغياب الفِـرق الطبية المتخصصة بالأمراض النسائية وانتشـار التهابات مجهولة المصدر، وهو ما يُعرِّض العديد من الأسيرات لمخاطر جسيمة على سـلامتهن الصحيـة، كما أن العلاجـات التي تُصرَف للأسـيرات ليست ذات فعالية ضد الأمراض التي تعاني منها الأسـيرات، كما تعاني الأسـيرات من عمليات تفتيش ليليٍّ مفاجئ ومتكرر، ويجري إخضاع الأسيرات للتفتيش الجسدي المُهين، وفـي بعض الحالات: التفتيش العـاري، دون أدنى احترام لكرامة الإنسـان. وكذلك انعدام انتظام دخول مبالغ الكنتينة من الخارج، وارتفاع الأسـعار في كنتين السـجن، و يعانين أيضاً من افتقارهن للكتب والمجلات العلمية والثقافية، ولا تزال تُمنع عائلات الأسـيرات من إدخال مواد للأشـغال اليدوية.

ودَعَـت الـوزارة وسـائل الإعـلام إلـى تـدُاول هذا العدد للأسـيرات وَفْق ما أكدته إحصائيات موثقة وجديدة للدائرة الإعلاميـة بالوزارة، حتى نخرج مـن حالة التخبط والاختلاف بخصوص أعداد الأسيرات وأوضاعهن.

قائمة بأسماء الأسيرات الفلسطينيات في سجون الاحتلال:

م	الاسم	السكن	الحكم	تاريخ الاعتقال
١	أحلام عارف أحمد التميمي	رام الله	١٦ مؤبداً	٢٠٠١/٩/١٤
٢	آمنة جواد علي منى	القدس	مؤبد	٢٠٠١/١/٢٠
٣	قاهرة سعيد علي السعدي	جنين	٣ مؤبدات و٣٠ سنة	٢٠٠٢/٥/٨
٤	سناء محمد حسين شحادة	القدس	مؤبد	٢٠٠٢/٥/٢٤
٥	دعاء زياد جميل الجيوسي	طولكرم	٣ مؤبدات	٢٠٠٢/٦/٧
٦	إيرينا بولي شوك سراحنة	بيت لحم	٢٠ سنة	٢٠٠٨/٥/٢٣
٧	إيمان محمد حسن غزاوي	طولكرم	١٣ سنة	٢٠٠١/٣/٨
٨	ندى عطا صالح درباس	القدس	٦ سنوات	٢٠٠٧/٥/٨
٩	وردة عباس عبد الفتاح بكراوي	الجليل الداخل	٨ سنوات	٢٠٠٣/١٠/١٦
١٠	مريم سالم سليمان الطرابين	أريحا	٨ سنوات	٢٠٠٥/٣/١٣
١١	عبير عيسى عاطف عمر	الخليل	١٦ سنة	٢٠٠١/٢/٢٠
١٢	لينا أحمد صالح جربوني	جنين	١٧ سنة	٢٠٠٢/٤/١٧
١٣	فتنة مصطفى خليل أبو العيش	نابلس	١٥ سنة	٢٠٠٦/٧/٢١
١٤	وفاء سمير إبراهيم البس	غزة	١٢ سنة	٢٠٠٥/٥/٢٠
١٥	ابتسام عبد الحافظ فايز عيساوى	القدس	١٤ سنة	٢٠٠١/١١/٤
١٦	ورود ماهر قاسم	الطيرة	٦ سنوات	٢٠٠٦/٤/١٠

١٧	لطيفة محمد محمود أبو ذراع	طولكرم	٢٥ سنة	٢٠٠٣/١٢/١٠
١٨	أمل فايز محمود جمعة	نابلس	١٢ سنة	٢٠٠٤/٥/١٠
١٩	ريما رياض حسين ضراغمة	نابلس	٢٥ عاماً	٢٠٠٤/٤/٢٨
٢٠	فاتن بسام شافع السعدي	جنين	سنتان	٢٠٠٨/٥/٢٨
٢١	سنابل نابغ سليمان بريك	نابلس	موقوفة	٢٠٠٨/٩/٢٢
٢٢	رندة محمد يوسف الشحاتيت	الخليل	موقوفة	٢٠٠٩/١/٣
٢٣	ريما نافع محمود أبو عيشة	نابلس	موقوفة	٢٠٠٩/٢/١٤
٢٤	عبير محمود حسن عودة	طولكرم	موقوفة	٢٠٠٩/٧/٩
٢٥	عائشة محمد عبيات	بيت لحم	موقوفة	٢٠٠٩/٨/١٣
٢٦	نسرين عاطف أبو زينة	طولكرم	موقوفة	٢٠٠٩/٨/١٨
٢٧	سعاد أحمد نزال	قلقيلية	موقوفة	٢٠٠٩/٨/٢٢
٢٨	خديجة أبو عياش	رهط الداخل	موقوفة	٢٠٠٩/١/٢٢
٢٩	غفران عليان زامل	نابلس	موقوفة	٢٠٠٩/٩/٥
٣٠	رندة محمد أبو الرب	جنين	موقوفة	٢٠٠٩/٩/٢١
٣١	ماجدة أكرم فضة	نابلس	إداري	٢٠٠٨/٨/٦
٣٢	رجاء قاسم موسى الغول	جنين	إداري	٢٠٠٩/٣/٣١
٣٣	هناء يحيى صابرالشلبي	جنين	إداري	٢٠٠٩/٩/١٤

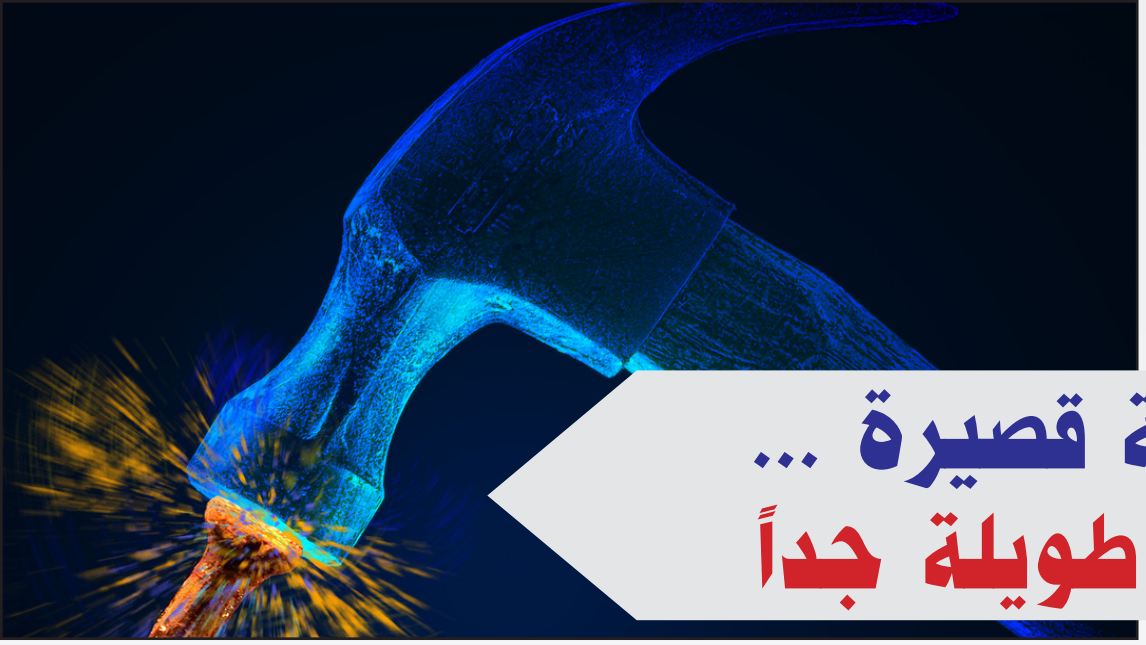

قصة قصيرة ... عفواً طويلة جداً

أحمد فهمي
afahmee@albayan-magazine.com

لم تبدأ الحركة الإسلامية منذ سبعينيات القرن العشرين الميلادي، وكذلك لن تنتهيَ في العِقد الأول من القرن الحادي والعشرين، إنها أقدم من ذلك، وأطول عمراً من هذا؛ إنها ليست مجرد قصة قصيرة استطالت لثلاثة عقود؛ لأنها قصة الإسلام نفسه، وهي قصة طويلة جداً يتجاوز طولها أربعة عشر قرناً... وثلاثين عاماً، وهي لن تنتهيَ حتى ينزل المسيح ﷺ ويقتل المسيح الدجال ويظهر المهدي ويَحكم الناس بكتاب الله.

إن للمصائب والابتلاءات زبائن وعملاء يتقنون النواح والعويل الفكري أكثر مما يتقنون شيئاً آخر، ما إن تَحِل بالمسلمين نازلة حتى يرفعوا عقيرتهم: ألم نحذركم؟... فات الأوان... لم يعد بالإمكان إصلاح ما فسد، أو إسناد ما سقط... أنتم تتخبطون... كفوا أيديَكم وحُلُّوا أنفسكم واخلعوا عباءة الجماعات والتيارات... إلخ

كتب الأستاذ محمد أحمد الراشد في صناعة الحياة متحدثاً عن معالم اضطرابٍ وارتباكٍ تنتاب الحركة الإسلامية في بعض مراحلها، وهو ما يفسره بعضهم بأنه انهيار وتداعٍ، لكن الراشد ينفي ويقول: إن هذه ملامح المخاض للانتقال إلى مرحلة تالية، فهو إذاً مخاض يدعو إلى التطوير والتجديد، وليس إلى الهدم والتنكيس.

لقد مرت الحركة الإسلامية منذ ثلاثين عاماً بتجارب ومحنٍ عديدة حققت فيها أشياء وأخفقت في أشياء، قادها في تلك العقود رؤىً وأشخاص قدَّموا ما لديهم، وحان الوقت لإعادة النظر والتدبر في ما فات وما هو آت، قد يبقى الأشخاص أو يرحلون، ولكن الأهم أن تتطور الرؤى وتتجدد التصورات لتلائم المرحلة المقبِلة، وهي ليست سهلة أبداً.

كثير من أدبيات الحركة الإسلامية لم تعد كافية لمواجهة الفتن والمحن الحالية والمقبِلة؛ لأنها تتحدث عن ظرف غير الظرف، وعن أجيال من الشباب لها ثقافة مختلفة تماماً عن أجيال خاطبتها هذه الأدبيات، وعن مجتمعات تبدلت قيمها واهتزت ثوابتها؛ فلم يعد يُلهب مشاعر بعضها حديث عن الغيرة أو الشرف أو الأمانة.

إن تجديد فكر العمل الإسلامي ليس بالأمر الهين، وكذلك الإعراض عن تجديده؛ فالعواقب سوف تكون وخيمة، وستبرز منابر النواح الفكري تُثبط العزم وتُفرق الشمل وستطول طوابير المستقلين الباحثين عن هوية في الهواء الطلق.

مِن أبرز ما يفتقر إلى تجديد، هو ما يتعلق بالخلافات بين التيارات الإسلامية؛ إذ بات الخلاف ترفاً لا يسمح به الظرف وإن فرح به العدو.

هل أصبحت حكمة الثيران البيضاء والحمراء والسوداء... إلخ، قديمة؟ يبدو ذلك، لكن العبرة ليست بكثرة ترديد المثل حتى يُمَل منه، بينما لا يُرى له أثر في عالم الواقع؛ فبدون آليات قوية لتقليص حجم الخلاف بما يسد هذه الثغرة أمام أعداء الأمة، سنظل نُلدغ من ذات الجحر مرات ومرات، حتى يبعث الله لهذه الحركة من يجدد لها فكرها وعملها.

التفوق الشيعي!

أنور قاسم الخضري(*)

يبدو من الوهلة الأولى من المقارنة بين الواقع الشيعي والسُّني – فيما أحسب – أن جانب الشيعة أكثر تفوقاً على الجانب السُّني من نواحٍ عدة:

– فالشيعة يمتلكون دولة عصرية تقوم على المذهب وتناصره، وتدعم أتباعه في إيران وخارج إيران، وتبشِّر بمذهبهم في الأوساط الإسلامية الأخرى وعلى الصعيد العالمي. في حين أن غالبية الدول السُّنية لا تقيم وزناً للمذهب الذي تنتمي إليه بالقدر الذي تقيمه إيران لمذهبها!

– كما أن الواقع الديني للشيعة يشهد حضوراً إعلامياً واسعاً، ونشاطاً دؤوباً في الأوساط الشيعية، من خلال عدة مؤسسات وهيئات ومراكز متنوعة الأعمال والمهام والمناشط والتخصصات. في حين يشهد الواقع الديني للسُّنة تقلُّصاً ملموساً من خلال عمليات التضييق المنهجة التي تتبعها بعض الدول في سبيل محاصرة تأثير التدين في واقع حياة الناس بشكل صحيح، وكثيراً ما تأخذ عمليات التضييق هذه طابعاً قانونياً ونظامياً.

– وفي الوقت الذي أصبح فيه مراجع الشيعة محطَّ نظرها التجمعات الشيعية ومصدر إلهام لسياسييهم؛ يقبع كثير من علماء السُّنة في زوايا محدودة بعيداً عن التأثير الشعبي والقيادة الجماهيرية؛ نتيجة ضيق ذات اليد والخناق الأمني الملتف حول بعضهم والصوارف الشهوانية التي تصرف عليها الأنظمة والنخب العَلْمانية مواردها المالية والبشرية للصد عنهم والمبررات التي يصطنعونها لأنفسهم!

– وتفُوق القنوات الفضائية المنتسبة للتشيع والداعية إليه عدد القنوات السُّنية التي تبث من البلدان العربية بشكل مستقل.

– وفي حين تتبنى إيران شعارات مناهضة للعدو الصهيوني والولايات المتحدة – وإن كان ذلك في العلن – وتُقدِّم نفسها بوصفها دولةً مناصرةً للمستضعفين والشعوب المقاومة والقضية الفلسطينية؛ تظهر بعض الدول السُّنية أقلَّ فاعلية وقوة؛ لمحاولات استئصال روح الجهاد والمقاومة في الأمة من خلال اتفاقيات أمنية مع العدو وتعاوُن مشترك وتنسيق عسكري ولوجستي معلن غالباً، والقليل منهم من يمارس هذا الدور في الخفاء. وأقل منهم العاجز الذي يمثل دور (الشيطان الأخرس).

وفي الوقت الذي تظهر فيه إيران بوصفها دولةً ديمقراطيةً تُفسح المجال أمام مواطنيها للتعبير عن آرائهم واختيار ممثليهم – ولو بشكل جزئي وفي حدودٍ شكلية – تبدو بعض الدول العربية دولاً ديكتاتورية وشمولية! ليس هذا فحسب، بل إن نظام طهران الذي تَشكَّل عام ١٩٧٩م عقب ثورة الخميني الشعبية استطاع الوصول إلى مستوى من التقدم المعرفي والصناعي يفوق تلك الدول السُّنية التي توقفت عجلة التقدم فيها على منجزات جامدة: كالسد العالي في مصر، وقيام الجمهورية الموحدة في اليمن، وثورة الفاتح في ليبيا،

(*) كاتب وباحث يمني.

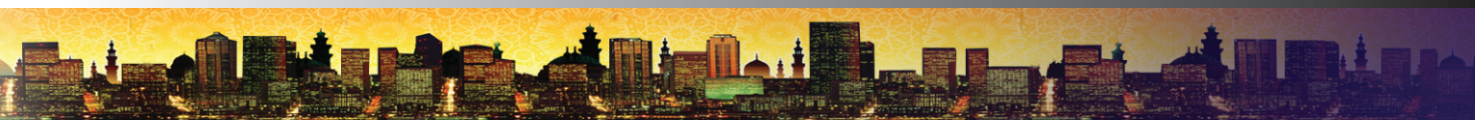

وإمساك حزب البعث بالسلطة في سورية والذي غابت نخوته العربية في نجدة شعب العراق من الاحتلال الأجنبي... إلخ. أما إيران فقد استطاعت الولوج إلى عصر الأقمار الصناعية وهي تتأهل لتكون من الدول النووية في المنطقة.

إن مثل هذه المشـــاهد – وإن كـانـــت غيـــر ذات عمق وشمول – توجِد في غالبية الشيعة روحاً من التفوق والاستعلاء، وتخلق في عوام السُّـــنة حالة من الانبهـــار والتأثر، وهو أمر ملموس في كثير من البلدان العربية والإسلامية السُّنية. وإذا كان هناك فئات شـــيعية تهتدي إلى السُّـــنة نتيجة للاهتداء والقناعة الإيمانية، فإن فئات مماثلة اليوم تتوجه نحو التشيع تأثراً بهذا التفوق التقني والصورة المتميزة التي ترتســـم أثناء مقارنة عاجلة كهذه؛ فوجود النموذج (الناجح) أبلغ تأثيراً في نفوس كثير ممن لا يقيمون لموازيـــن الحق والصواب اعتباراً يُذكَـــر من القيم التي تصبح شـــعارات (جوفاء) لا حقيقة لها على أرض الواقع!

لذلـــك اتفق العقلاء على أن الدولة الكافرة تدوم بالعدل، وأن الدولة المســـلمة تزول بالظلـــم؛ لأن العدل يحقق رضى الرعيـــة والمحكومين وهو ما يُعين على الاســـتقرار، في حين يعمـــل الظلم على زرع الضغائن وبعث الأحقاد ومن ثمَّ الفرقة والنزاع والتناحر!

بعد هذا كله ألا يحق لنا أن نخاطب المؤثرين بواقع الكيان السُّـــني بضـــرورة مراجعة مواقفهـــم؟ أليس من حقنا – أهل الســـنة – أن نطالـــب حُكَّامنا بأن يكونوا قـــدوة لولاة الأمر المسلمين الذين يتمسكون بالدِّين وعنه يصدرون، وأن يحكموا بالعدل ويطبقوا الشريعة ويوالوا أهل الإسلام ويسعوا لعزتهم عوضاً عن إضعافهم وإذلالهم، وأن يعملوا كل ما من شأنه أن يقدم بلدانهم ويقـــوي مجتمعاتهم (عقائدياً وأخلاقياً وعلمياً ومعرفياً وتجارياً وصناعياً وعسكرياً) ليتمكنوا – على الصعيد الخارجي – من فـــرض إرادتهم وتعزيز مكانة دولهم بدلاً من العمل على مصالحهم الشخصية؟!

أليس من واجب كثير من الأنظمة الحاكمة أن تراجع هذه الثقافة والهيكلية السياسية التي أوجدت لنا فراعنة ونماردة وإستاليين ونُخَب هامانية وقارونية؟

ألم يعد من الممكن لهذه الأنظمة أن تكسب ثقة شعوبهـــا لا بشراء الذمم وتخدير العقول ولكن من خلال أعمال ملموسة تؤكد أنها لا تعمل لمصالحها الخاصة ومكاسبها الذاتية؟

ألم يأن للجماعات الإســـلامية الصادقة اليوم عوضاً عن هذا التنازع والشـــقاق والذهاب إلى مشـــروعات واتجاهات مكلفة من ناحية ومضيعة للجهود والوقت من ناحية أخرى؛ أن تراجع دورها ومدى تأثيره الحقيقي في إعادة الأمة إلى دينها بمعناه الشامل والصادق والصائب بعيداً عن الخرافة والبدع والغلو، وفي تميزها بأخلاق الإسلام السامية من صدق وعدل وحكمـــة وحلم وإخاء ورحمة وانضباط وإتقان، وفي تشـــكيل وعيها بشـــكل ســـليم حول مجمل قضاياها بعيداً عن الرؤى الوطنية والقطرية والعرقية والمذهبية والحزبية وعلى مستوى التحديات التي تواجهها كأمة، وفي تأهيلها للقيام بمسؤوليات النهضة والإعمار والبناء الحضاري الذي يغنيها في معيشتها عن الاحتياج إلى من ســـواها مـــن الأمم، وفي إعادة اللحمة إليها على أصول وقواعد الدِّين البينة والواضحة؛ بحيث تتمثل الأخوة جسداً واحداً في الهموم والآمال والآلام والشعور؟

وأين علماء الشـــريعة من موقع الصدارة الذي عليه أُخذ منهم الميثاق؛ ليكونوا فيما بعـــد ورثة الأنبياء الذين هم قادة الأمم؛ يسوســـونهم وَفْق هدى الله وشرعه، وليبذلوا جهودهم في الإصـــلاح والتصحيح ومواجهة الانحرافـــات؛ ابتداءً من محدثات أهل البدع وجور أهل الســـلطان وامتداداً إلى فساد المترفين ومنكرات العامة؟

لماذا يـــزداد دور العلماء تراجعاً كلمـــا ازداد واقع الناس قتامة مع حاجتهم إليهم؟ فإن كانوا أول من ســـيوجد الأعذار ويخلـــق المبررات، فغيرهم ممن يَقِلُّ علمهم وتضعف عزائمهم وتشوب نواياهم سيكون منسحباً من باب أَوْلى؟

وهكذا بإمكاني القول: إن (تفوق) الشيعة ليس لما يملكون من الحق، ولكنه نتيجة لما نحن فيه من الوهن. وقديماً قيل:

تأبى الرماحُ إذا اجتمعْنَ تكسُّراً
وإذا افترقْنَ تكسَّرتْ آحـادا

وقـــد افترقت رماح قومي و (اجتمعت) عصيُّ الشـــيعة؛ فتكسرت تلك واستعصت تلك على الكسر!

الصحافة والهيئة... حقائق ومراجعات

تأليف: محمد بن عواد الأحمدي

هاجم بعض المثقفين العرب والغربيين (أصحاب الفكر الليبرالي) هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سعياً منهم لبسط ذلك الفكر في المجتمع السعودي، وبدأت تلك الهجمات في نهايات القرن المنصرم؛ أن ويترتها في مطلع القرن الحالي، واستخدم هؤلاء المثقفون الكثير من المنابر الإعلامية المختلفة، منها المقروء والمسموع والمشاهَد، وكان لذلك الهجوم رَدَّة فعْل من قِبَل دعاة الحق والعقلاء للذب عن تلك الشعيرة العظيمة في ديننا الحنيف.

وبين يدينا كتاب (الصحافة والهيئة... حقائق ومراجعات) لمؤلِّفه (محمد بن عواد الأحمدي) صادر عن دار غيناء للنشر، وهو كتاب يرصد فيه الكاتب حال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الصحافة المحلية، مستخدِماً التحليل العلمي والأسلوب الموضوعي، وتوثيق كافة المعلومات التي تناولها خلال عَرْضه للموضوع في (١١٤) صفحة من القطع الوسط،

عَرْض: إسلام السيد علي(*)
soloms1100@gmail.com

وتقديراً لهذا الجهد المشكور يسعدني أن أقدم للقارئ الكريم عرضاً موجزاً للتعريف بالكتاب، ولم أتطرق خلال عَرْضي لأسماء الصحف أو الشخصيات التي تعرضت للهيئة، بل أترك ذلك لقارئ الكتاب.

قَسَّم المؤلف كتابه أربعة أجزاء بدأها بـ:

(رؤية نقدية للمعالجة الصحفية)؛ حيث أشار في هذا الجزء إلى أهم ثابت في العمل الصحفي والإعلامي، وأنه من الضروري أن تكون المادة الإخبارية مبنية على وقائع صحيحة دقيقة وأقرب للحيادية منها للأيديولوجية الشخصية للصحفي أو الإعلامي، مستشهداً لذلك بعدد

(*) ماجستير إعلام.

من النقولات من كُتبٍ شهيرة، وكذلك ذكر عدداً من القرارات الصادرة عن مجلسَـــي الوزراء والشورى السعوديَيْن، وعرض أيضاً فقرات من ميثاق الشرف الإعلامي العربي الذي صدر في تونس ١٩٧٧م، والميثاق الإذاعي العربي بالأردن ١٩٧٠م.

ثم شـــرع الكاتب ببســـط علاقة هيئـــة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصحافة المحلية من المنطلق الآنف ذكره؛ فقد أشـــار إلى عدد من الفاجعـــات التي تصدت لها الهيئة موثِّقـــاً ذلك بما تم نَشْـــره في عدد مـــن الصحف المحلية، وهي الأكثر انتشـــاراً في المملكة (عـــكاظ ـ اليوم ـ الوطن ـ الاقتصاديـــة ـ المدينة ـ الرياض)، وبيَّن كيف أنه لم يشـــفع للهيئة عند البعض ذلك الجهد العظيم، وحَجْم الثمرة الطيبة العائدة على المجتمع من تلك الجهود المبذولة، لبعض المواقف الفرديـــة الخاطئة لعدد قليل من أفرادهـــا التي لا تمثِّل إلا شخصية الفاعل ولا تنم أبداً عن كيان الهيئة.

وتساءل الكاتب عن حجم المساحات في الصحف ومنابر الإعلام المختلفة المتناوِلة لتلك الأعمال الفردية التي قد يقع فيهـــا قِلَّة من رجال الهيئة، وإغفال الجهود المبذولة التي هي بمثابة سدٍّ منيعٍ حال وما يزال يحول بين الكثير من المفسدات والمجتمع السعودي، وأشار إلى أن الصحف قد تَذْكر محاسن الهيئة في بعض المواقف فقـــط (لغرابة الموضوع أو لإرضاء بعض المحبين للهيئة) وذلك كله لزيادة المبيعات، وليس تبجيلاً لما تقوم به الهيئة.

وذكـــر الكاتب عدداً مـــن الوقائع التـــي تناولتها بعض الصحف المحلية بنوع من التشـــفي من رجالات الهيئة؛ حيث جرى تضخيم بعـــض الحوادث الفردية المحدودة، وأدى ذلك التضخيم إلى جَعْل حادث مروري يحدث بصورة شبه يومية قضية الرأي عام، تتناولها وســـائل الإعلام المحلية والدولية أيضـــاً، وأشـــار الكاتب إلـــى أن من تلك الحـــوادث حادث اصطدام إحدى دوريات الهيئة بسيارة أحد الشباب، فقامت الصحف ولم تقعد؛ رغم أن الكاتب أكد أنه شـــاهد الحادث بنفســـه وأنه كان حادثاً عادياً، إلا أن الصحف المحلية عملت منه (مانشـــيتات) وحملات إعلامية علـــى رجالات الهيئة، وفـــي الكثير من الوقائع التي حدثت مع رجالات الهيئة كانت الصحف المحلية تقضي فيها وتُرجِع الســـبب فيها لرجالات الهيئة رغم أنها لم تَثْبُت قضائياً، وألمح المؤلف لعدد من تلك الوقائع موثَّقةً.

وأشـــار الكاتب للنتيجـــة الحتمية لكثـــرة تلك المقالات ووَضْعِها في صدر الصحف والاهتمـــام الزائد بها؛ لتتراكم عند المتلقين، فتجعلهم يهتمون بتلك الأخبار وإنزالها في غير منزلها الطبيعي، ويصبحون متابعين، بل حريصين لمعرفة أدق التفاصيل التي تتناقلها وســـائل الإعلام عن مساوئ الهيئة ورجالاتها؛ لاستخدامهم الأساليب المثيرة التي تثير عواطف المتابِع وتزرع عنده قَدْراً من التعاطف مع الحالة، والتأسُّـــف على ما قامت به الهيئة، وهذا بلا شك يزيد من عدد مبيعات الصحيفة، مع حدوث الطامة الكبرى عند الرأي العام؛ وهو أن كثرة التكرار تعمـــل على تصديق تلك الأخبار على المدى البعيد.

والغريب أن كل ما نسمعه عن انتهاكات رجال الهيئة خلال العام قبل المنصرم ١٤٢٨هـ عبارة عن ٣٥ خطأً فقط، قامت وســـائل الإعلام بتلميعها وتصديرها عن باقي الأخبار التي هي أضخم من تلـــك الأخطاء بكثير، وفي مقابل ٤٠٠,٠٠٠ قضية عالجتها الهيئة خلال ذلك العام.

الجزء الثاني: (شـــواهد القصور في المعالجة الصحفية لقضايا الهيئـــة): قام المؤلف بعرض نموذج حـــيٍّ لِـمَا تقوم بـــه بعض الصحف المحلية من التهجـــم على رجالات الهيئة وإدانتهم قبل أن يفصل القضاء في الحادث، واختار الكاتب حادثة المدينة معلِّلاً ذلك بقربه المكاني من الحادث، ووصف الحادث كمـــا طالعتنا به الصحف المحليـــة على أنه حادث انقلبـــت على إثره ســـيارة فمات كل من كان فيها (شـــابان وامرأتان) وقيـــل حينها: إن الحادث ســـببه مطاردة دورية الهيئة للسيارة.

وانتقل الكاتب ليفند تلك الواقعة، وكيف تعاملت الصحف المحلية معها، وذلك في عدة مَحاور:

المحور الأول: هو العدد الهائل من الصحف التي تناولت تلـــك الواقعة والعدد الهائل من الأخبـــار الواصفة للحادث، والتي بلغت ثمانية وســـبعين خبراً خلال ثلاثة أشهر فقط. ليس كلها معادية أو متهمة الهيئة، بل إن هناك صُحُفاً تروَّت في قَذْف التهم تجاه الهيئـــة، ووصفت الحادث بأنه مروري قد يكون المســـؤول فيه دوريـــة الهيئة! وهذا بخلاف صحف أخرى وصفت الحادث بأن سببه الرئيسي هو دورية الهيئة، حتى أصبح القارئ تغشـــاه غمامـــة؛ فلا يدري مع من الحق وبمن يستوثق؟

المحور الثاني: التجاوزات التي حدثت من بعض الصحف المحلية خلال تغطيتها لذلك الحدث: ومنها قَذْف التهم لرجالات الهيئة قبل الفصل القضائي، ولَصْق التهمة بهيئة المدينة وليس برَجُلَي الهيئة، وذِكْرُ أن أهالي الضحايا يطالبون بالقصاص من رجالات الهيئة قبل الفصل القضائي، وغير هذه التجاوزات التي تتعارض مع أصول النشر الصحفي.

والجزء الثالث من هذا الكتاب: (القصور الفكري للصحافة المحلية في معالجة قضايا الهيئة، وأسبابه)؛ حيث يُرْجع الكاتب القصور الفكري للصحافة المحلية في تعاملها مع الهيئة لعدة عوامل:

أولها: الاستهداف الأجنبي؛ حيث أوضح في بداية حديثه في هذا الجزء أهمية الإعلام وأنه بمثابة السلطة الرابعة التي تستطيع أن تؤثِّر في الرأي العام لأي قُطْر، وكيف أن الكثير من الدول المستعمِرة تعمل على الاستحواذ على تلك السلطة وبثِّ أفكارها من خلالها؛ لتتمكن من امتلاك عقول أبناء تلك المناطق المراد استعمارها.

وأشار الكاتب إلى أن الدول الغربية - وعلى رأسها الولايات المتحدة - تسعى بشتى الطُرُق الإعلامية لبَثِّ سموم التغريب عَبْر وسائل الإعلام، ومنها الصحف، وأنها تستخدم أدوات حديثة؛ وذلك بإنشاء المنابر الإعلامية، أو بأن تبحث عَمَّن يواليها في حربها، وأن الوضع ازداد سوءاً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ فقد زادت الضغوط على المؤسسات الإسلامية وبخاصة في المملكة العربية السعودية، وتُعَدُّ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نَظَرِ الغرب هي الحائل بين المجتمع السعودي والانحلال الأخلاقي والثقافي والعقائدي، واستشهد الكاتب بعدد من الأخبار المنشورة في وسائل الإعلام الأجنبية، وبفقرات من تقرير (راند)، وتقرير (قاصرات إلى الأبد)، وأقوال بعض المسؤولين الغربيين وعلى رأسهم وزير الحرب الأمريكي السابق (دونالد رامسفيلد) التي تشير إلى أن الغرب يخوض حرباً إعلامية مثلما يخوض حرباً عسكرية.

وثاني تلك العوامل هو: (التوافق مع المصالح الأجنبية)؛ فالتهجم على الهيئة ورجالاتها هو ما تتوق إليه الدول الغربية، وهذا تماماً ما قامت به الولايات المتحدة مع النظام الشيوعي إبَّان الحرب العالمية الثانية، وهو ما يُعرف بالحرب الباردة؛ فكان من ضمن ما استعانت به لدحر النظام الشيوعي هو تجنيد من يقوم بعملها الاستعماري (الفكري) بدلاً منها؛ فأصبح الأذيال هم قواد المعركة، وذلك بتقديم الفتات لهم: من دعم مادي أو لوجستي مقابل تبنِّيهم لتلك الأفكار.

والعامل الثالث، هو: (تأثير الرؤية الليبرالية)؛ فرائحة النكهة الليبرالية تفوح من تلك الأخبار وذلك الرصد الإعلامي لأحداث الهيئة، ورجالاتها، والتي يسعى الليبراليون من خلالها لزعزعة ثقة الرأي العام بالمؤسسات الإسلامية وعلى رأسها الهيئة، ولولا الجهد الذي تقوم به الهيئة في الذَّب عن ثوابت المجتمع السعودي، لَمَا لاقت كلَّ هذا التهجم عَبْر الصحف المحلية.

والعامل الرابع: (الاستخدام الخاطئ لمفهوم حرية الرأي)؛ فالتشويش على الثوابت الإعلامية جعلها متغيرة لدى الكثير من الصحف المحلية؛ فأصبح تلفيق التهم عَبْر وسائل الإعلام شيئاً طبيعياً - وخاصة إذا كان تجاه الهيئة - وأن ذلك من حرية الرأي، وأشار الكاتب إلى موقع معروف بأنه ليبرالي وبتهجمه على الهيئة ورجالاتها وإبراز المساوئ التي قد تظهر في بعض الأفعال اليسيرة.

وفي الجزء الأخير من الكتاب:

(القصور المهني للصحافة المحلية في معالجة قضايا الهيئة وأسبابه): وهو بمثابة تكملة للجزء الثالث من الكتاب؛ إلا أن الكاتب أفرده لأهميته.

وفيه فنَّد خمس تقصيرات لدى الصحافة المحلية في تعاطيها مع الأحداث التي تمر مع الهيئة ورجالاتها، وكيف أن الأحداث أثبتت لكثير من أفراد المجتمع والمتابعين كَذِب وتلفيق تلك الأخبار، بل إن بعض الكُتاب لدى الصحف المحلية أبدى تعجُّبه من تعاطي الصحف المحلية ووسائل الإعلام مع قضايا الهيئة. ووضع الكاتب سؤالاً هاماً، وهو: لماذا يتم التعاطي مع قضايا الهيئة بهذه الطريقة غير المهنية؟ تاركاً الإجابة للقارئ يتوصل إليها عَبْر قراءته للكتاب.

كتاب (الصحافة والهيئة ... حقائق ومراجعات): هو نظرة بحثية موضوعية وهادئة لما تعرضت وتتعرض له هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قِبَل وسائل الإعلام عامة والصحف المحلية بخاصة، من تهجُّم وتجريح وافتراء، وأثبت أن تلك الصحف المحلية لن تستطيع أن تحط من مكانة الهيئة في قلوب المسلمين في داخل المملكة وخارجها، ورغم تلك الافتراءات إلا أن الهيئة ما ازدادت ورجالاتها بتلك الأحداث إلا شموخاً.

مياسة النخلاني

سلام (الدمار)

كان العنـــوان المكتوب في الجريدة بـــارزاً جداً لدرجة أنه جذب انتباهي: «من أجل سلام شامل».

أخـــذت عيناي تتتبَّعان الكلمات المســـطورة تحت العنوان وكأنها سيمفونية تعوَّد المتحدث أن يردِّدها، والقارئ مجبر على ترديدها بعده كببغاء لا يجيد سوى الترديد .

رميت الجريـــدة جانباً وأنا أتســـاءل: أي (ســـلام) هذا الذي يضحكون به علينا؟ أســـلام كُتبت أحرفه بدماء الأبرياء واختبـــأت خلفه صرخات المظلومين المكتومة، أم ســـلام أُقيم على أنقاض دول ســـلبها الذئاب من ساكنيها وحولوا أسيادها إلى خدم يركعون تحت أقدامهم طلباً للقمة العيش المغموســـة بالذل والمهانة؟

نحن نعيش في عصر أصبحت فيه كلمة (السلام الشامل) هي جســـر عبور الجيوش المعتدية إلى البلـــدان الآمنة، وهي المنديل الذي يمســـح به الجندي على فوهة مدفعه الذي قتلت طلقاته البســـمة على أفواه الأطفـــال الصغار، ونزعت الحياة من الأجســـاد المفعمة بالحياة، وحولـــت الديار إلى رماد تناثر مع الرياح .

(السلام) أصبح البســـمة الكاذبة التي يُخفي المتعطشون للدماء خلفها أنيابهم الحادة، تلك التي يغرســـونها بكل خُبْث في الأجســـاد البريئة، في حين يمســـحون بيد على رؤوسهم ويحملـــون باليد الأخرى رايات الدمار الشـــامل، عفواً أقصد (السلام الشامل).

حاولت أن أُخرج نفســـي من بين كومـــة الجرائد المتناثرة وأفكاري التي انزلقت في مســـتنقع أوهام (السلام) وتوجهت إلى النافذة؛ حيـــث الهواء الملوث برائحة البـــارود، وأصوات العصافير التي تنعي المســـاكين، وبصَمْت راقبت الشمس وهي تتسَـــلُّ بهدوء خلف الجبال، وبأشعة باهتة صفراء تلقي تحية الوداع... سكون عجيب يلف المكان وكأنه يستعد لاستقبال ليل طويل.

نهاية كل يوم تودعنا الشمس ويَحل مكانها الليل، وكل يوم، بل كل لحظة ونحن نغالط أنفسنا ونقرأ كلمة الدمار على أنها (سلام): أي سِـــحْر هذا الذي أصاب عيوننا؛ فاصحبت تقرأ الكلمات كما يريدنا الغرب أن نقرأها، لا كما هي مكتوبة؟

إلى متى سنظل ننتظر (السلام) يأتينا من فوهات المدافع الموجهة نحو صدورنا؟

ضاق صدري من رائحة البارود المختلطة بالهواء، فأقفلت النافذة وَعُدْت إلى الجرائد المتناثرة أحاول إدراك كلماتها على حقيقتها، لا كما يريدني الغرب أن أقرأها.

تفسير إسلامي

للتخلُّف الاقتصادي في العالم الإسلامي

د. مصطفى محمود محمد عبد العال عبد السلام(*)
dralrashed@yahoo.com

تمهيد:

أشـــاع الغرب نظرية مقياس التقدُّم والتأخر على أساس اعتبار نموذجه ممثِّلاً للتقدُّم، واتخاذ بلدان (آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية) نماذج التخلُّف؛ على حين عَدَّ نموذجه معيار التقدُّم وأخذ يقيس عليه النماذج الأخرى التي ستُعد متخلِّفة بالضرورة طالما وحدة القياس، هي: النموذج الغربي.

وقد سادت تاريخياً في الفكر الغربي عدة أفكار لتحديد معيار التقدُّم والتخلُّف، وأُولَى هذه الأفكار هي التي اتخذت عنصر القوة وتنازُع البقـــاء معياراً للتقدُّم والتخلُّف، ومن ثَمَّ تدخل القوة المادية والعلوم والتقنيات والقدرات الإنتاجية على أنها معيار لِمَا هو أقـــوى وأصلح؛ أي ما هو تقدُّم. وعندما يقوم المعيار على هذا الأساس يصبح القوي هو صاحب الحق، وهو الأصلح للبقاء، وهو ممثِّـــل التقدُّم؛ فيصبح ما يقوم به من أعمال تقدُّماً وإلى أمام، وما يقوم ضده من أعمال تأخراً وإلى وراء ويغدو نموذجه ونمطه نموذجَ التقدُّم ونمطَه.

ثم ســـادت في الفكر الغربي بعد تطَوُّر المفهوم الســـابق فكرة تخلُّف المجتمعات الإســـلامية على أنها سبب لتفسير ظواهر أخرى كالاســـتعمار الـــذي رأى أن تخلُّف المجتمعات الإسلامية هو السبب في سيطرة الاستعمار الذي تم بالقوة والبطش. وخطورة هذه الفكرة أنها ركَّزت بصورة أشـــد على جَعْل مجموع قيمنا وأخلاقنا وعاداتنا وعلاقاتنا ونهجنا في الحياة مرادفة للتخلُّف.

ومن ثَمَّ تكون مقولة التخلُّف موجَّهة أولاً وقَبْل كل شـــيء إلى مجمـــوع تلك القيم والأخلاق والعـــادات والأفكار ونَهْج الحياة، وهذا يتضمن فيما يتضمن التعريض بالإسلام؛ لأنه في نظرهم مصدر ذلك، ومن ثَمَّ فإن الإقلاع عن التخلُّف هو التشـــبه بالغرب؛ في الأخذ بقيمه وأخلاقه وفكريَّته ونَهْجِه في الحياة باتباع النموذج الغربي.

(*) باحث في شؤون الاقتصاد الاسلامي – بنك التمويل المصري السعودي.

والقضية التي ننطلق منها، هي أن المسألة لم تعد مسألة انتقال الجنوب (العالم الإسلامي) إلى مصافّ البلدان المتقدمة التي يُقصَد بها عادة بلدان أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان؛ على الرغم من أن هذا الانتقال بات شبه مستحيل، بل إن المسألة، هي: كيف يمكن تحقيق نموذج عالمي بديل يتجاوز الأزمة الحضارية التي بلغتها تجارب الدول المتقدمة نفسها؟

وقد قامت تجارب تلك الدول على مفهوم للسيطرة ذي حدين، هما:

١ - سيطرة الإنسان على الإنسان: وهو مفهوم كانت نتيجته تفاوتاً في المشهد بين بلدان أو طبقات غنية تتمتع بمستوى معيشي واستهلاكي مرتفع، وبين بلدان أو طبقات ما زالت تشكو الجوع والحرمان والجهل والبؤس والتخلُّف من جهة، وإخلالاً رهيباً في النظام الطبيعي؛ إلى حد بات يهدد مستقبل الحياة على الأرض في جهة أخرى.

٢ - سيطرة الإنسان على الطبيعة: فقد جاء عصر الحداثة (العولمة) ليضع الإنسان في موضع الخصم لهذه الطبيعة؛ فبقَدْر ما تخطو الحداثة خطواتها وتحقق مزيداً من التقدُّم التكنولوجي، تكون سيطرة الإنسان على الطبيعة قد تعززت، وينال هذا الإنسان من القدرة والحرية ما كان مستحيلاً نيله لولا تلك السيطرة. وقد تُرجِم مفهوم السيطرة هذا عبثاً بالطبيعة واستنزافاً لمواردها وإخلالاً بنُظُمها إلى حدٍّ لم تعد معه آثار الطبيعة في حياة الإنسان التي جعلته يسعى للسيطرة عليها أشد ضرراً عليه من تلك النتائج التي حققها عَبْر سيطرته هذه.

ومن ثَمَّ؛ فلا بد للمشروع البديل أن يحاول الإفلات من هذا المفهوم ويعيد النظر في كثير من المنطلقات والقوانين الوضعية التي قامت عليها الدولة الحديثة، ويحدد رؤيةً جديدة تتجاوز مفهوم السيطرة المزدوجة وتُحقِّق المصالحة بين الإنسان والإنسان من جهة، والإنسان والطبيعة من جهة أخرى.

ومن ثَمَّ فإن المنظومة البديلة (الإسلامية) التي تتجاوز المناهج التي سادت في الأدبيات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في دول العالم الإسلامي لا بد أن تكون نابعة من ذاتيتها وخصوصيتها التي لا تقلد فيها الأنماط الأخرى.

والحقيقة: إن هناك من العقائد والقيم التي لو التزمت بها المجتمعات الإسلامية لحققت التقدُّم والتنمية الشاملة، وإن سقوط هذه المجتمعات في براثن التخلُّف؛ إنما يعني عدم التزامها بدينها، وليس الإسلام هو السبب لسقوطها؛ فقد سادت حضارة الإسلام حِقْبَة كبيرة من الزمن بسبب التزامها بعقيدتها ولَـمَّا تخلت عنها تخلَّفت.

وهذا المبحث يستعرض أهم أسباب التخلُّف في العالم الإسلامي، ويضع تصوراً لهذه الأسباب التي تشترك فيها غالب المجتمعات الإسلامية.

ويستبعد المبحث فكرة الاستعمار كسبب للتخلُّف، والتي سادت في كتابات كثير من الاقتصاديين[1]؛ وذلك لأن الاستعمار جاء نتيجة للانحراف العقيدي الذي ساد أوساط العالم الإسلامي، وهو الذي يتبناه الباحث على أنه محور مستقل وما يأتي بعده من أسباب يعد محوراً تابعاً؛ فكلما زاد الانحراف العقيدي والقيمي تبرز الأسباب التالية وبصورة متزايدة.

يعيش العالم الإسلامي بشكل أو بآخر على أرضية صراع فكري بدأ قديماً بين:

١- المركزية الثقافية الغربية وما نشأ عنها وارتبط بها من أحكام ومعايير ومناهج وآراء، نستطيع أن نتتبع تجلياتها وتحولاتها و تقلباتها في مجالات: قوة وسطوة وعلم وحضارة وتفوُّق وتقنية عالية متعددة. واستندت إلى مبدأ سيطرة الأقوى، وسياسة نَهْب العالم الفقير والسيطرة عليه، وفَتْح أسواقه للاستهلاك وأدوات للابتزاز ومصدر للعمالة الرخيصة، ومصادر عامة للموارد والمواد الخام والثروات الطبيعية التي يحتاج إليها هؤلاء الأقوياء المتقدمون صناعياً.

٢ - المركزية الثقافية الإسلامية التي تؤمن بمقولة: تلازُم الأخذ بالفكر والعلم والتقانة ونظام الحياة والسلوك؛ كلٌّ في آن واحد دون تجزئة أو اختيار أو انتقاء، ولا تقبل أن يكون الإسلام واللغة العربية بما حملت من إرث ثقافي

---

(١) عبد المالك خلف التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي (دراسة تاريخية مقارنة) سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٧١) سنة ١٩٨٣: ص ٦٩.
- د. محمد السيد سعيد، نظرية التبعية وتفسير تخلُّف الاقتصاديات العربية، في: عادل حسين وآخرون «التنمية المستقلة في الوطن العربي» سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥: ص ١٣٢.
- عادل حسين، التنمية العربية الواقع الراهن والمستقبل، المرجع السابق نفسه: ص ١٢.
- د. إسماعيل صبري عبد الله، «محاولة لتحديد مفهوم مجهل»، مجلة المستقبل العربي، بيروت، عدد (٩٠)، ١٩٨٦: ص ٤٥.
- د. علي لطفي، دراسات في التنمية الاقتصادية،مكتبة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٠: ص ١٥٠.

واقتصادي وحضاري شامل عَبْر تاريخها الطويل وراء أسباب التخلُّف البادية، ووراء ما أصاب الأمة من هزائم وتراجُع وتجزئة، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: الانحراف العقيدي والقيمي:

إن الحضارة الإسلامية تمارس كل أنواع النشاط البشري التي تؤدي إلى عمارة الأرض؛ من تجارة وعِلْم وصناعة... وغيرها، وتسعى إلى الإنتاج الوفير في كل أبواب الإنتاج؛ ولكنها في سعيها كله تلتزم بالحلال والحرام وبالقيم الأخلاقية وبما يقتضيه الإيمان بالله واليوم الآخر من تشكيل للسلوك. يقول - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ويقول - سبحانه وتعالى -: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

كانت تجارة العالم في أيدي المسلمين من الصين إلى أوروبا مع ما يستتبع ذلك من معرفة بطُرُق الملاحة البحرية وطُرُق اليابسة في آسيا وإفريقية إلى مداخل أوروبا. ومن العجب أن يكون الرائد الذي دلَّ (فاسكو دو جاما) وأعانه على إتمام رحلته عن طريق رأس الرجاء الصالح - وقد كان مكشوفاً للمسلمين من قبل - هو البحار العربي المسلم «ابن ماجد» الذي أمده بالمعلومات والخرائط الملاحية، وقاده بنفسه نحو جُزُر الهند الشرقية، وهو ما ساعد - دون قَصْد منه - في تَمَكُّن الاستعمار من الدول الإسلامية ومحاربتها اقتصادياً وعسكرياً [1].

وقد كانت الصناعة المتاحة للناس في ذلك الوقت مزدهرة في مراكز العالم الإسلامي المختلفة وكانت دُور العلم عامرة بالأساتذة والطلاب في كل فرع من فروع المعرفة. وما تفردت به الحضارة الإسلامية، هو أنها كانت تقوم بنشاطها التجاري الواسع الذي يمتد من المحيط إلى المحيط وكان ذلك لا يؤدي بها إلى استعمار الأمم الأخرى لنهب خيراتها للحصول على أكبر قَدْر من الربح، كما حدث بالنسبة لدول أوروبا التي سادت العالم فيما بعد.

ولأمور كثيرة لم تحافظ الأمة الإسلامية على هذا المستوى السامق الفذ الذي مارسَتْه عدة قرون طويلة وتخلت عن القيادة لدول الاستعمار، وكان ذلك بسبب ما ساد في مجتمعاتها من انحرافات عقيدية وقيمية؛ حيث أفرغت معاني العقيدة من محتواها الأساسي وأصبحت (لا إله إلا الله) كلمة تقال باللسان، وأُخرج العمل من مسمى الإيمان ونشأ التواكل بديلاً عن التوكل الذي يُعتبَر طاقة إيجابية دافعة يقوم به المؤمن مع اتخاذ الأسباب. يقول - تعالى -: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أما التواكل؛ فهو صورة سلبية معطِّلة تتقاعس عن الأخذ بالأسباب متذرعة بالتوكل على الله. لقد أفسد التواكل كثيراً من عقيدة القضاء والقدر وحوَّلها من عقيدة إيجابية دافعة إلى عقيدة سلبية مخذِّلة، وإلى الرضا السلبي بالواقع وعدم محاولة التغيير بحجة أن: «مالك سوف يأتيك»، وإلى تخلٍّ عن مسؤولية الإنسان عن عمله بحجة أن ما وقع منه قد وقع بقَدَر الله، وإلى قعودٍ عن تغيير الواقع السيئ: من مَرَض وعَجْز وفَقْر؛ بذلك نشأ القعود عن تعمير الأرض بحجة أن الدنيا ملعونة والمعوَّل عليه هو الآخرة، وأن الإنسان حسبه في هذه الدنيا عيش الكفاف لكي ينجو بروحه من التعلُّق بالدنيا ولكي يفرِّغ روحه استعداداً للآخرة.

وبذلك تم الانصراف عن عمارة الأرض بهذه المفاهيم المغلوطة؛ فالقعود عن الإنتاج وحَصْره في أضيق نطاق ممكن - وهو نطاق الكفاف - يجعل الدولة تعيش كلها في حالة الكفاف ولا يجعل لديها الفائض الذي تنفقه في متطلبات التمكين وعمارة الأرض. يقول - تعالى -: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

والعبادة هنا تقتضي العمل وليس القعود عن العمل والإنتاج؛ فالأمر يحتاج إلى الإنتاج الوفير والاستهلاك الأقل؛ وهذه هي المعادلة التي يتم بها التمكين وعمارة الأرض.

أما الإنتاج القليل على قَدْر الاستهلاك القليل فلا يؤدي إلا إلى فقر مجموع الأمة الإسلامية، والذي أدى إلى الضعف والتخاذل.

والاقتصار على البعد الروحي في العبادة هو مفهوم خاطئ للعبادة؛ فالروحانية ليست مسألة غيبية مجردة تجسِّدُها مختلف الشعائر الدينية فحسب؛ وإنما هي العمل الصالح ابتغاء وجه الله - تعالى - والحث عليه لتوظيف وتعبئة كل الموارد الطبيعية والبشرية المتاحة بهدف توفير ظروف أكثر ملاءمة للإنسان؛ يتسنى له من خلالها إدراك

(١) جمال عبد الهادي - موسوعة التاريخ الإسلامي، مؤسسة المدينة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٩٠: ص ١٨٨.

معنى وقيمة وغاية وجوده: إنه مفهوم للعبادة يربط الممارسة بالتأمل لتحرير العقل والسمو به من دائرة استكشاف الخيرات والتمتع بها دون إسراف أو تبذير إلى دائرة أرقى تتيح قِرَان كل ذلك بالتأمل. يقول - تعالى -: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٤ - ٣١] ويقول أيضاً: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

ويقول - سبحانه -: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ٦ - ١٠].

ليشمل هذا التأمل التاريخ البشري بأكمله. يقول - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [محمد: ١٠]

وذلك بهدف استخلاص العبر والاستفادة من تجارب الآخرين لتقويم مسيرة الإنسان نحو تحقيق حريته في أعلى مراتبها وأتم أشكالها في توحيد الله - عز وجل - حيث تقترن الممارسة بالوعي، والوعي بالمسؤولية، والمسؤولية بالآخرة ويمتزج الإيمان بالإخلاص والإخلاص بالتقوى والتقوى بالعمل.

أيضاً سادت في المجتمعات الإسلامية ظاهرة تكاد تكون عامة، هي ظاهرة فقدان المعيار الخُلُقي القيمي السليم الذي يحكم السلوك والعلاقات والصِّلات بين الأفراد والأُسَر والجماعات؛ فالكيان الروحي للفرد والأمة يتآكل في مثل هذا الوضع، وتنحسر الطموحات والتطلعات وتتقوقع الإرادة وتتراجع وتضمر وتضعف النفوس، وتنمو القابلية للتخلُّف والمذلة والهزيمة وأشكال الخواء الروحي والعقلي والاجتماعي، وتصل إلى أفضل مستوياتها في الأداء السلبي.

إن بنية اجتماعية وروحية كهذه يزداد فيها استعداد الفرد للاستهلاك والتقليد والاتباع ويَقِل في مناخها إنتاجه كما تَقِل مبادراته و إبداعاته وتراه يستسلم في ظلِّها شيئاً فشيئاً؛ لإحساس يشتد في أعماقه بعدم الجدوى من بذل أي جهد للَّحاق بالمتقدمين والمبدعين المعاصرين ومن ثَمَّ يدمن تقليدَهم ومجاراتهم في استهلاك ما يستهلكون، ويدخل من هذا المدخل وسواه إلى ساحة الإحساس بالدونية ويعكف على تسويغ ذلك وإدمانه، وربما أطل في لحظات أيضاً ورأى عمق الهوة التي يشارك هو في صُنْعها؛ تلك التي تفصله عن الواقع والعصر، ولكنه لا يلبث أن يستسهل السهل بدلاً من أن يستسهل الصعب بطموح وعمل يوصلانه إلى حيث المراتب العليا.

إن كل المفاهيم الإسلامية قد فسدت و انحرفت في حس الأجيال المتأخرة؛ حيث كان الانحراف على النحو التالي:

١- مفهوم (لا إله إلا الله) أصبح مجرد كلمة تقال باللسان. والقلب عنها غافل، والسلوك عنها بعيد.

٢- مفهوم القضاء والقدر الذي تحوَّل إلى قوة مثبطة مخذلة.

٣ - مفهوم الدنيا والآخرة اللتين انفصلتا وتحولتا إلى معسكرين متقابلين متعاديين؛ العمل لإحداهما يؤدي إلى إهمال العمل للأخرى.

٤ - مفهوم عمارة الأرض الذي تحوَّل من عمارة الأرض بمقتضى منهج الله إلى توقُّف العمارة. وأصبحت المجتمعات الإسلامية في النهاية صورة باهتة وممسوخة لا تستطيع أن تصمد للهجوم الوحشي الذي تدافع إليها من كل صَوْب في صورة استعمار لهذه الدول؛ وهو ما يعني سقوطاً في براثن التخلُّف والتبعية.

ثانياً: الانحراف عن فَهْم عمارة الأرض:

عمارة الأرض هي جزء من الخلافة التي خلق الله الإنسان من أجلها. يقول - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ويقول - تعالى -: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وعمارة الأرض وَفْقاً للمنهج الرباني تستلزم الأخذ بالأسباب العلمية والمادية وترفض - بناءً على ذلك - التواكل والقعود عن الإنتاج حتى لا تتحكم دول الاستعمار في هذه المجتمعات المتخلِّفة. ومن هذا المنطلق؛ فإنه لا يكفي الاستغفار والدعاء لجلب الأرزاق؛ وقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - للذين كانوا قابعين في المسجد بدعوى التوكل على الله: (لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم! ارزقني؛ وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة؛ إنما المتوكل رجل ألقى حبة في الأرض وتوكل على الله).

ويشمل موجبات الأخذ بالأسباب في المفهوم الإسلامي

ما يلي:

١- العمل الجاد والضرب في الأرض ابتغاء الرزق الطيب: فالعمل في الإسلام واجب شرعي وضرورة بشرية تنفيذاً لأوامر الله - سبحانه وتعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقد اهتم الرسول ﷺ بالعمل وحث الناس على طلب الرزق ويقول ﷺ:

«من بات كالّاً من عمل يده بات مغفوراً له»(١).

«إن أشرف الكسب كَسْبُ الرجل من عمل يده»(٢).

«ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده؛ وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»(٣).

و ذم الرسول ﷺ الرجل الذي يسأل الناس، وحث على العمل: «من سأل مسألة وهو عنها غني كانت شيئاً في وجهه يوم القيامة»(٤).

كما لا يجوز إعطاء الزكاة والصدقات للغني والقوي القادر على العمل والكسب: «لا تَحِلُّ الصدقات لغني ولا لذي مِرَّة سويٍّ (قدرة أو مقدرة)»(٥).

ونخلص من هذه الأحاديث إلى ما يلي:

١ - محاربة الإسلام للكسل ودَفْع الكسالى للعمل: فلا يجوز للرجل القادر على العمل أن يعيش عالة يتكفف الناس أعطوه أو منعوه.

٢ - الرزق مرتبط بالسعي وبَذْل الجهد.

٣ - العمل من موجبات الحصول على الرزق: فكما لا يجوز للفرد القادر أن يُعَال من غيره، فلا يجوز للدولة المسلمة أن تعيش عالة على الدول الأخرى ومواطنوها كسالى خاملون.

٢ - الهجرة والضرب في الأرض ابتغاء الرزق: يمكن للمسلم الهجرة إذا لم يستطع الحصول على الرزق الطيب في بلده؛ حيث إن رزق الله غير محدد بمكان وليس محصوراً في جهة وليس حكراً على أحد. ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

ولقد ورد في تفسير ابن كثير أن المُراغَم هو التحوُّل من أرض إلى أرض وأن السَّعة يُقصَد بها الرزق».

وقد حث الرسول ﷺ على الهجرة من مكان لآخر لأي غرض، ومنها جلب الرزق: «سافروا تستغنوا»(٦).

إن هذه الأحاديث وأمثالها جعلت المسلمين الأولين ينطلقون في فجاج الأرض ينشرون الدين ويلتمسون الرزق ويطلبون العلم ويجاهدون في سبيل الله.

ومبدأ الهجرة والضرب في الأرض ابتغاء الرزق يصف عالماً إسلامياً بلا قيود على عملية الانتقال من بلد إسلامي لبلد آخر في صورة تكاملية يحتاجها العالم الإسلامي اليوم.

والضرب في الأرض يشمل كل الأنشطة طالما كانت مشروعة في نظر الإسلام وصَحِبتها النية الصالحة وأُنْجِزت بإتقان وإحسان، والتُزِم فيها بحدود الله، ولم تَحُل بين الإنسان وأداء واجباته الدينية، كما قال - تعالى-: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧](٧).

ونخلص مما سبق إلى أن الإسلام قد عُني بالتنظيم الاقتصادي والاجتماعي؛ فنظم العمل، وأوجب السعي وراء الرزق، وحث على أن تتكافأ الأجور مع طبيعة العمل والمجهود المبذول، ولكن الغالبية الكبرى من السكان في الدول الإسلامية تعاني من الجهل والأمية التي أدت بالكثير منهم إلى تفسير التعاليم والمبادئ الإسلامية تفسيراً خاطئاً مما أدى إلى انتشار قيم التواكل والروحانية الخرافية... وغيرها من أنماط السلوك التي لا تتفق بالفعل مع احتياجات التنمية الحديثة(٨).

ثالثاً: سوء استغلال وعدم ترشيد الموارد الاقتصادية:

سيطرت المفاهيم الغربية وسادت على الثقافة الإسلامية كنتيجة طبيعية لحالة التبعية التي تحياها معظم الدول الإسلامية ومنها تفسير المشكلة الاقتصادية على أنها مشكلة الندرة؛ فتعددت حاجات الإنسان المادية ونَمَت نموَّها المطرد عَبْر الزمان والمكان، مقابل ندرة الثروات الطبيعية في جوف الأرض المحدودة، وهي (الكفيلة بإشباع تلك الحاجات).

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه أحمد.
(٥) رواه الترمذي.
(٦) رواه الطبراني في الأوسط.
(٧) د. يوسف القرضاوي، «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام» مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٥: ص ٤٥.
(٨) د. يوسف القرضاوي، «عمل الإنسان في معاشه عبادة بشرط» مجلة الاقتصاد الإسلامي، بنك دبي الإسلامي، دبي، العدد (٧٥) ١٩٨٧: ص ٣٨.

وهـو ما يُطلَق عليه «شح الطبيعة»، ويصورون الإنسان على أنه في صراع معها على البقاء.

والحقائق تدحض هذه الدعوى؛ فالإنسان لا يزرع إلا أقل من نصف الأراضي الصالحة للزراعة في العالم وفي بعض البلاد المتخلِّفة لا يصل إلى الخُمُس؛ فهل هي حقاً مشكلة ندرة في الموارد كما يحلو للغرب أن يفسر المشكلة الاقتصادية أم في استغلال الموارد المتاحة (النِّعَم بالمفهوم الإسلامي)؟

يقول الفخر الرازي في تفسيره: «ولن يتيسر بحال أن نحصي نِعَم الله - سبحانه وتعالى - التي سخَّرها للإنسان؛ لأنها تخفى وتتعدد وتتباين بحيث لا يحتويها الحصر والبيان؛ وهي مع ذلك متوافرة تمتد إليها يد الإنسان إذا ما اجتهد وعمل. وقد قضى الله أن تكون الدنيا دار ابتلاء يُختَبَر فيها الإنسان بعمله ولا يحصل على النعم إلا بالجهد، ولقد قدَّرها الله كافية للإنسان، ولكن لا بد من العمل للحصول عليها وليُبْتَلى في عمله: أيُحسن أم يُسيء؟ وعلى أساس ذلك يكون الخير والبركة في الدنيا والحساب والجزاء في الآخرة ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]».

إن الله - عز وجل - قد خلق السماوات والأرض وقدَّر فيها أقواتها وطلب من الإنسان السعي والجد وبَذْل الجهد واستخدام الموارد الطبيعية التي سخَّرها الله استخداماً رشيداً في ما يفيد البشر أو يوجهها توجيهاً لا يُقِرُّه الإسلام.

وتتحقق أنعم الله - عز وجل - على البشرية بأحد شرطين، أو بهما معاً، هما:

١- العمل عل استغلال النعم.

٢- الإصلاح في الأرض بطاعة الله فيما أمر.

وتخاذلت الأمة الإسلامية، وتخلت عن الشرطين الواحد تلو الآخر، وأخذ الغرب بالسبب الأول، والذي يحققه الله - عز وجل - لهم من خلال الجهد والعمل على استغلال الموارد أو النعم؛ فمنحهم الله - عز وجل - من نِعَمه التي لم يحجبها عنهم لعدم طاعتهم. يقول الله - تعالى -: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

والمحظور هو الممنوع كما جاء في تفسير الطبري.

إن الله - سبحانه وتعالى - يعدد نعمه على البشر كافة (مؤمنهم وكافرهم، صالحهم وطالحهم، بَرِّهم وفاجرهم، طائعهم وعاصيهم) وإنها لرحمة من الله وسماحة وفَضْل أن يتيح للكافر والفاجر والعاصي نِعَمه في الأرض لعلهم يشكرون.

إن الكون مليء بنعم الله الكثيرة وهذا له علاقة بعقيدة التوحيد؛ إذ تظهر فيها يد القدرة وتتجلى آثارها في كل مشهد فيها ومنظر، ثم بعد ذلك لا يشكر الإنسان ولا يذكر[١].

وعندما كانت هذه العطاءات بدون إصلاح في الأرض بطاعة الله؛ نُزعت البركة وسادت الاهتمامات بالجوانب المادية على حساب الأبعاد الروحية والاجتماعية والأخلاقية.

ومن ثَمَّ ليست المشكلة الأساسية هي مشكلة ندرة الموارد الطبيعية كما يقول بذلك الفكر الغربي؛ بقَدْر ما هي مشكلة سوء استغلال هذه الموارد.

وتتمثل عدة عوامل في تفسير هذا القصور في استغلال الموارد بالنسبة للدول الإسلامية، أهمها:

١ - عدم توفُّر عناصر الإنتاج الأخرى اللازمة لاستغلال الموارد الطبيعية المتاحة وبصفة خاصة عنصر رأس المال.

٢ - عدم توفُّر الدراية والخبرة الفنية اللازمة، وسوء الإدارة داخل الوحدات الإنتاجية التي تتولى استغلال الموارد الطبيعية مع عدم اتباع الأسلوب العلمي في مجال الاستغلال الاقتصادي لما توفَّر في الدولة من موارد طبيعية.

٣ - ضيق السوق المحلي وعدم إمكانية استيعاب كل ما يُنْتَج من سلع مع صعوبة التصدير إلى الأسواق العالمية؛ إما لارتفاع تكاليف الإنتاج، وإما لانخفاض نوعية الإنتاج[٢].

ومن ثَمَّ تحتاج الموارد المتاحة في الدول الإسلامية إلى طاقات الإنسان الإبداعية وأدوات تكون في خدمته، وإلى مناخ عمل وإنتاج وحياة تمكِّنه من استخدام قدراته بإبداع واقتدار، وأن يوظفهما التوظيف السليم والناجح لاستغلال الموارد الطبيعية دون قصور أو تعطيل لاستهداف الخروج من مأزق التخلُّف والتبعية.

رابعاً: الآثار السلبية للعلاقات الإقتصادية الدولية:

ساهمت الآثار السلبية للعلاقات الاقتصادية الدولية في استمرار حالة التخلُّف التي تعتري الدول الإسلامية الآن؛ فالغرب - بشكل عام - يرفض امتلاك

(١) د. منصور الرفاعي عبيد، شرح عقيدة التوحيد، مكتبة الأزهر، ١٩٩٨: ص٢١.
(٢) د. علي لطفي، دراسات في التنمية الاقتصادية، مرجع سابق: ص ١٣٤.

الدول الإسلامية لمقومات القوة والعلم والتقنية المتطورة التي تجعلهم قادرين على تحرير قدراتهم السياسية والاقتصادية؛ وحينما يستفيق العالم الإسلامي من غفلة الانحرافات العقيدية والقيمية؛ فإن هناك مؤثرات دولية حدثت بسبب انسحاب العالم الإسلامي من قيادة البشرية وتسلُّم الغرب لها. هذه المؤثرات جعلت العالم الإسلامي حبيس التخلُّف ومنها:

أ - تأثير الثورة (التقنية):

تُعدُّ هذه الثورة أحد معالم النظام العالمي في المرحلة الراهنة؛ فهي الأساس المادي والمحرِّك لهذا النظام؛ بحيث أصبح مستقبل العالم اليوم رهن هذه الثورة؛ فأصبحت - بناءً على ذلك - تمثل تحدياً ظاهراً للدول الإسلامية التي تريد الفكاك من التخلُّف؛ فقد أصبحت الفجوة التكنولوجية بين الشمال والجنوب أكثر اتساعاً، وأصبح من الصعوبة أن يقفز العالم الإسلامي إلى تكنولوجيا الثورة الصناعية.

إن الواقع التقني للعالم الإسلامي يعاني من القصور ويفتقد ذاتية التطور والتقدُّم، ولا يغير من هذه النتيجة إقامة مشروعات صناعية هنا أو هناك تستخدم الآلات والمعدات الحديثة التي تحوي تكنولوجيا مستورَدة بالغة التعقيد.

وبالرغم من أن بعض الدول الإسلامية تمتلك رؤوس أموال ضخمة ومزيداً من قوة العمل الماهرة والمتدربة؛ فإن هذه الدول الإسلامية - في الوقت نفسه - تُعدُّ سوقاً عالميةً للمنتجات الصناعية الغربية.

وعدم توفُّر التوحيد السياسي والاقتصادي بين تلك الدول تَسبَّب في عدم وجود قوة اجتماعية قادرة على تنظيم موارد الدول الإسلامية في اتجاه تحقيق أهداف تكنولوجية مشترَكة.

وترتَّب على عجز الدول الإسلامية عن استيعاب الثورة التقنية أنها أصبحت حقلاً تمارس فيه دول الغرب تكنولوجيا تجاربها؛ وتزداد - بناءً على ذلك - درجة تأثُّر هذه الدول بنتائج الثورة التكنولوجية والمتمثلة أساساً في تزايد درجة الاعتماد المتبادل وظهور نمط تقسيم العمل داخل السلعة الواحدة.

إن تدويل العملية الإنتاجية وخاصة بفعل تصاعُد الأهمية النسبية للشركات متعدية الجنسيات، والذي بناءً عليه تزداد درجة ارتباطها بالنظام العالمي ودرجة اندماجها في السوق العالمية وَفْقاً لنمط تقسيم العمل الدولي الذي يتفق مع استراتيجيات النمو والتنمية في النظام الرأسمالي العالمي؛ كل ذلك يقلل مساحة الحركة لهذه المنطقة، وينحسر دورها كفاعل في النظام العالمي وبصورة أخرى تزداد درجة تهميش الدول الإسلامية أو درجة تبعيتها؛ وهو ما يُضْعِف قدرتها على التأثير في المتغيرات الدولية.

ب - تأثير التكتلات الاقتصادية العالمية:

تقوم التكتلات الاقتصادية الدولية بوضع إجراءات تؤثِّر بلا شك في صادرات الدول الإسلامية؛ وخاصة أن هذه التكتلات وما يرتبط بها من تصاعُد النزعات الحمائية تضع حداً لإمكانيات التصنيع التصديري، ومن ثَمَّ؛ فإن هناك قيوداً يمكن أن تضعها هذه التكتلات على مستقبل العالم الإسلامي، منها:

١ - زيادة النزعات الحمائية ضد الصادرات من خارج هذه التكتلات.

٢ - وَضْع مقاييس فنية موحَّدة للمنتجات التي يتم تداولها داخل هذه التكتلات مما قد يضع قيداً على صادرات الدول الإسلامية.

ج - تأثير نشاط الشركات عابرة القوميات:

تؤدي الشركات عابرة القوميات (متعدية الجنسيات) الدور القيادي في عملية العولمة؛ حيث تُعتَبر المصدر الأساسي للثورة التكنولوجية ولحركات رؤوس الأموال الأجنبية وتتسم بكبر حجمها وانتمائها إلى دول اقتصاد السوق المتقدمة صناعياً.

ويتميز هيكل السوق الذي تباشر فيه هذه الشركات نشاطها بأنه سوق احتكار القلة؛ لِمَا تتمتع به هذه الشركات من احتكار التكنولوجيا الحديثة والمهارات الفنية والإدارية العالمية، وفي الغالب ينتمي المركز الرئيسي لهذه الشركات إلى دول اقتصاديات السوق، وفي مقدمتها الولايات المتحدة.

وتتسم هذه الشركات بتنوع نشاطها الكبير فضلاً عن ازدياد درجة التكامل الأفقي والرأسي لهذا النشاط وتوزيعه على عدد كبير من دول العالم بما يشمله هذا التنوع داخل قِطاعات الاقتصاد والزراعة والصناعة واستخراج المواد الأولية.

وتقوم هذه الشركات باستثماراتها في دول إسلامية عديدة؛ بما يخدم مصالح الدولة الأم؛ وهي الدول المتقدمة صناعياً.

ومن الأمور الخطيرة هنا: إمكانية أن يتعارض نشاط تلك الشركات مع المصالح القومية للدول الإسلامية - خاصة - في الصناعات الاستخراجية أو الصناعات التحويلية المسبِّبة للتلوث البيئي الذي يخرج عن دائرة اهتمام الشركات متعدية الجنسيات.

وقد سعت أيضاً هذه الشركات للحصول على إمدادات جديدة من المواد الخام والوقود من الدول الإسلامية، كما اتجهت إلى استغلال العمل الرخيص في بعض المناطق الإسلامية لإنتاج سِلَع التصدير التي تحتاجها الدول المتقدمة، ومن ثَمَّ لا يعدو نشاط هذه الشركات إلا أن يكون مَدَّ الدول المتقدمة بما تحتاجه هي وليس ما تحتاجه الدول الإسلامية، مما يساعدها على التطوير.

د - تأثير المؤسسات الدولية:

إن الإمكانيات الكبيرة لكلٍّ من: (صندوق النقد الدولي والبنك الدولي) في التأثير على القرارات الاقتصادية للأعضاء لا ترتبط بدور كلٍّ من (الصندوق والبنك) في إقراض أو مساعدة الدول الإسلامية لمواجهة أزمات ميزان المدفوعات أو احتياجات النمو الاقتصادي فحسب، وإنما ترتبط بالدور القيادي لهذه المؤسسات في النظام المالي والدولي ونصائحها بالنسبة لدولة من الدول عن مدى استعداد المؤسسات المالية المختلفة العامة والخاصة لتقديم الأموال للدولة المعنية؛ لمعاونتها في مواجهة أزمة قصيرة الأجل في ميزان مدفوعاتها، أو لتقديم تمويل طويل الأجل لأنشطة تنموية، أو حجبها لمثل هذه التدفقات.

ويزداد نفوذ البنك الدولي بصفة خاصة؛ لأن أغلب الدول المقترضة تقبل دَوْره كقائد ومنسق ومتحدث باسم مانحي المساعدات أو القروض؛ وبذلك يُستخدَم هذا النفوذ في اتِّبَاع الدول المقترضة لسياساته عن طريق الضغط الاقتصادي؛ من خلال الربط بين حصول الدولة على قروض ومساعدات وبين إجراء تغييرات معينة في سياساتها أيضاً عن طريق التأثير على الفكر التنموي في الدول المتلقية؛ ومن ثَمَّ يصعب على الدول المتلقية تبنِّي أيدولوجيتها الخاصة النابعة من قوميتها الدينية.

إن السياسات التي يدعو إليها البنك هي - في الأغلب الأعم - تعبير عن وجهة نظر الدول الرأسمالية المتقدمة التي لها سيطرة على البنك؛ حيث إنها المصدر الأساسي للأموال التي يتم جَمْعُها أو إقراضها، ومن ثَمَّ تضمن الدول الرأسمالية أن تدور في فلكها الدول الإسلامية من خلال تدفُّق الأموال منها إلى الدول الرأسمالية عن طريق الأرباح والفوائد والتجارة الدولية غير المتكافئة في ظل تقسيم العمل الدولي السائد عالمياً.

أيضاً الإعلام الدولي يتحكم في الثورة المعلوماتية؛ فقد أصبح العالم بحكم ثورة الاتصالات قرية واحدة تنتقل فيه الأخبار من مكان إلى مكان بسرعة فائقة، ومكَّن تطوُّر الأقمار الصناعية من رؤية الأحداث التي تجري في أحد أطراف المعمورة بعد لحظات محدودة من وقوعها؛ إلا أن عملية النقل ليست شاملة أو محايدة. إن ما يُنقل فعلاً من أنباء أو أخبار وأحداث هو ما ترى وكالات الأنباء العالمية إذاعته وما تعتقد شبكات الإرسال أو المسيطرون عليها أهمية إرساله وتوزيعه. ومضمون أي رسالة إعلامية محكوم - هو أيضاً - باختيارات العناصر المسيطرة على الإعلام ووجهة نظرها حول الأحداث المبثوثة.

ومن ثَمَّ فإن الرسالة الإعلامية تتلون بوجهة نظر مرسليها الذين هم في هذه الحالة: الوكالات الدولية للدول الرأسمالية المتقدمة، وهذا من شأنه أن يدعم النظرة إلى الدول الرأسمالية المتقدمة باعتبارها مركز العالم ويؤكد وجهة نظرها فيما يتعلق بقضايا التنمية والعلاقات الاقتصادية بين الدول الرأسمالية والدول الإسلامية.

ومن ثَمَّ تسود القيم الاستهلاكية بصورة واسعة خاصة أن هناك محدودية في المقدرة على إنتاج نوعية من البرامج المطلوبة تؤدي لاعتماد الدول الإسلامية على الإنتاج الخارجي؛ فتقدم بذلك برامج مستوردة ذات مضمون ثقافي وقيمي يخالف الكثير من الثقافات والقيم الإسلامية؛ وخطورة ذلك في أنها تُقدِّم أسلوباً للحياة ونوعاً من الحياة الغربية كمَثَلٍ أعلى محتذىً لدى العديد من الشعوب الإسلامية التي لا تمكِّنها قدراتها المادية وإمكانياتها الإنتاجية من تحقيق مثل هذا النمط.

في دائرة الضوء

مفهوم النظر في القرآن الكريم

عبد الحكيم درقاوي

الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم:

لا جَرَم أن الوحي (قرآناً وسنة) مجموعة من المفاهيم، إذا حُصِّلت حُصِّلت كليات الدين، وإذا لم تُفقَه لم يُفقَه الدين. ولا سبيل إلى التفقُّه في النص القرآني بغير دراسة مصطلحاته وألفاظه الكريمة المكوِّنة له؛ فهي مفتاح وصول العقول إلى مراد الله، عز وجل. فالمصطلح القرآني تتباين دلالاته بتباين امتداداته داخل النسيج المفهومي للنص القرآني، وتختلف معاني مبانيه باختلاف القضايا التي طُرح فيها هذا المصطلح.

ويراد بالدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن: «تلك الدراسة المنهجية الجامعة التي تبيِّن مفاهيم المصطلحات من نصوصها، وتبيِّن المقومات الدلالية الذاتية للمصطلح عبر ضمائمه واشتقاقاته والقضايا الموصولة به»[1].

منهجية دراسة المصطلح القرآني:

ينحصر عمل الدارس للمصطلح القرآني في المراحل التالية:

(١) مفهوم التأويل في القرآن الكريم والحديث الشريف، فريدة زمرد، معهد الدراسات المصطلحية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس – المغرب

أ - مرحلة الإحصاء: وهي تشمل:

❊ إحصاء المصطلح كيفما ورد (شكلاً وحجماً واشتقاقاً).

❊ إحصاء القضايا العامة المندرجة تحت مفهومه.

ب - مرحلة الدراسة المعجمية: والغاية منها ما يلي:

❊ الوقوف على المعنى العام للجذر اللغوية للمصطلح.

❊ الوقوف على المعاني الخاصة لمشتقات هذا الجذر؛ وذلك بالاعتماد على أمهات المعاجم.

ج - مرحلة الدراسة النصية:

وهي المرحلة الحاسمة في البحث، تقوم على ضبط مفهوم المصطلح؛ وذلك بعد تتبُّع دلالاته الجزئية في كل نص.

ولدراسة المصطلح القرآني مقاصد تتجلى في:

❊ الاستجابة لأمر الله - عز وجل - في تدبُّر القرآن الكريم. قال - تعالى -: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

❊ ترسيخ المفهوم الصحيح ونفض الغبار عنه وكشف الغطاء عن معانيه لتحصيل المقاصد التابعة.

❊ تصحيح الأفهام الخاطئة.

❊ جريان هذه المصطلحات وتداوُلها على الآذان استماعاً والأفواه قولاً.

❊ العمل بمقتضياتها باللسان والقلب والجوارح.

مفهوم (النظر) في القرآن الكريم:

تدور مادة (نَظَرَ) في اللغة، كما جاء في تهذيب اللغة للأزهري على:

- نَظَرِ العين لقول الله - عز وجل -: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] الأولى بالضاد والأخيرة بالظاء. وقال أبو إسحاق: نَضرتْ بنعيم الجنة والنَّظر إلى ربها.

- ونَظَرِ التفضُّل: يقول القائل للمؤمَّل يرجوه: إنما أنظر إلى الله ثم إليك، أي إنما أتوقع فضل الله ثم فضلك.

- ونَظَرِ الانتظار؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علينا
وأنظرنا نخبرك اليقينا

- ونَظَرِ الهيبة[1].

ووردت مادة (نَظَرَ) في القرآن الكريم في (أربع ومئة) موضع، موزعة على خمس وأربعين سورة باشتقاقات مختلفة كما سأُبيِّن:

١ - نَظَرُ الرؤية: قال الله - عز وجل -: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] قال ابن عطية المحاربي: (حَمَل هذه الآية أهل السنَّة على أنها متضمنة رؤية المؤمنين لله - تعالى - وهي رؤية دون محاذاة ولا تكييف ولا تحديد كما هو معلوم؛ موجود لا يشبه الموجودات كذلك هو لا يشبه المرئيات في شيء؛ فإنه ليس كمثله شيء لا إله إلا هو)[2] وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله - عز وجل - في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند علماء الحديث، كحديث أبي سعيد وأبي هريرة: (أن أناساً قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تُضَارُّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحَاب؟» قالوا: لا. قال: «فإنكم تَرَون ربكم كذلك»)[3].

٢ - نظرُ الانتظار: قال - تعالى -: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩] يخبر - تعالى - عن تكذيب الكفار لقيام الساعة في قولهم للمؤمنين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال ابن كثير: (قال الله - تعالى -: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع)[4].

٣ - نَظرُ الاعتبار والتأمل: قال - عز وجل -: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

يقول - تعالى - مخاطباً عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي قد مر هذا مع من سبقكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم ودارت الدوائر على الكافرين، ولهذا قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ قال ابن عاشور: (وأُريدَ النظر في آثارهم؛ ليحصل منه تحقُّق ما بلغ من أخبارهم، أو السؤال عن أسباب

(١) للتوسع أكثر انظر تهذيب اللغة: مادة (نَظَرَ) ج٥/٣٩ - ٤٠ - ٤١.
(٢) المحرر الوجيز: ٦/٤٥٨.
(٣) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة).
(٤) تفسير ابن كثير: ٦/٥٨١.

هلاكهم، وكيف كانوا أولي قوة، وكيف طغوا على المستضعفين؛ فاستأصلهم الله، أو لتطمئن نفوس المؤمنين بمشاهدة المُخبَر عنهم مشاهدةَ عيان؛ فإن للعيان بديع معنى (لأنها) بَلَغتهم أخبار المكذبين، ومن المكذبين عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس، وكلهم في بلاد العرب يستطيعون مشاهدة آثارهم، وقد شهدها كثير منهم في أسفارهم)[1].

ومنه قوله - تعالى -: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]. وقوله - تعالى - أيضاً: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]. هذه المشاهد معروضة لنظر الإنسان حيثما كان (السماء، والأرض، والجبال، والحيوان) ليتأمل فيها ويمعن فيها النظر، ليصل إلى معرفة الله - جل جلاله - وقدرته.

٤ - نَظرُ التعطف: ويراد بالنظر في القرآن الكريم أيضاً، العطف والرحمة والشفقة؛ لقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧] أي: إن الذين يفعلون ذلك من أهل الكتاب - بتركهم عهد الله الذي عهد إليهم - لا حظ لهم في خيرات الآخرة، ولا نصيب لهم من نعيم الجنة ولا يعطف عليهم بخير، مقتًا من الله عليهم. قال ابن كثير: (لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة)[2].

ومنه ما أخرجه الإمام مسلم من طريق أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»[3] قال الإمام النووي في شرحه على مسلم: (لَا يَنْظُر إِلَيْهِمْ؛ أي: يُعرِض عنهم. ونظره - سبحانه وتعالى - لعباده رحمته ولطفه بهم)[4].

٥ - نَظرُ المهلة والتأجيل: قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١ - ١٦٢] وقد فسر الإمام البغوي هذه الآية بقوله: (لا يُمهَلون ولا يُؤَجَّلون، وقال أبوالعالية: لا يُنظرون فيعتذرون كقوله - تعالى -: ﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦][5].

وروي عن الآلوسي قوله: (الإنظار بمعنى التأخير؛ أي لا يُمهَلون عن العذاب ولا يؤخَّرون عنه ساعة)[6].

ومثله قوله - تعالى -: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠] وشاهده أنه إذا تعذر على غريم سداد ما عليه من الدَّين، فالأصل تأجيل الدَّين عليه إلى ميسرة. قال الإمام الشوكاني: (لما حَكَم - سبحانه - لأهل الربا برؤوس أموالهم عند الواجدين للمال حكم في ذوي العسرة بالنظرة إلى يسار. والعسرة: ضيق الحال من جهة عدم المال، ومنه جيش العسرة. والنظرة: التأخير)[7]. ومنه قوله - تعالى -: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٣].

٦ - نَظرُ الخوف والرعب والمذلة: قال - عز وجل -: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩] هذه الآية نزلت في شأن المنافقين. روى الإمام السيوطي عن ابن أبي حاتم عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله: (﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ قال: إذا حضروا القتال والعدوَّ ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أجبن قوم، وأخذله للحق ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ قال: من الخوف)[8].

ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥] والشاهد أن الظالمين أذلَّهم الخوف الذي نزل بهم وخشعوا له، فطفق ينظر هؤلاء الظالمون إلى النار حين يعرضون عليها من طرْف خفي ذليل. وهذا ما خلَص إليه الإمام الطبري - بعد سرده لجملة من الروايات - بقوله: (والصواب من القول في ذلك، القول الذي ذكرناه عن ابن عباس ومجاهد، وهو أن معناه: أنهم ينظرون إلى النار من طرْف ذليل، وصفه الله - جل ثناؤه - بالخفاء للذلة التي قد ركبتهم، حتى كادت أعينهم أن تغور، فتذهب)[9].

(١) التحرير والتنوير: ٣/ ٢٢١.
(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٢.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة.
(٤) شرح النووي على مسلم: ١/ ٢١٧.
(٥) معالم التنزيل: ٢/ ١٧٦.
(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٢/ ٨٠.
(٧) فتح القدير: ١/ ٤٠٤.
(٨) الدر المنثور في التأويل بالمنثور: ٨/ ١٣٨.
(٩) جامع البيان في تأويل القرآن: ٢١/ ٥٥٤.

لا خوف من الإلقاء بعد اليوم

كن خطيب زمانك

تحت إشراف المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني ترخيص رقم ٢١٤/١٠٢٩

قالوا عن الدورات

دورة مهارات الإلقاء تحقق

* كيفية إعداد الكلمات والمحاضرات المقنعة والمؤثرة.
* كسر حاجز الهيبة من التحدث أمام الآخرين.
* التعرف على أسرار التأثير.
* تنمية مهارات الإصغاء .
* التعامل مع الأسئلة المفاجئة .
* تهيئة خريجي الجامعات للتطبيق والتدريس .

دورة الخطيب الصغير: دورة إلقاء للأبناء :

آداب اجتماعية ـ علوم رجال ـ لبس المشلح

بعد :

- **تنفيذ** ٢٥٠ دورة
- **وتدريب** ١٠,٠٠٠ متدرب ومتدربة
- **وتقديم** ٨ دورات دولية
- **وتقديم** ٦٠ برنامجاً لكبار الشخصيات والشركات والجهات الحكومية

من إصداراتنا

البوم شريط : فن الإلقاء

كتاب لماذا نخشى الإلقاء؟

متوفرة لدى مكتبات:
جرير ـ العبيكان

رجال | نساء | نشء

دورات معتمدة

خبرتنا تجاوزت عقداً من الزمن

الرياض ٠١٤٧٧٩٩٩٢ ٠٥٣٣٣٩٥٩٣٣ـ٠٥٠٤٢٥٤٧٩٤

www.alelqa.com

مركز الإلقاء

أول مركز متخصص في الإلقاء

الخطاب الليبرالي في مواجهة التطرُّف

(قراءة نقدية)

فهد بن صالح العجلان(*)
fsalehajlan@hotmail.com

كان لأحداث التفجير والتخريب التي ضربت بعض بلاد العالم الإسلامي وما زالت تضرب في بعضها الآخر، مجالاً وافراً للخطاب الليبرالي في عالمنا الإسلامي للحديث الباذخ عن التطرُّف ومعالمه وآثاره وكيفية مواجهته، وقد أنتج الخطاب الليبرالي في ذلك ما لا يمكن حَصْرُه من اللقاءات والندوات والمقالات المنشورة في فضاء الإعلام وأثيره وصفحاته، وما زال الخطاب الليبرالي في عالي لياقته في تناوُل هذه الموضوعات؛ لا يكاد يفتر عنها ولا يصيبه فيها كَلَل أو مَلَل. وإنَّ وَضْع الخطاب الليبرالي تحت العين البصيرة، وإمرار القراءة النقدية على صفحات نتاجه يبدي لنا معالم بارزة في طريقة تناوُل الخطاب الليبرالي لظاهرة الغلوِّ والتطرُّف:

المعْلَم الأول: ضَعْف تمييز العين الليبرالية وعدم قُدْرتها على التفريق بين المتطرِّف والمتديِّن:

إن ثمَّة قواسم مشتركة بين المتطرِّفين والمتديِّنين تُوقِع الليبراليين في حَيرة واضطراب؛ فالشكل الظاهري في إعفاء اللحية وتشمير الإزار، ومجالسُهما الخالية من الموسيقى والاختلاط والتبرُّج، وأقوالُهما في تعظيم الكتاب والسنَّة، ورجوع كِلَا الفريقين إلى علماء السلف الصالح، واحتكامهما إلى فتاوى الأئمة وكُتُب التراث... إلى موافقات كثيرة تكسرت بسببها مدارك التمييز في العقل الليبرالي؛ فانعدمت الرؤية الباصرة التي تميِّز بين المتطرِّف والمتديِّن. وما عاد أكثر الليبراليين بقادر على أن يميز؛ فاختلفوا في كيفية إدارة هذه الأزمة لعدم التمييز.

– دفع هذا الاضطراب والحيرة بكثير منهم إلى التسوية التامَّة بين المتهَمين بالتطرُّف والمتدينين، وخَلَصوا إلى أنهم جميعاً متطرِّفون غلاة، ووضعوا من المعايير الحاسمة التي تُعرَف من خلالها وسطية الشخص: اقترافُه بعض المحرَّمات الشرعية الظاهرة، كالموسيقى وحلق اللحية... ونحوها.

– وقاد آخرين منهم إلى ذمِّ التديُّن بوصفه تمهيداً لا بد منه للقفز نحو التطرُّف؛ فالمتدين وإن لم يُحكَم عليه

(*) محاضر بجامعة الملك سعود – الرياض.

بالتطرُّف إلا أنه يمشي على الطريق المؤدية إلى التطرُّف ولا بُد.

- وأكثرهم إنصافاً وتمييزاً من لا يتعرَّض للتديُّن ولا يعيبه بشيء، ولا يعتقد أن التديُّن تطرُّف كصاحبه الأول ولا هو طريق إليه كالثاني، إلا أنه يعيب المتطرِّفين بمعايب وأمور هي من التديُّن الصحيح ومما جاءت به السنَّة وليست من التطرُّف في شيء؛ مما يعني أنه يساوي بين التطرُّف والتديُّن في جزئيات وإن كان لا يشعر بها.

هذه الفئات الثلاث غالبة على الخطاب الليبرالي المعالِج لظاهرة التطرُّف في عالمنا الإسلامي، ولا أرى أن أطيل على القارئ الكريم بحشر النصوص الليبرالية المختلفة التي تبيِّن مفاصل هذه الفئات؛ لأنه بإمكان أي قارئ أن يفتح أي صحيفة أو يدخل إلى أي موقعٍ إلكتروني أو يشاهد أي قناة فضائية؛ ليجد أن عين الخطاب الليبرالي لا تكاد تُبْصر شيئاً سوى ما تُبْصر به الفئات الثلاث السابقة.

يتباهى بعض الليبراليين بجهود الليبرالية في تفكيك التطرُّف والصرامة في معالجته، ولا يَبْعُد ذلك عن الحقيقة كثيراً؛ غير أن هذه الصرامة كانت في وجه التطرُّف وفي وجه التديُّن أيضاً، وكانت ضد حالات الغلوِّ والفساد، ولم تَسْلم منها الأحكام الشرعية والنصوص المقدسة والمفاهيم الدينية.

فالتطرُّف والإرهاب في أدبيات الخطاب الليبرالي المعاصر مفردات غير محايدة ولا نزيهة، ولا تعني الغلو في الدين أو التورُّط في قضايا التفجير فقط، بل تحمل من العداء والكراهية لكل من يتمسك بدينه ويحافظ على أحكامه، وهي تتمدد باستمرار يمنةً ويسرةً لإسقاط ما تشاء من أفكار ورموز وبرامج بريئة.

المعْلَم الثاني: ضحالة العلم الشرعي وضَعْف الإدراك الفقهي لدى أكثر المتصدِّرين لمعالجة ظاهرة التطرُّف من ذوي الخطاب الليبرالي:

ليس بخافٍ أن التطرُّف والغلو إنما نشأا نتيجة نَظَرٍ منحرف في الدليل الشرعي، ولا يَقْدِر على تقويم هذا الانحراف وتوجيهه وبيان ما فيه من خطأ وجنوح إلا العلماء والمتخصصون.

غير أن الخطاب الليبرالي لا يثق بالعلماء، بل هم مَظِنَّة تهمة التطرُّف أساساً؛ فخاض الليبراليون في الأحكام الشرعية، مما دفعهم للإساءة إلى الأحكام الشرعية والعبث بالمفاهيم الدينية؛ فالليبرالي حين يقرأ أدبيات المتطرِّفين والغلاة يجدهم يتمسكون بمفاهيم (الجهاد) و (الولاء والبراء) و (نصرة المسلمين) و (الحكم بما أنزل الله) و (أحكام الكفار) و (الحجاب) وهو غير قادر على تمييز الجادة المستقيمة من الجنوح في هذه المعاني، ولا هو بواثقٍ بأهل العلم ليرجع إليهم، وليس هو بتارك الخوض في هذه القضايا ولو بلا علم... فكان هذا سبباً لنسف الحكم الشرعي تماماً وتغيير شعائر الله بالكلية؛ فلكي يعالج أحدهم الانحراف في مفهوم (الولاء والبراء) رأى أن الولاء والبراء إنما يكون للمحارِبين فقط من الكفار، ولا يكون للأشخاص المسالمين، بل ولا حتى لدينهم عند كاتب ليبرالي آخر!

وأصبح (تطبيق الشريعة) مظهراً من مظاهر التطرُّف في رَفْض الاستفادة من معطيات الحضارة المادية ودعوة لاستباحة الدماء والأموال.

و (الحجاب) لدى هؤلاء الليبراليين سِجْن لحرية المرأة وامتهان لكرامتها، وأن ليس في الشريعة أي حساسية من المساواة التامة بين المواطنين في كل الأحكام بلا فَرْقٍ بين رجلٍ وامرأة أو مسلم وكافر!

وهكذا يمارس الخطاب الليبرالي عدواناً على قيم الشريعة وأحكامها وأصولها بدعوى مواجهة التطرُّف وعلاج أزمة التفجير والإرهاب في العالم الإسلامي، وما يزيد الليبراليون في صنيعهم هذا إلا تشجيع التطرف ورميَ مزيدٍ من الحطب على نار الإرهاب والتفجير، وما مَثَلهم إلا مَثَل طبيب أراد أن يعالج وَجَع أصبعٍ في اليد فقطع كامل اليد.

أراد الليبراليون أن يعالجوا بخطابهم ظاهرة التطرُّف فزادوا المتطرِّف - بهذه العبثية - قوة وشراسة؛ لأنه يشعر أنه واقف ضد العابثين بقيم الدين؛ فيصلِّب هذا ظَهْرَه ثباتاً، بل نقلوا المشكلة بهذا من التطرُّف في الدين إلى التحلُّل من الأحكام؛ فاجتمعت مشكلتان في حين أرادوا علاج مشكلة واحدة!

المعْلَم الثالث: التناقض في الخطاب الليبرالي بين طريقة معالجة التطرُّف وبين القيم الليبرالية:

إن معالجة الليبراليين لظاهرة التطرُّف تتناقض في كثيرٍ من ملامحها مع أصول الفكر الليبرالي؛ فالخطاب الليبرالي يتمسك ويتباهى بالليبرالية نظرياً ويمزقها بجدارة في جانبه العملي.

نسي الخطاب الليبرالي - وهو يعالج ظاهرة التطرُّف - أعظم ما يعتز به الفكر الليبرالي؛ وهو الحرية الفردية؛ فمارس الخطاب الليبرالي ألواناً من الإقصاء والإرهاب الفكري والصرامة الأمنية القاسية التي يحمد المواطن ربَّه أنَّ مقاليد الأمور ليست بيد أرباب الحرية وإلا لتغير وجه العالم الإسلامي.

فالخطاب الليبرالي لا يتوقف عن المطالبة بالتضييق والتحديد والتحجير على خصومهم من التيار الديني الشعبي العام بدعوى معالجة ظاهرة التطرُّف: من مطالبةٍ بإيقاف المحاضرات وتعطيل المناشط الإسلامية ومراقبة المساجد ومَنْع التجمعات. ولا أظن - بعد هذا - أن ثمة نشاطاً إسلامياً لم يَسْلَم من المطالبة بإيقافه وتعطيله بدعوى معالجة التطرُّف؛ فالليبرالي (المناضل في سبيل الحرية) انقلب ديكتاتوراً عسكرياً يستكثر أي حرية ينالها أحد من الإسلاميين خوفاً من التطرُّف، ولا يعدو الحديث عن الإرهاب بعده إلا تبريراً باهتاً لم يعد له لون تَقْبَل العين مرآه.

ليت الخطاب الليبرالي يعلم أن الصدق في تطبيق المبادئ والالتزام بها إنما يكون في حال الأزمات والمضايق التي تثير الإنسان إلى أن ينتهك مبادئه؛ فيُلْجم هذه الدعاوى ويستمسك بالمبدأ، وأما في حال السَّعة والراحة وعدم الدوافع فكل الناس ذوو مبادئ وقيم وأخلاق؛ ولذلك فلا معنىً لتبرير هذا التناقض الليبرالي بالحديث عن وجود التطرُّف والإرهاب والغلو؛ لأن تطبيق المبادئ الليبرالية إنما يكون في حالة مثل هذه الدوافع التي تكشف حقيقة هذه المبادئ.

نسي الليبراليون في خطابهم لعلاج التطرُّف أنهم يعيبون على الإسلاميين (احتكار الحقيقة) و يشمئزون من طريقة الإسلاميين في تَمَسُّكِهم بـ (التفسير الوحيد) للنص، وأن النص في تفكيرهم (الحر!) قابل لكل التفسيرات؛ لأن الحقيقة نسبية وليس أحد التفسيرات بأَوْلى من التفسير الآخر... لو تذكَّر الليبراليون هذا وهُمْ يعالِجون ظاهرة التطرُّف لرأوا أن من العقل أن يتوقفوا عن أي حوار مع أشد الناس غلوّاً وتكفيراً وتفجيراً؛ لأنه يملك تفسيراً معيَّناً للنص الشرعي ومن واجب الليبراليين أن يحترموا تفسيره للنص كما كانوا يطالبون باحترام تفسيراتهم للنص في قضايا المرأة والميراث والشهادة وبقية الأحكام التي لا تروق للذائقة الغربية المعاصرة.

المعْلَم الرابع: استثمار الأجواء الملبَّدة من آثار الإرهاب والتفجير بتمرير الأفكار و الاتجاهات المنحرفة:

فقد شملت المعالجة الليبرالية للتطرُّف والإرهاب بعباءتها كافة الأفكار والأطياف والتيارات المصادمة والمعادية للنص والأحكام الشرعية، فأخذ كلٌّ يعرض فكرته المنحرفة كطوق نجاة من مستنقع الإرهاب، ويبرر الكثير منهم سبب وقوع الحوادث بإهمال السلطات والمجتمع بالأخذ برأيه الفكري والثقافي.

لذلك لم يكن التطرُّف الذي نحاربه ونعالج آثاره غلوّاً في الدين وانحرافاً عن جادَّته؛ فنحتاج إلى تصحيحٍ لمفاهيمه وعلاجٍ لتفكيره، بل هو انحراف عن رأي الليبرالي الذي يعالج القضية، وكلما ابتعد (المعالِج) في خطابه الليبرالي عن النص الشرعي، كلما اتسعت لديه دائرة التطرُّف ومساحة الاتهام بالإرهاب؛ حتى إنها لتسقط في بعض الأحيان على الإسلام نصاً وحُكْماً وشريعة.

هذه بعض ملامح الخطاب الليبرالي في علاجه لظاهرة التطرُّف والإرهاب التي ضربت - وما تزال - بعض بقاع العالم الإسلامي؛ خطاب عاجز عن تقديم وَصْفة علاجية ناجعة تزيل آثار التطرُّف أو تخفف من غلوائه، بل إن تحركات أذرع هذا الخطاب تزيد المشكلة تفاقماً وتعقيداً، وأكثر ما يقدمه هذا الخطاب في علاج الغلو في الدين، هو محاربته لأحكام الشريعة وتشويه حَمَلَة رايتها وتمرير الاتجاهات والأفكار المنحرفة، والتي كان الخطاب معتنقاً لها من قديم فجاءت هذه الأحداث فرصة للاستثمار والمتاجرة بها على حساب الوطن والأمن والمجتمع والدين.

للنشر والتوزيع

دار التدمرية

الجديد

والمخفض

دائماً

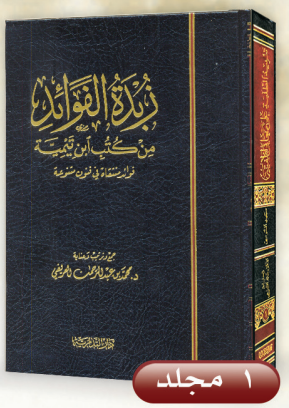

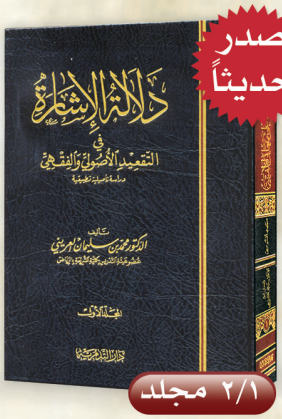

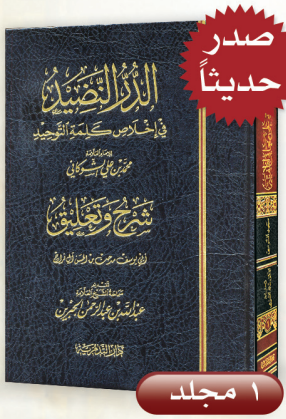

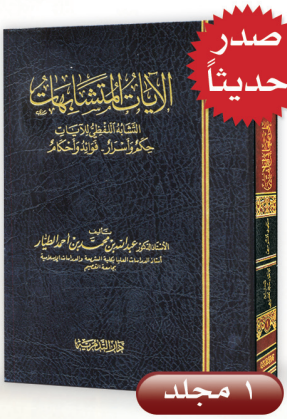

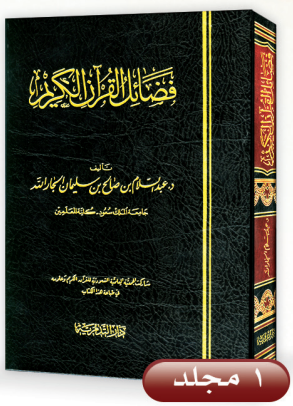

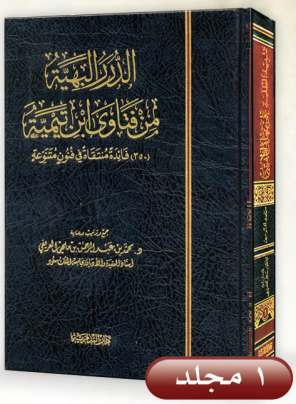

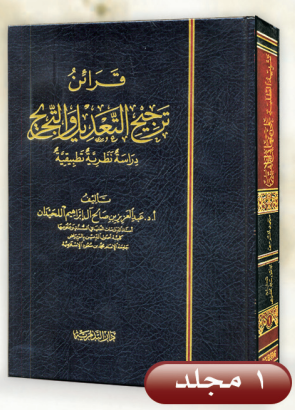

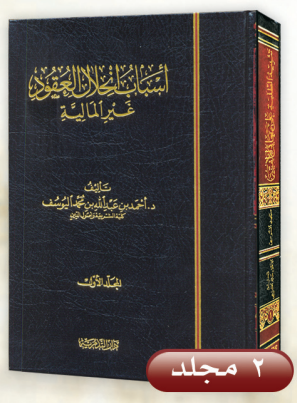

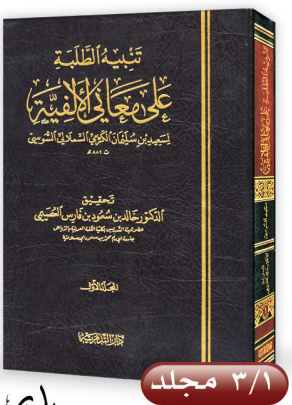

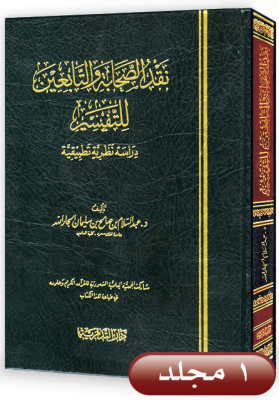

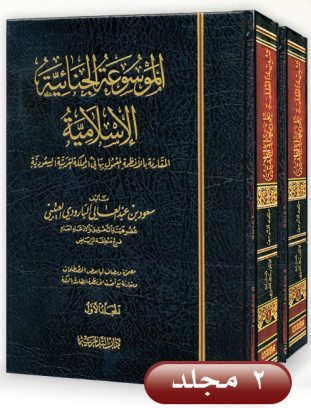

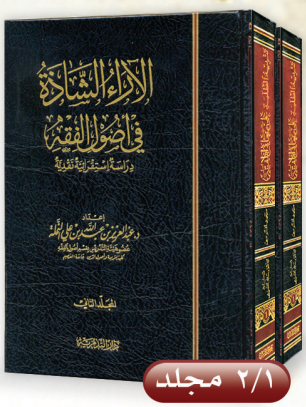

بدر
0508948947

tadmoria@hotmail.com

الرياض - الدائري الشرقي - جنوب مخرج ١٥ مقابل جامع الراجحي

الجديد هاتف : ٤٩٢٤٧٠٦/٤٩٢٥١٩٢ فاكس : ٤٩٣٧١٣٠ بريدة - طريق

الشاحنات - حي الصفرا - هاتف ٣٢٦٢٢٦٢

نقد الليبرالية

كتاب جديد للكاتب المغربي د. الطيب بوعزة

عرض: مجلة البيان

صدر مؤخراً للكاتب المغربي د. الطيب بوعزة عن سلسلة مجلة «البيان» كتاب معنون بـ: «نقد الليبرالية» الرياض ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

ويتساءل الكاتب في بداية دراسته النقدية هذه: «ما الدافع إلى جعل النسق الليبرالي موضوعاً للقراءة النقدية؟ وما الفرضيات والمداخل المنهجية التي سنعتمدها في المقاربة والتحليل لتأسيس ذلك النقد؟».

ثم يبين: «أن الدافع المسوغ لإنجاز بحثه هذا هو الحالة التي يتميّز بها المذهب الليبرالي عن غيره من المذاهب السياسية في لحظتنا الراهنة؛ حيث لم تعد الليبرالية اليوم تُقَدَّمُ بوصفها أنموذجاً أو نظاماً سياسياً واقتصادياً من بين أنظمة أخرى، بل يصح القول: إنها تكاد تُقَدَّمُ بوصفها الأنموذج الوحيد لتسيير الشأن السياسي والمجتمعي، دونما منافس لها أو بديل! ولذا يغدو السؤال عن دلالتها وتشغيل الوعي النقدي لبحث قيمها ومبادئها وتطبيقاتها المجتمعية؛ ضرورة ماسة نابعة من طبيعة لحظتنا التاريخية الآخذة في تشميل هذا النموذج على مختلف أقطار العالم».

وبما أن النقد يحتاج إلى رؤية منهجية فلا بد من استفهام صاحب الكتاب عن المنهج الذي اعتمده في نقد المذهب الليبرالي.

ونجد منذ بداية الكتاب إفصاحاً عن منهجه، حيث يقول:

«أما عن منهجيتنا في البحث فإننا سنشتغل بمنظورين اثنين:

الأول: وهو الناظم لرؤيتنا النقدية في جميع مستوياتها، نسميه بـ (النقد المثالي)، ويقوم على مقاربة فلسفية تتناول الأسس المفاهيمية والمعرفية الليبرالية؛ بقصد الكشف عن زيف المزاعم الإطلاقية لليبرالية.

أما الثاني: فهو نقد يرتكز على المقاربة التاريخية والسوسيولوجية للنسق الليبرالي من حيث هو نظام مجتمعي».

غير أنه ينبه منذ مدخل البحث قائلاً:

«ليس نقدنا لليبرالية نقداً للحرية، ولا دعوة إلى الاستبداد وترجيحه على التحرر، بل إن موقفنا المبدئي هو مع كل دعوة إلى التحرّر المسؤول؛ فحرية الكائن الإنساني هي خصيصة ميّزه بها الله عز وجل، وجعله بها حقيقاً بمهمة الاستخلاف في الأرض، تلك المهمة/الأمانة التي تستلزم الحرية وتستوجب المسؤولية الأخلاقية.

ولقد انتهى التأمّل الفلسفي إلى أن الإنسان كائن يمتاز بالخروج من مجال الضرورة الطبيعية إلى مجال الحرية، بكل ما تعنيه من اقتدار على الاختيار. وبانتقال هذا الاقتدار من مستوى القوة والإمكان إلى مستوى الفعل والإنجاز؛ يصبح الكائن الإنساني موضوعاً للمعايرة والحكم الأخلاقيين».

كما يحرص على التوضيح بأنه «إذا كانت الحرية تتمظهر كسمة من سمات الفعل الإنساني، وخصيصة من خصائص كينونته؛ فإنها ليست معنى قابلاً للتجسيد على نحو مكتمل ونهائي، بل هي معنى مثالي آفاقي تقترب منه التجربة الإنسانية ولا تَتَمَلَّكُهُ. وبوصف الحرية مثالاً من المثل السياسية الإنسانية؛ فإنها بذلك ترتفع عن أن تُختزل في مذهب أو فلسفة أو اتجاه من اتجاهات الفكر، أو نمط من

أنماط الحياة. ومن ثـم فنقدنا لليبرالية ليس نقداً للحرية؛ لأنه لا ترادف بينهما، بل من ناحيـة الاصطـلاح المنطقـي لا نجد بينهما علاقة شمول ولا تضمُّن ولا تطابق».

ويضيف بأن «منتهى الإفـلاس هو أن يزعم مذهب من المذاهب أنه جسَّـد مثالاً من المثل، وأن لا مجال من بعده إلا إعلان (نهاية التاريخ)!! وهو بالفعل المنزلق الذي سارت فيه الليبرالية الجديدة في طبعتها القاصرة مع فوكوياما عندما يقول إننا بلغنا: (نقطة النهاية للتطور الأيديولوجي للبشرية) الذي يتمثل في كونية النموذج الديمقراطي الليبرالي الغربي كشكل نهائي للحكم الإنساني».

وفي الفصل الأول بحـث د. الطيب بوعزة دلالة مفهوم الليبرالية من خلال سؤال/هاجس هو:

«ما المدخل المنهجي المناسـب لهذه المقاربة الدلالية: هل يكفي الإيغـال في بحث الدلالة اللغويـة للمفهوم، أم لا بدّ من اسـتحضار ما صدقه الواقعي في سياق التاريخ؟».

أمـا الفصل الثانـي فخصّصـه لبحث الليبرالية من حيث هي نظرية سياسية.

ثم انتقل في الفصل الثالث إلى بحث بُعْد الليبرالية الاقتصـادي؛ حيث فكك مرجعيتها الفكرية، لكن دون أن يتم اختزالها في الاقتصاد السياسـي الإنجليزي (عند سميث وريكاردو ومالتوس)، كما هو مسـلك غالبية الدراسات، بل استحضر أيضاً مرجعيتها الفيزيوقراطية، وجدلها مع الميركانتيلية.

وفي الفصل الرابع قـدم تحليلاً مفصلاً للنيوليبرالية، بدءاً من بحث سـياق نشـأتها، إلـى بحث اتجاهاتها النظرية التي تبلورت مع المدارس الثلاث، أي: المدرسـة النمساوية مع كارل منجر وبون بافريك، ومدرسـة لوزان مع فالراس وباريتو، ومدرسة كمبريدج مع ستانلي جيفنس وألفريد مارشال.

ونظراً لمحورية مفهوم السوق داخل النسق النيوليبرالي، فكان لا بدّ من أن يعطيه اعتبـاراً استثنائيـاً فخصّـص له ما يكفي لبيان وضعه في الرؤية النيوليبرالية.

ثم إن الليبرالية ليسـت مجرّد نظرية، بل هي منظومة مجتمعية تتجاوز الحقلين الاقتصادي والسياسي إلى حقل الإنسـان ببعده الأخلاقي، ولذا نجده يتوقف في الفصل الخامس لمساءلة الليبرالية من حيث علاقتها بالحرية والأخلاق.

أما في الفصل السادس فقد ألقى د. الطيب بوعزة نظرة على الخطاب الليبرالي العربي بدءاً من لحظة دخول المفاهيم الليبرالية في بداية عصـر النهضة العربية، ثم انتقالها إلى الاسـتواء في شكل نسق مع لطفي السـيد، وانتهاءً بتحليل مفاهيم الخطاب النيوليبرالي العربي المعاصر ونقائضه.

وبعد هذه الفصول السـتة توفرت مـادة معرفية كافية مكّنته من الختم بالجواب عن السؤال التالي:

هـل ثمَّة بديل عـن الليبرالية، أم أنهـا خاتمة للتاريخ البشري؟!

الورقة الأخيرة

حرب العطش ضد العرب

شعبان عبد الرحمن(*)
Shaban1212@gmail.com

منذ أن عرف المشروع الصهيوني طريقه للمنطقة والصراع على المياه لم يتوقف، وقبل أن يبدأ الصهاينة تنفيذ مشروعهم الاستعماري على أرض فلسطين في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر إثر نداء نابليون بونابرت الشهير لهم بالزحف إلى فلسطين، يشكل الاستحواذ على مياه المنطقة صُلْب هذا المشروع.

ولعله من المهم - للمهتمين بنشأة الكيان الصهيوني - العلم أن تيودور هرتزل ركز في مذكراته عام ١٨٨٥م على ضرورة ضم جنوب لبنان وجبل الشيخ (الغني بمياه أنهاره) إلى الأرض المغتصبة.

وفي عام ١٩١٧ نصح ديفيد بن غوريون في كتابه: «أرض إسرائيل» بأن تشمل حدود كيانه الغاصب منابع نهر الأردن والليطاني واليرموك؛ ليحرِم بذلك لبنان والأردن وسورية من أهم مصادر المياه. وفي عام ١٩٥٥م أكد أن «اليهود يخوضون مع العرب معركة المياه؛ وعلى نتائج هذه الحرب يتوقف مستقبل إسرائيل».

قنبلة موقوتة:

ليست هناك قضية يُجمِع الساسة والخبراء على أنها تمثل قنبلة موقوتة قابلة لتفجير الحرب في أي وقت مثل قضية «المياه».

لكن ما يهمنا هنا هو التذكير - للتدليل على حتمية وقوع تلك الحرب - بأن الكيان الصهيوني ودول جواره العربية التي يعمل على سرقة مياهها يعيشون جميعاً أزمة مياه ستزداد حدتها في السنوات القليلة القادمة.

فالبيانات الصادرة عن مراكز الدراسات العربية والغربية تشير إلى أن «إسرائيل» ستعاني في السنوات القليلة القادمة عجزاً في المياه يصل إلى ٥٠٪ من احتياجاتها، بسبب تزايد السكان وتزايد المشاريع الزراعية الرامية إلى تحويل الصحراء (٢٥٪ من فلسطين المحتلة) إلى أراض مستصلَحة.

والقائمون على التخطيط للمشروع الصهيوني يدركون جيداً خطورة أزمة المياه التي يمكن أن تحرق الكيان بمَنْ فيه إذا تفاقمت؛ ولذلك يسابق الكيان الزمن للاستحواذ على مياهنا، وفَرْض الموت عطشاً على شعوبنا، وقد احتل بند سرقة المياه العربية من الدول المجاورة جانباً كبيراً في الفكر الصهيوني، وكانت مقايضة الصهاينة الطرف العربي على مياهه حاضرة على موائد مفاوضات السلام المسمومة منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩م.

وليس خافياً العبث الصهيوني عند منابع الأنهار التي تروي الدول العربية؛ فهناك محاولات صهيونية عند منابع النيل لضرب نصيب مصر من مياه النيل؛ حيث تجري حرب مياه صامتة عند بحيرة فيكتوريا عبر تحريك غالبية دول حوض النيل للعمل على إعادة صياغة مشروع متكامل للاستفادة من مياه النهر، وأن يأخذ هذا المشروع الشكل القانوني الدولي الموثَّق، محدِّداً علاقة كل دولة بمياه النهر وحقها من تلك المياه، وحقها في إقامة المشاريع عليه.

وهذا يعني - بداهة - إسقاط كل الأشكال القانونية السابقة من اتفاقيات ومعاهدات؛ أي: إسقاط اتفاقية عام ١٩٢٩م التي تعطي مصر امتيازين مهمين:

الأول: ٥,٥٥ مليار م٣ من مياه النهر سنوياً؛ وهي أكبر الحصص التي تحصل عليها دول الحوض.

الثاني: حق الاعتراض «الفيتو» على إقدام أيٍّ من الدول التسع على أية مشاريع مائية يمكن أن تؤثر على حصة مصر.

لكن دول الحوض الأخرى ما عدا السودان، وخاصة أوغندا وتنزانيا، تطالب بمراجعة اتفاقية عام ١٩٢٩م لسببين لديها:

الأول: أن تلك الاتفاقية تمَّت في عهد الاحتلال الأجنبي لدول الحوض، وبجلاء هذا الاحتلال تكون قد سقطت تلقائياً.

الثاني: أنها لا تعطي حصصاً معقولة من المياه لبقية الدول؛ «فموارد النهر المائية تبلغ في المتوسط نحو ٩٢ مليار م٣ تحصل مصر منها بمقتضى الاتفاقية على: ٥,٥٥ مليار م٣»[1].

لكن مصر ترى أن تلك الاتفاقية تؤكد أن لها ما يسمى

(*) كاتب مصري - مدير تحرير مجلة المجتمع الكويتية.

(١) حروب المياه، د. حسن بكر.

بالحـــق التاريخي من جانب، وتعدُّها مـــن صُلْب أمنها القومي، خاصة أنها تحتاج إلى المزيد من مياه النيل بعد تزايد مشـــاريع الاســـتصلاح الزراعي فيها وأصبحت ٥,٥٥ مليار م٣ من مياه النيل سنوياً لا تكفيها. وتجري الآن محاولات صهيونية وأمريكية دؤوبة لدفع دول حوض النيل لتخفيض حصة مصر، وذلك يأتي فـــي إطار ابتزاز مصر، ومن هنا يكـــون التنازل عن متر مكعب واحد من حصتها يعني اقتراباً من حالة الموت عطشاً وجوعاً.

والخطورة تكمن في الأصابع الأجنبية التي تســـاند الدول الإفريقية في مطالبهـــا بهدف الضغط على مصر؛ إذ المطلوب تركيعها تماماً بالتجويع والتعطيش؛ فقد اندلعت أزمة مشـــابهة أكثـــر عنفاً في مطلع الثمانينيات من القـــرن الماضي، فجَّرتها إثيوبيا فـــي وجه مصر، وحملـــت المطالب نفســـها، وثبت أن مفجِّرها كانت الأصابع الصهيونية والأمريكية، الضاغطة على مصـــر لتوصيل مياه النيل للكيان الصهيوني، وقد نجحت مصر في وقف تلك الأزمة التي عاودت اليوم الظهور مرة أخرى.

إذاً نحن أمام أزمة تشتعل وتخبو بين الحين والآخر، مهددة الأمن القومي للشـــعب المصري، بل حياته، ولا ينبغي أن تُترَك القضية نائمة دون حل جذري.

سرقة مياه الأردن ولبنان:

وإذا انتقلنا إلى بقية دول الجوار العربي للصهاينة نجد أن العجز فـــي المياه لـــدى الأردن – مثلًا – وصل إلى أكثر مـــن ٢٠٪ وتتزايد النسبة في سورية بعد أن انخفض نصيبها من مياه الفرات ٤٠٪.

والملاحَظ أنه مع كل أزمة تنشـــب مع الكيـــان الصهيوني – صغرت أم كبرت – ينكشـــف الطرف العربي ويبدو للمراقب إلى أي مدى تغيب إستراتيجيته الموحَّدة في المواجهة.

فأزمة المياه التي نشبت في يوليو ٢٠٠٦م إثر تركيب لبنان بعـــض المضخات على نهر الوزاني[1] لســـحب كميات من المياه تحتاج إليهـــا المنطقة المحيطة به في الجنـــوب اللبناني، كانت نموذجـــاً لذلك. وقد تابعنا كيف انطلقت التهديدات الصهيونية بالحـــرب إذا لم يتراجع لبنان ويزيل هذه المضخات، وكأن النهر شـــراكة بين الكيان الغاصب ولبنان ، وكأنه ليـــس نهراً لبنانياً مائة في المائة. إن الصهاينة يســـتندون في الادعاء بحقهم في مياه النهر على ما يسمى بـ «خطة جونسون»؛ وهي الخطة التي فرضها الرئيس الأمريكي الأســـبق دوايت أيزنهاور عام ١٩٥٣م علـــى دول المنطقـــة وتفرض للكيـــان الصهيوني – عنوة – حقاً فـــي المياه اللبنانية والأردنية والســـورية. ورغم أن دول المنطقة رفضت تلك الخطـــة يومها؛ إلا أن الصهاينـــة طبقوها بالقوة وبمساندة أمريكية واضحة.

حروب من أجل المياه:

ولعلنا نتذكر أن هذه المضخات التي قام لبنان بتركيبها كانت موجودة على النهر قبل حرب عام ١٩٦٧م لكن الصهاينة أسرعوا بتدميرها عقب الحرب مباشرة ووضعوا مكانها مضخات بديلة راحت تضخ الميـــاه اللبنانية إلى المســـتوطنات الصهيونية في شـــمال فلســـطين المحتلة. كما أن عملية «الليطاني» العسكرية ضـــد لبنان عام ١٩٧٨م، وعملية «ســـلامة الجليل» التي اجتاح العدو فيها لبنان عام ١٩٨٢م جاءت لإحكام السيطرة على المياه اللبنانية عموماً وليس نهر الوزاني فقط.

العدو الصهيوني إذاً خاض أكثر من حرب ضد لبنان واحتل جنوبه لمدة عشرين عاماً بسبب المياه، بل إن السيناتور الأمريكي الأسبق بول ســـايمون ينقل في كتابه: « أزمة المياه القادمة في العالم وما يمكن أن نفعله حيالها» عن أرييل شارون قوله: «الناس بشكل عام يعتبرون الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧هو اليوم الذي نشـــبت فيه حرب الأيام الستة. إن ذلك ناتج عن الإعلام الرســـمي، لكن الحقيقة أن تلك الحرب بدأت قبل ذلك بسنتين ونصف في اليوم الذي قررت فيه اســـرائيل العمل ضد تحويل مجرى نهر الأردن».

كلام السادات والملك حسين:

ومخططات الصهاينة ضد الحقوق العربية في المياه لم تكن أبداً لغزاً مجهولاً لدى الزعماء العرب وإنما كانت واضحة تماماً للجميـــع؛ فالرئيس المصري الراحل الســـادات قال قبل توقيعه لاتفاقية «كامب ديفيد» مع بيغين: «إن المسألة الوحيدة التي قد تزج بمصر إلى الحرب مرة أخرى، هي المياه».

والملك الأردني الراحل حســـين قال الكلام نفسه: «إن المياه هي القضية التي قد تدفع المنطقة إلى الحرب».

فلمـــاذا تغيب الإســـتراتيجية العربية هنـــا؟ وما المانع من تشـــكيل مجلس أعلى يكون أشـــبه بمجلس حـــرب يضم كافة الخبراء بالقضية ويضع الأمة على أهبة الاســـتعداد للدفاع عن حياتها ومستقبلها المتمثل في مياهها التي يصر الصهاينة على سرقتها برضىً منا؟

لكـــن يبدو أننا نحلم؛ فأية اســـتراتيجية حـــرب تلك التي نطالب بهـــا إذا كان الطرف العربي صار غارقاً حتى أذنيه في أوهام السلام. وحتى السلام لم يعد له إستراتيجية في مواجهة إستراتيجية العدو!

(١) متفرع من نهر الحصباني اللبناني الذي يصب في نهر الأردن.

انتظرونا

[البيان في حلة جديدة]

ساهم بـ
1500 ريال
فايزية
fayzia h
المكتب التعاوني للدعوة ووالإرشاد وتوعية الجاليات بالفايزية ببريدة
٤ مريضتي
في حجة المسلم الجديد
حساب 340608010111135
أو الاتصال 0553838811
بادر بالتسجيل والمساهمة فالعدد محدَّد
ليكن هذا الأجر العظيم لك . . أو لأحد والديك